نقولا زيادة

الجغرافيا والرحلات عند العرب

نقولا زيادة

الأعمالُ الكاملة

نقولا زيادة

الجغرافيا والرحلات عند العرب

2

الجغرافية والرحلات عند العرب

إلى زوجتي

وفاء لحبها وتشجيعها لي وصبرها عليّ

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

الجغرافية والرحلات عند العرب

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
© رائد وباسم زيادة
إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

المحتويات

القسم الأول: العرب والجغرافية ٩
مقدمة ١١
١ ـ المدرسة اليونانية العربية ١٥
٢ ـ المدرسة العربية ٢٤
٣ ـ المقدسي ٣٧
٤ ـ المعاجم الجغرافية ٤٥
٥ ـ الموسوعات ٦٧
٦ ـ تونس وجغرافيو العرب ٩١
٧ ـ السند وجغرافيو العرب ٩٤
القسم الثاني: أدب الرحلة عند العرب ١٠١
طلائع الرحالين ١٠٣
المسعودي ١٠٧
رحالون من المشرق ١١١
رحالة من المغرب ١١٧
رحالة عالم: البغدادي ١٢٧
التجاني التونسي ١٣١
شيخ الرحالين: ابن بطوطة ١٣٩
ابن فضلان في بلاد الصقالبة ١٤٥
القسم الثالث: تجارة الخليج العربي ١٤٩
طريق البخور وطريق الحرير ١٥١
الخليج العربي وتجارته ١٥٦
الخليج العربي ورحالو العصور الوسطى ١٦١
الخليج العربي والرحالون الاوروبيون ١٦٨
الرسوم والخرائط ١٧٥

القسم الأول

العرب والجغرافية

مقدمة

عندما نحاول تقرّي ما عرفه العرب عن الجغرافية نجد شيئاً لا يستهان به يرجع إلى ما قبل الاسلام وخاصة عن الأنواء. وهذه المعرفة سببها الأصلي هذا الاهتمام بالتجارة البحرية والبرية التي كان العرب يمارسونها بكثرة. ومع ان الذي وصلنا من المعلومات قليل من حيث نوعه، فمما لا ريب فيه أن كمية أكبر من تجارب العرب واختباراتهم البحرية والبرية فيما يتعلق بالرياح والأمطار أصبح جزءاً من التراث الجغرافي العملي لمن اتصل بهم، كما ان بعض الذي عرفوه هم، كان جزءاً من التراث الجغرافي العملي لمن سبقهم.

بعد الفتوح العربية الاسلامية، ولما أصبح الاهتمام بالرقعة المفتوحة جزءاً هاماً من العمل الاداري للدولة، صار وصف الأقاليم والعناية بها جزءاً من أخبار الفتوح والمغازي والتنظيم. ثم جاء دور الاهتمام بالمنطقة من حيث ثروتها ومقدرتها على دفع الضرائب. وهنا نجد أول استقلال لما يصح أن يسمى الجغرافية الادارية أو السياسية عن الفتوح والمغازي واخبارها. هذه الجغرافية الادارية تبدو واضحة في كتاب «المسالك والممالك» الذي وضعه ابن خرداذبه في أواسط القرن الثالث للهجرة (القرن التاسع للميلاد) وفي كتاب «الخراج وصنعة الكتابة» لقدامة بن جعفر. فالأول يمكن اعتباره تقريراً عن جباية المملكة العباسية، كما يمكن أن نجد في الثاني وصفاً للطرق والمسافات وتقديراً لجباية الدولة.

وبإستقرار الدولة وكثرة تنقل الحجاج والتجارة وأهل العلم والرحّالين، واهتمام الكثرة من هؤلاء بتدوين ما يرون ويشهدون ويسمعون، أخذت العناية بالجغرافية تتبلور حول دراسة الأقاليم والمناطق دراسة وافية، مع كثير من التحرر من القيود السابقة، وصارت المعرفة الجغرافية بنفسها هي الأصل.

يمكن القول بأن هذه الفترة، أي القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) تمثل دور النضج في الجغرافية العربية. وقد استمر هذا فيما بعد لمدة لا يستهان بها. ونلاحظ أربعة اتجاهات أو تطورات في التأليف الجغرافي العربي: الأول العناية الشديدة باقطار العالم الاسلامي على ما يبدو من كتابات البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي [1] ؛ والثاني نوع من التخصص في قطر واحد. فالهمذاني وضع «صفة جزيرة العرب»، والبيروني كتب عن الهند، وابن فضلان وصف بلغار الفولغا. والاتجاه

الثالث هو وضع المعاجم الجغرافية، وهذا شيء بدأ في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر). فالبكري وصف معجمه بقوله: «هذا معجم ما استعجم ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والاخبار والتواريخ والاشعار من المنازل والديار والقرى والامصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة» [٢]. وكتاب ياقوت الحموي «معجم البلدان» خزانة أدب وعلم واخبار وتاريخ وجغرافية [٣]. ونلاحظ الاتجاه الرابع في هذه الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن (الرابع عشر)، من نوع «نهاية الارب» للنويري و«صبح الاعشى» للقلقشندي و«مسالك الابصار» لابن فضل الله العمري وغيرها. هذه الكتب اعتنت بما يصح أن يسمى الجغرافية الاجتماعية السياسية الاقتصادية، أي بشؤون العمران عامة. والذي يقرأ بعض فصول هذه الموسوعات يرى إلى أي حد اهتم المؤلفون بجمع معلوماتهم ومتابعة التطور في الاقطار المختلفة على ترتيب زمني.

والكتابة الجغرافية في هذه الفترة الطويلة تبدو لها ميزات واضحة. فمن ذلك اعتمادها على المشاهدة الشخصية والحس. ومن ذلك عنايتها بالمسالك والطرق والمسافات، ومن ذلك ندرة الاحصاءات عند الجغرافيين ان لم نقل انعدامها[٤].

فالمشاهدة والمعرفة الشخصية المباشرة، يقول ابن حوقل عنها «واعانني على تأليفه [تأليف كتابه] تواصل السفر وانزعاجي عن وطني... إلى ان سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها»[٥]. والأصطخري يقول: «ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالاعمال المجموعة إليها...» [٦].

وقد نقل الخلف عن السلف في الكثير من الاحيان. فالبعض ذكر ذلك، والبعض الآخر سكت عنه. وقد حذّر المقدسي قراءه انه «لم ينقل عن احد، ولكنه خبر ودون وكتب». وقد انتقد المقدسي كتب من سبقه من الجغرافيين [٧]. وهنا نلحظ المقدسي الجغرافي العالم الدقيق الذي يريد أن يكون البحث مبنياً دائماً على الدرس والاختبار، منظماً مبوباً وافياً بحيث لا يخلط بين جد العالم وهزل الهازل. ولما جاء أبو الفدا تناول في مقدمة كتابه «تقويم البلدان» من تقدمه من الجغرافيين بالنقد، فاظهر ان ابن حوقل والادريسي وابن خرداذبه لم يحققوا الاسماء، وغيرهم لم يحقق الاطوال. أما هو فقد جمع بين التحقيق في الأسماء والاطوال [٨]. والواقع ان كتابه يصح ان يعتبر تاريخاً انتقادياً للكتابة الجغرافية العربية إلى عصره (القرن الثامن للهجرة).

ثمة مؤلف جغرافي آخر حري بالالتفات، ذلك هو الادريسي صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». كتب هذا الكتاب بالعربية في صقلية في بلاط ملكها روجر الثاني سنة ١١٥٤م، وصاحبه لم يزر جميع الممالك الاسلامية الشرقية، لكنه كتب عنها مما حصل عليه من كتب الرحلات ورسائل الزوار.

والادريسي يمثل مدرسة جغرافية خاصة، هي التي سماها ميلر المدرسة العربية النورمانية [٩] . فقد كان بلاط روجر الثاني ملتقى الحضارتين وموئلاً للحرية العلمية في القرن الثاني عشر الميلادي. والخرائط التي رسمها الادريسي كانت ذات أثر كبير في تصوير الدنيا للاوروبيين مدة طويلة بعد عصره.

ويمكن القول اجمالاً بأن الجغرافيين من العرب عرفوا قومهم ومن جاء بعدهم في الشرق والغرب بالعالم الاسلامي خاصة. وقد وقف الابتكار العربي في الجغرافية أيام الادريسي، إذ لم يقم بعده من جاء بجديد سوى الرحّالين. وتجدر الاشارة هنا إلى ان مؤرخي الأبحاث الجغرافية متفقون على أن فضل العرب على الفلك كان عظيماً جداً.

كانت الرحلة عنصراً قوياً في حياة المجتمع الاسلامي في عصوره الزاهرة. فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التي تحملوها راضين مسرورين. ورحل الناس في طلب العلم من قطر إلى آخر. فقد كان العلم منتشرة مراكزه في أنحاء العالم الاسلامي، وطلابه كانوا يتحملون من المشاق في سبيل الحصول عليه ما يحملنا على احترامهم واجلالهم. ورحل القوم في سبيل الاتجار، فقد كانت الأسواق الاسلامية في مشارق الأرض ومغاربها مرتبطة ببعضها البعض كل الارتباط، وكان التجار يحملون متاجرهم وسلعهم إلى حيث يرجون الربح الوفير. اضف إلى كل ذلك رحلة الرسل المترددين بين الملوك والامراء، والمغامرين الواجدين في الرحيل لذة خاصة، والساعين في سبيل الرزق إذا ضاقت بهم أرضهم، وجوابي الآفاق. كل هذه نماذج من الرحلة عرفها العرب والمسلمون. وقد شجعهم على الاستزادة منها خضوع العالم الاسلامي برقعته الواسعة لدولة واحدة بادىء الأمر. فلما ذهبت الوحدة السياسية، بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة وهاتان ربطتا الحجاج وطلاب العلم ورسل السلاطين وحملة البضائع وزعماء الصنائع فاحتفظوا بالصلة. بل لعل الرحلة كانت أقوى في عهد التفرق السياسي منها قبلاً لاعتياد العالم الاسلامي درجة من المعيشة، ونوعاً من الحياة ولوناً من التفكير تحتم على افراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكري والأدبي.

وقد دوّن كثير من رحالي العرب اخبار أسفارهم وتنقلهم، فذكروا المدن التي هبطوها والمسافات التي اجتازوها والصعوبات التي تغلبوا عليها، ووصفوا البلاد وزرعها، وقيدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها، وأتوا على وصف حياة السكان فعرضوا للطيب من عادتهم بالمديح، وعابوا ما فيهم من ضعف، كالذي انتقده ابن جبير من عادة أهل دمشق في تحيتهم وصفة سلامهم، فقال عنهم: «وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء... فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال» [١٠].

هذه اللفتات التي نعثر عليها في مذكرات السائح هي التي تميزه من الكاتب الجغرافي. فهذا يسأل ويستقصي ويحقق ويحاول أن يشمل كل جزء من المنطقة التي يعرض لدرسها. أما الرحّالة فينقل ما يشاهد، وتكون صورته جزئية، ولكنها ثمينة. فبينما يذكر المقدسي أو أبو الفدا كل شيء عن اقليم الشام، نجد ان ابن جبير ـ وهو سائح ـ لا يتناول مدن الغور أبداً لأنه لم يصل إليها، وابن بطوطة يذكر فلسطين وخاناتها وأماكن المكس والتفتيش فيها لانه جاء البلاد براً من مصر.

الهوامش

(١) المقدسي، شمس الدين، «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم»، ليدن، بريل، ١٩٠٦ ص١ و٤٣؛ الاصطخري، ابي اسحق إبراهيم، «مسالك الممالك»، ليدن، بريل، ١٩٢٨ ص ٢ و١٢؛ وابن حوقل، ابو القاسم محمد، «صورة الأرض»، ليدن، بريل، ١٩٣٨ ص ٥. راجع ايضاً قدامة بن جعفر «نبذ من كتاب الخراج»، ليدن ١٨٨٩ ص ٢٣٤.

(٢) البكري، عبد الله بن عبد العزيز، «معجم ما استعجم»، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥ ص ١.

(٣) زيدان، جرجي، «تاريخ آداب اللغة العربية» الجزء الثالث، القاهرة، مطبعة الهلال، ١٩١٣، ص ٨٩؛ للمؤلف، «رواد الشرق العربي» ص ٥٧، «الرحالة العرب» ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٤) راجع متز، آدم، «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري»، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥، ج ٢ من الترجمة العربية ص ٢٢٥ وما بعدها: «واخيراً ظهرت طريقة ساذجة في الاحصاء فقد ذكر ابن حوقل مرة واحدة ان بمدينة بلرم قصبة صقلية ما يزيد عن مائة وخمسين حانوتاً للقصابين، واراد ان يتخذ من ذلك دليلاً على كثرة عدد اهلها». ابن حوقل، ص ١١٩.

(٥) ابن حوقل، «صورة الأرض». ص ٣ ـ ٤.

(٦) الاصطخري، ص ٢.

(٧) المقدسي، ص ٤ ـ ٥.

(٨) راجع للمؤلف «رواد الشرق العربي» ص ٦٠.

(٩) Miller, Konrad, *Mappae Arabica*, Stuttgart, Erster Band, Erster Heft, 1926 pp. 24-25.

(١٠) ابن جبير، ابو الحسن محمد، «رحلة ابن جبير»، ليدن، بريل، ١٩٠٧، ص ٢٩٦.

المدرسة اليونانية العربية

في المكتبة العربية ما لا يقل عن أربعين كتاباً من أمهات الكتب تبحث في الجغرافية، وهو تراث ضخم. ونحن نستطيع أن نتتبع تاريخ التأليف الجغرافي في اللغة العربية في ادواره الأولى، فنجد ان مجموعة الجغرافيين الذين كتبوا في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) كانوا متأثرين إلى درجة كبيرة بالمعرفة اليونانية ـ الرومانية. وإذا جاز لنا تسمية هذه المجموعة من النتاج الجغرافي لسميناها الجغرافية اليونانية مترجمة أو معربة.

يمثل هذه المدرسة ابن خرداذبه صاحب «المسالك والممالك»، واليعقوبي مؤلف «كتاب البلدان»، وابن رسته واضع «الاعلاق النفيسة»، والخوارزمي الذي ألف «كتاب صورة الأرض»، وابن الفقيه وقد وضع «كتاب البلدان»، والكندي مؤلف «رسم المعمور من الأرض»، وقدامة بن جعفر وهو الذي خلّف لنا «كتاب الخراج». وقد أخذ هؤلاء المعرفة الجغرافية اما عن اليونان رأساً أو عن الترجمات أو الخلاصات السريانية والأرمنية. وعندما نقول المعرفة الجغرافية اليونانية فاننا نعني بطليموس وآراءه الجغرافية. والذي نعرفه هو ان الجغرافيين العرب لم يتركوا لنا ترجمة كاملة لجغرافية بطليموس، ولكن الخوارزمي الفلكي خلّف لنا خلاصة لها عملها سنة ٨٤٠م.

يتضح أثر بطليموس في جغرافيي هذه المدرسة في أمرين اثنين بشكل خاص: الأول أخذ الأطوال والعروض والمواقع عنه؛ اما الأمر الثاني فهو ان هؤلاء الجغرافيين قبلوا بتقسيم العالم إلى سبعة أقسام على ما قسمه بطليموس. وكتاب الكندي المسمى «رسم المعمور من الأرض» هو في الواقع اقتباس لبطليموس.

وقد كان الخوارزمي معاصراً للخليفة المأمون. وكتاب «صورة الأرض» وضع اما في أواخر عهد هذا الخليفة العالم أو في عهد خليفته المعتصم على ما يرى بارتولد. والخوارزمي يورد في كتابه الاسماء القديمة والحديثة (أي المعاصرة له) مما يدل دلالة واضحة على اهتمامه ببطليموس وتأثره به. والخرط التي رسمها الخوارزمي هي في الواقع تعريب لخرط بطليموس. وقد كان هذا طبيعياً بالنسبة إلى مؤلفين كان ذلك أول عهدهم بالاتصال بمثل هذا النوع من المعرفة. وقد اشترك هذا العالم في وضع الخرط التي طلبها المأمون للأرض.

كان الكندي (تو ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م) معاصراً للخوارزمي في أواخر أيامه. ومع ان

شهرة الكندي تعود إلى أنه فيلسوف، فقد اعتنى بالجغرافية. والذي يجب أن نذكره دوماً أن العلماء والفلاسفة في تلك العصور كانوا ينظرون إلى المعرفة نظرة الوحدة، ولذلك فليس من غرابة في أن يضع الفيلسوف كتاباً في الجغرافية.

وابن خرداذبه فارسي الأصل بغدادي النشأة، وقد تولى ادارة البريد في الجبال. ووضع كتابه «المسالك والممالك» في أواسط القرن التاسع الميلادي.

ينتسب اليعقوبي إلى العباسيين. وقد تنقل في ديار الاسلام بحيث قضى سنوات طويلة في أسفاره، وعاد إلى بغداد حيث توفي (٢٨٤ هـ/ ٨٩٧م). وقد كان حريصاً على تدوين ملاحظات عن الجغرافية الطبيعية وعن المجتمعات التي تعرف إليها. لذلك يمكن اعتباره من أوائل الذين اهتموا بالجغرافية البشرية. واليعقوبي شديد التعلق ببغداد، بحيث بدأ كتابه بوصفها.

يحدثنا المؤلف عن نفسه فيقول: «اني عنيت في عنفوان شبابي... بعلم اخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد لأني سافرت حديث السن واتصلت أسفاري ودام تغربي. فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره... وبلده... وزرعه»... [١] . وعندما يصف بغداد يقول: «وانما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الأرض، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبراً وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء»[٢]. فإذا انتهى من ذلك رجع إلى تقسيم بطليموس في عرضه للعالم فتحدث عن الربع الأول بلداً بلداً، وهكذا حتى يأتي على وصف العالم المعروف.

وضع ابن رسته موسوعته «الاعلاق النفيسة» وخص الجغرافية بجزء منها (هو الجزء السابع). وكان ذلك في أواخر القرن الثالث للهجرة (حول ٩٠٠م) وقد اهتم بالنواحي الفلكية. ومن هنا نجد أثر بطليموس عنده أوضح منه عند غيره. فالأقسام الأولى من الكتاب التي تتحدث عن الأرض وعلاقتها بالفضاء وخطوط الزوال والأجرام وتقسيم هيئتها وما إلى ذلك من الموضوعات هي بطليموسية لحماً ودماً.

فإذا فرغ من ذلك انتقل إلى المدن والممالك يصفها ويجمع اخبارها. وهو في ذلك مثل غيره من الجغرافيين في تلك الفترة، يجمع بين الحقائق وبعض الأساطير. لكن معرفته، مثل معرفتهم، غزيرة، وكثير منها مبني على المشاهدة.

وضع ابن رسته كتابه وهو مقيم بأصفهان ولذلك فاننا ننقل وصفه لهذه المدينة. يقول: «سألت ان اصف لك اصبهان وتربتها وهواءها وطيبها وسقيها واحوالها وسائر أسبابها التي تبين بها من سائر البلدان الموصوفة فضائلها، المذكورة عجائبها، إذ كنت من أهلها. وكان ما أودعته كتابي من ذكر غيرها من البلدان انما هو عن خبر قد يصح ويسقم، وحكايات احتجت إلى التعويل فيها على تقليد من لعل الضرورة دعت إلى تعديله وقبول قوله، إذ كانت احاطتي بعلم احوال ما ذكرتها من البلدان ومسافات ما

بينها وعجائبها وتفاضل بعضها على بعض وما لها من الخاصيات متعذرة علي، وعلى كل من حاول ما قصدت له، ولم يكن لأحد ان يطالبني به. وإذ كان ما انعت به اصبهان انما هو عن عيان أو حكاية عمن لا يقدر فيها على تزييد لأن العمل فيه لا يكون على قول واحد وليس بمتعذر ان يتعرف المشكوك فيه بجماعة لا يتفق اقاويلهم على غير حق، وانا أذكر من أمرها جملة موجزة اقتصر عليها لما اخشاه من تطويل الكتاب وأرجو أن يكون ما أورده مقنعاً ان شاء الله.

«اصبهان كورة واسعة الرقعة قد اجمع الناس على انها ثمانون فرسخاً في مثلها ومن قصبتها إلى كورة شيراز من بلاد فارس ثمانون فرسخاً ليس في ذلك اختلاف بين أحد من السابلة والتجار الذين يكثر اختلافهم.

«... وتربتها أصح الترب تبقى بها الثمار سنة مثل العنب على رقة قشره والصيني مع كثرة مائه والتفاح والسفرجل والرمان حتى يجمع فيها بين العتيق والجديد منها، وتبقى بعد ذلك أيضاً مدة. ويقال انه إذا بلغ ما يجلب من تفاحها وسفرجلها إلى بغداد النهر وان اشتم روائحها في القصبة واستقبل وابتيع. ثم بها معادن الفضة إلا انها في هذا الوقت مهجورة لا يعمل فيها. وآثار العمل الذي كان يعمل فيها قائمة من آبار محفورة كان يستخرج منها الجوهر، ومعادن ظاهرة ومواضع مضارب كانت مضروبة وأواري وآثار للمواضع المسكونة ومن أماكن للسبك وما كان يحتاج إليه في استخراج الفضة من الحجر وتخلصها منه، كل ذلك قائم بين ظاهر. وكان العمل فيها قائماً حتى جاء الله بالاسلام وكان أهلها مجوساً فأخذوا بالجزي ولم يكونوا عهدوها فشغلوا عن العمل فيها فتعطلت. وبها معدن الصفر وعليه للسلطان خراج عشرة آلاف درهم. وبها معدن الاثمد الفائق الذي يجلب إلى الآفاق وكذلك التوتيا» [٣].

ابن خرداذبه: المسالك والممالك

صفة الأرض

قال أبو القاسم ابن خرداذبه: «صفة الأرض انها مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحّة في جوف البيضة والنسيم حول الأرض وهو جاذب لها ومن جميع جوانبها إلى الفلك. وبنية الخلق على الأرض ان النسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة والارض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل، لأن الارض بمنزلة الحجر الذي يجتذب الحديد. والأرض مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق إلى المغرب. وهذا طول الأرض وهو أكبر خط في كرة الأرض كما ان منطقة البروج أكبر خط في الفلك وعرض الأرض من القطب الجنوبي الذي يدور حوله سهيل إلى القطب الشمالي الذي تدور حوله بنات نعش. فاستدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلثمائة وستون درجة والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع والذراع أربع وعشرون اصبعاً والأصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى

بعض يكون ذلك تسعة آلاف فرسخ. وبين خط الاستواء وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة اصطرلابية واستدارتها عرضاً مثل ذلك. إلا ان العمارة في الأرض بعد خط الاستواء أربع وعشرون درجة ثم الباقي قد غمره البحر الكبير. فنحن على الربع الشمالي من الأرض والربع الجنوبي خراب لشدة الحر فيه والنصف الذي تحتنا لا ساكن فيه، وكل ربع من الشمالي والجنوبي سبعة أقاليم. وذكر بطليموس في كتابه ان مدن الأرض على عهده كانت أربعة آلاف ومائتي مدينة» (٤).

المسافة إلى المشرق من البصرة في البحر

«من البصرة إلى عبادان اثنا عشر فرسخاً، ثم إلى الخشبات فرسخان ثم تصير إلى البحر فشطّه الايمن للعرب وشطه الأيسر لفارس وعرضه سبعون فرسخاً وفيه جبلا كسير وعوير وعمقه سبعون باعاً إلى ثمانين باعاً. ومن الخشبات إلى مدينة البحرين في شط العرب سبعون فرسخاً وأهلها لصوص يقطعون على المراكب ولا زرع لهم، ولهم نخل وإبل. قال اعرابي:

رمى به في موحش القفار بساحل البحرين للصغار

«ومنها إلى الدردور مائة وخمسون فرسخاً ثم إلى عُمان خمسون فرسخاً، ثم إلى الشحر مائتا فرسخ. ومن الشحر إلى عدن مائة فرسخ وهي من المراقي العظام ولا زرع بها ولا ضرع وبها العنبر والعود والمسك ومتاع السند والهند والصين والزنج والحبشة وفارس والبصرة وجدة والقلزم. وهذا البحر هو البحر الشرقي الكبير ويخرج منه العنبر الجيد وعليه الزنج والحبشة وفارس وفيه سمك طول السمكة مائة باع ومائتا باع، يخاف منها على السفن فتتقر بضرب الخشب على الخشب. وفيه سمك مقدار الذراع يطير، وجوهه كوجوه البوم، وفيه سمك طول السمكة عشرون ذراعاً في جوفها مثلها وفي الأخرى مثلها إلى أربع سمكات، وفيه سلاحف استدارة السلحفاة عشرون ذراعاً وفي بطنها مقدار ألف بيضة وظهورها الذبل الجيد. وفيه سمك على خلقة الجمال، وفيه طير تجمع من قذى البحر عند سكونه فتبيض وتفرخ على وجه الماء لا تخرج إلى الأرض» (٥).

الطريق إلى المدينة

«فمن أخذ على المدينة فمن المعادن إلى العسيلة فيها آبار مالحة ستة وأربعون ميلاً، ثم إلى بطن نخل كثيرة الماء ستة وثلاثون ميلاً، ثم إلى الطرف فيها ماء السماء اثنان وعشرون ميلاً، ثم إلى المدينة وهي طيبة خمسة وثلاثون ميلاً، قال صرمة الانصاري:

قلما اتانا اظهر الله دينه وأصبح مسروراً بطيبة راضيا

وقال العباس بن الفضل العلوي:

وعلى طيبة التي بارك الله عليها لخاتم المرسلينا

«ويقال لها يثرب أيضاً وكان عليها وعلى تهامة في الجاهلية عامل من قبل مرزبان البادية يجبي خراجها وكانت قريظة والنضير ملوكاً ملّكوها على المدينة، على الأوس والخزرج، وفي ذلك يقول شاعر الانصار:

تؤدي الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير»[٦]

مسلك التجار اليهود الراذانية

«الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية وانهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف. ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً. ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة، ثم يمضون إلى السند والهند والصين. فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم، ثم يحملونه إلى الفرما، ثم يركبون في البحر الغربي. فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك. وان شاؤوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الابلة ومن الابلة إلى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض»[٧].

من عجائب البلدان

«وفي بلاد الروم على بحر الخزر بلاد تدعى المستطلة، المطر بها دائم الشتاء والصيف لا يقدر أهلها على دياس زروعهم وتذريتها، وانما يجمعونها في البيوت في السنبل فيخرجون منها بقدر حاجتهم فيفركونه بالأيدي ثم يطحن ويخبز في بلادهم بزاة كثيرة في كثرة الغربان عندنا انما هي اقاطيع وليس يقدرون مع كثرتها على اتخاذ الدجاج.

«واهل الحجاز واليمن يمطرون الصيف كله ويخصبون في الشتاء فمطر صنعاء وما والاها حزيران وتموز وآب وبعض ايلول من الزوال إلى المغرب. يلقى الرجل الرجل نصف النهار فيكلمه فيقول عجل قبل الغيث لأنه لا بد من المطر في هذه الأيام»[٨].

اليعقوبي: كتاب البلدان

طريق مكة من مصر

«ومن أراد الحج من مصر وخرج من مصر إلى مكة فأول منزل يقال له جب عميرة، به يجتمع الحاج يوم خروجهم، ثم منزل يقال له القرقرة في صحراء لا ماء بها ثم منزل يقال له عجرود به بئر قديمة بعيدة الرشاء زعقة الماء ثم إلى جسر القلزم. فمن أراد أن يدخل مدينة القلزم وهي مدينة على ساحل البحر عظيمة فيها التجار الذين يجهزون الميرة من مصر إلى الحجاز وإلى اليمن وبها مرسى المراكب واهلها اخلاط من الناس، تجارها أهل يسار. ومن القلزم ينزل الناس في برية وصحراء ست مراحل إلى ايلة ويتزودون الماء لهذه الست المراحل. ومدينة ايلة مدينة جليلة على ساحل البحر المالح وبها يجتمع حاج الشام وحاج مصر والمغرب وبها التجارات الكثيرة واهلها اخلاط من الناس وبها قوم يذكرون انهم موالي عثمان بن عفان وبها برد حبرة يقال انه برد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال انه وهبه لرؤية بن يحنه لما صار إلى تبوك ومن ايلة إلى شرف البعل ومن شرف البعل إلى مدين وهي مدينة قديمة عامرة بها العيون الكثيرة والانهار المطردة العذبة والاجنة والبساتين والنخل واهلها أخلاط من الناس. ومن أراد أن يخرج منها إلى مكة أخذ على ساحل البحر المالح إلى موضع يقال له عينونا فيه عمارة ونخل وبه مطالب يطلب الناس فيها الذهب ثم إلى العونيد وهي مثلها ثم إلى الصلا ثم إلى النبك ثم إلى القصيبة ثم إلى البحرة ثم إلى المغيثة وهي تبعل ثم إلى ظبة ثم إلى الوجه ثم إلى منخوس وبمنخوس غاصة يخرجون اللؤلؤ ثم إلى الحوراء ثم إلى الجار ثم إلى الجحفة ثم إلى قديد ثم إلى عسفان ثم إلى بطن مر. ومن أراد أن يسلك على طريق مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ من مدين إلى منزل يقال له اغراء ثم إلى قالس ثم إلى شغب ثم إلى بدا ثم إلى السقيا ثم إلى ذي المروة ثم إلى ذي خُشب ثم إلى المدينة فهذه المنازل من مصر إلى مكة المدينة» (٩).

ابن رسته: الأعلاق النفيسة

صفة مدينة صنعاء

«هي مدينة اليمن ليس باليمن ولا بتهامة ولا بالحجاز مدينة اعظم منها ولا اكثر أهلاً وخيراً ولا أشرف أصلاً ولا أطيب طعاماً منها وهي مدينة جبلية برية معتدلة الهواء يعدل طيب هوائها في جميع السنة هواء ربيعياً في السنة إذا اعتدلت وطابت ويفرش الفراش الواحد في مكان فلا يحول من ذلك المكان لحر ولا برد سنين كثيرة وتدرك عندهم الحنطة دفعتين والشعير والارز ثلاث دفعات وأربعاً ومن ثمارهم وعنبهم ما يدرك في السنة دفعتين أيضاً وهي مدينة كثيرة الأهل طيبة المنازل بعضها فوق

بعض إلا انها مزوقة أكثرها بالجص والآجر والحجارة المهندمة منها ما أساسها من الجص والآجر وسائرها حجارة مهندمة حسان وبعض ارضي بنائها الجص والآجر وبعضها بالجص وأكثر سطوحها مفروشة بالحصا لكثرة أمطارها ولأمطارها أوقات معلومة عندهم علامات لذلك لا يخطئون ويمطرون في شهور الصيف شهراً واحداً ومن الخريف تمام أربعة أشهر ثم تنقطع الامطار عندهم فلا يمطرون أصلاً إلى مثل ذلك الوقت من العام الآخر وأكثر ابتداء مطرهم في الوقت الذي يمطرون فيه بعيد العصر وربما تكون السماء نقية ولا يرى للمطر علامة والناس تحت بعضهم بعضاً على الفراغ من اعمالهم حذراً من المطر فينشؤ السحاب مع فراغهم فيمطرون أكثره من وقت العصر إلى وقت المغرب فيجرف السيل جميع ما يكون فيها من القذى ويغسل تلك الكورة بأسرها ويجري ذلك الماء إلى مزارعهم في مجار قد اتخذوها لهذا الأمر لا يتعطل معه شيء من هذه المياه، ولم يكن لهم سور في القديم واحدث ذلك بعد فتنة ابن يعقر ملكهم ولمدينتهم شارع يشقها بنصفين وينفذ إلى واد يجري فيه السيول أيام المطر في عرض دجلة أو أقل منها ويسمى السرار وعلى ضفتيه قصور مبنية من الجص والآجر والحجارة وعامة هذه القصور للدباغين واليه أيضاً ينفذ فوهة أزقتها وسوقها في ناحية مما يلي قبلتها وبعض هذا الشارع ولكل واحد من أزقتها بابان يفضي أحدهما إلى هذا الشارع والآخر إلى سور البلد ومسجد جامعها بقرب سورها مبني من حجارة وجص وهو مسجد كبير وذكر فقهاء تلك الناحية ان هذا المسجد بني بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعهده وان في موضع المحراب قبر نبي من الانبياء وكان يعظم ذلك قبل بناء المسجد في المتقدم من أجل ذلك وانه تولى بناءه رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وقبالة المسجد الجامع بالقرب منه على قدر عشر اذرع قلعة أساسها من الصخر وهي تعرف بغمدان موضع التبابعة بناها سام ابن نوح. وذكر فقهاؤهم انه أول بناء بني بعد الطوفان وسمكها مرتفع جداً وقد نقض عامة حواليها واستعمل ما خرج منها من الحجارة حتى قال بعضهم انه اكتفى بما خرج منها من الحجارة عن نقل الحجارة إليها من غيرها، وفي هذه القلعة بئر يستقى منها الماء إلى هذه الغاية ويقولون لها بئر سام بن نوح، وفيها بئر أخرى وهي البئر التي وجد فيها قتيل من المسلمين في خلافة عمر فاشترك في قتله سبعة نفر فقتلهم عمر جميعاً به وقال «لو تمالى عليه أهل صنعاء لقتلتهم به» وهذا حديث معروف رواه سعيد ابن المسيب عن عمر وغيره من عمر، وإذا ارتقى المرقى الباقي من بناء غمدان أشرف على جميع صنعاء، ولمسجدها اثنان وعشرون مؤذناً يؤذنون جميعهم في كل صلوة أحدهم على اثر الآخر إلا في صلوة المغرب خاصة ثم يأخذون جميعاً في الاقامة بصوت واحد وهم يمشون من المنارة إلى الصف فإذا انتهوا إلى الصف يكونون قد فرغوا من الاقامة، وفي كل منزل من منازلهم بئر يسقى منها للشرب ويفضل ماء

الآبار على مياه العيون الجارية عندهم ووصف فقيه منهم انه وزن ماء من آبارهم قليلاً مع مثله من ماء دجلة فوجد ماء البئر أخف من ماء دجلة، وبقرب كل مسجد من مساجدهم إلا القليل منها سقاية فيها ماء للسبيل ومغتسل ومتوضى كل مصهرج، وفيه طاق كبير قد عقد من حجارة بقرب الجزارين ذكر اهلها انه ذبح في هذا الموضع في الزمن الأول ستة عشر نبياً، وطعامهم البر النقي والعلس وهو شبيه بالحنطة إلا انه أدق من الحنطة في سنابل لا تشبه سنابل الحنطة عليها قشرتان احديهما قشرة المسنبلة والأخرى قشرة مقاربة لقشر الارز فيقشر من قشرته ويطحن ويخبز فيوجد طعمه أطيب من طعم خبز الحنطة، وعندهم فواكه سرية مثل أنواع التفاح والبرقوق وهو المشمش والفرسك أنواع وهو الخوخ ومن أنواع الإجاص ما ليس بخراسان والكمثرى أنواع كثيرة وعندهم على ما زعموا قريب من سبعين لوناً عنب وعندهم النخيل في قراها دون قصبتها والموز عندهم كثير في كل موضع يدرك الموز عندهم في كل أربعين يوماً بقطع ثمرته ولا ينقطع القطاف عنهم أبداً وعندهم باقلى رطب وقصب سكر وجوز وفستق ورمان وتين وسفرجل وبطيخ حسن غير طيب يؤكل مع السكر والقثاء وأنواع الخضر والاترج عندهم كثير كبار حلو الطعم وألوان الرياحين والورد والياسمين والنرجس والسوسن ألوان وربما وجد كلها في وقت واحد وعندهم العسل الكثير ويفضلون لحم البقر على لحم الضأن السمين يشترى جميع ذلك بسعر واحد، ومن عندهم يجلب الادم والنعال المشعرة والانطاع والبرود المرتفعة والمصمت والاردية يبلغ الثوب من البرد عندهم خمسمائة دينار وألوان الفصوص والاواني بقرانية وسعوانية والجزع وأنواع الخرز يبلغ الفص من البقراني مائة دينار وأكثر، ولهم سوق على حدة لا يباع فيها إلا المزامير قد شدوها حزماً ونضدوها في حوانيتهم ولهم خانات كثيرة ومجال فيها خلق كثير يعملون أواني الجزع وأنواع الخرز، وليس لشيء من مساجدها رحبة إلا المسجد الجامع، ووجوههم قوم من نسل سيف بن ذي يزن في غاية السراوة والنبل يتقدمون في ذلك وجوه سائر الكور وهم قوم يرجعون إلى سخاء وكرم، وللحوم ضأنهم وبقرهم خاصية وذلك انها لا تنضج إلا على الجمر والوقود يسخنها ولا ينضجها، وضياعهم أجلّ ضياع وأكثرها فاكهة وأحسنها عمارة وهي على ثلاثة أصناف صنف منها على العيون وصنف على الآبار يستقى منها بالإبل والبقر وصنف وهي اثراها واكثرها قيمة على ماء السد والسد سكر قد اتخذ على فوهة جبال قد أحاطت بمواضع تقرب من ضياعهم قد نصبوا على اسافل ذلك السد افواهاً يجرون منها المياه في أنهار قد احتفروها إلى ضياعهم وكانت قراهم عشرية قبل ولاية ابن يعفر فوظف ابن يعفر بدل ذلك عليهم مائتي ألف دينار، ومعاملة أهل البلد بالدنانير المطوقة والدراهم السديسية والفلوس فضرب الدرهم ربما ارتفع من الستين إلى المائة بدينار والفلوس أربعة وعشرون بدرهم وزن كل درهم سدس درهم، وعندهم

قرع كبار كل قرعة مثل جرة كبيرة يباع بالامنان مقطعاً وكل ما كان أكبر كان أرطب، ونساؤهم حرائر والناس ينتشرون في حوائجهم بالنهار ويجتمعون في مجالس الفقهاء وغيرهم بعد العتمة إلى وقت يضرب فيه الكوس المنصوب على غمدان فيسمع ذلك أهل البلد فمن وجد قبل صوت الكوس لم يتعرض له ومن وجد بعد ذلك خارجاً حبس وعوقب، والغالب على عامة أهلها وعلى سائر اليمن التشيع وأكثر ايمانهم أن يقولوا وحق امير المؤمنين علي، وزعم ان من صنعاء على ستة فراسخ قلعة لابن يعفر صاحب اليمن تعرف بشبام وشبام ليس إليها طريق إلا طريق واحد ضيق يرتقى إليها من جبل صعب قد نصب عليه قنطرة يعبر إليها بها وفيها قصور كثيرة تزيد على خمس مائة وقرى كثيرة تزيد على أربعين قرية فيها عيون وأنهار ومزارع وبساتين ونخل ومواش لا تحصى كثرة من الابل والدواب وغيرها وفي نفس شبام سوق عظيمة ومسجد جامع كبير وهذه القلعة بجميع ما فيها من القرى كانت خاصة لابن يعفر هذا في خاصته وكبار قواده وقراباته في هذه القلعة وعساكره نزول على أهلها وفيها مساكن ومرابض تحتمل الوفاً من الرجال والدواب وتخترقها عيون كثيرة الماء» (١٠).

الهوامش

(١) اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب، «كتاب البلدان»، ليدن، بريل ١٨٩١ ص ٢٣٢.
(٢) نفس المكان، ص ٢٣٣.
(٣) ابن رسته، ابي علي احمد بن عمر، «كتاب الاعلاق النفيسة»، ليدن، بريل، ١٨٩١ ص ١٥١ ـ ١٥٦.
(٤) ابن خرداذبة، «المسالك والممالك»، ليدن، بريل، ١٨٨٨ ص ٤ ـ ٥.
(٥) نفس المكان، ص ٦٠ ـ ٦١.
(٦) نفس المكان، ص ١٢٨.
(٧) نفس المكان، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.
(٨) نفس المكان، ص ١٥٦.
(٩) اليعقوبي ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.
(١٠) ابن رستة، ص ١٠٩ ـ ١١٣.

٢ ـ المدرسة العربية

في القرن الرابع للهجرة (القرن العاشر الميلادي) ظهر عدد من الجغرافيين الذين أغنوا المكتبة الجغرافية في غير ناحية واحدة. ولسنا نعتزم ان نتحدث عنهم جميعاً في هذه العجالة، لذلك سنكتفي بالبارزين منهم، وهم البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي.

البلخي هو أبو زيد احمد بن سهل من أهل بلخ، وقد قرأ التاريخ والفلسفة على الكندي في بغداد، وبعد ذلك عاد إلى بلده وعمل لأميرها. وكان البلخي قليل الرحلة نزر النقلة. وقيمة البلخي ليست فيما كتب من ناحية البلدان ومراحلها، ولكن من حيث انه أول من استقل عن بطليموس. فقد وضع «كتاب الاشكال أو صورة الاقاليم»، وهو ما يصح أن يسمى بداءة الاطلس العربي، إذ انه مجموعة من الخرط مع شروح. ويرى الأستاذ كونراد ميلر ان الذي نعرفه إلى الآن عن الجغرافية ورسم الخرط عند العرب يؤكد لنا ان البلخي فتح فتحاً جديداً في رسم الخرط وشرحها، وهو «أول من استقل عن بطليموس» [١]، وليس ذلك بالأمر القليل. وقد ألف البلخي أيضاً كتاب «المسالك والممالك».

ويقول المقدسي عنه أنه قسّم الارض عشرين جزءاً [٢]، وهنا يبدو الانفصال عن بطليموس.

وقد توفي البلخي سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م، ولعله وضع كتبه قبل وفاته بما يزيد عن السنين العشر.

في السنة التي توفي فيها البلخي وضع الاصطخري (وهو أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي) كتابه «المسالك والممالك». ويرى المشتغلون بدراسة المؤلفين الجغرافيين عند العرب ان الاصطخري يعتمد البلخي في كتابه، وحتى في خرطه. وقد ذكر المقدسي في أثناء حديثه عن الذين سبقوه من الجغرافيين الاصطخري فقال «وما صوره ابراهيم الفارسي [من الخرط] هي أقرب إلى الصحة يعتمد عليها، وقد أخل وخلط في مواضع كثيرة» [٣].

ولعلّ اطرف شخصية من جغرافيي القرن الرابع (العاشر) هو ابن حوقل، ابو القاسم محمد. والمعروف عنه انه بدأ الرحلة سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٢م من بغداد وعاد إليها بعد ثلث قرن، زار خلالها ديار الاسلام من الهند إلى اسبانية، وتغلغل في مناطق أخرى

كثيرة، حتى انه وصل بلاد البلغار من أعالي الفولغا. وقد قرأ كثيراً واتصل كثيراً، فجاء كتابه «صورة الارض» يجمع بين هذه الاختبارات كلها.

لقي ابن حوقل الاصطخري (سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١ ـ ٩٥٢م) فقال ان الاصطخري كان قد صنع خارطة رديئة للسند لكنه صنع خارطة جيدة لفارس فأراه ابن حوقل خارطتين من صنعه احداهما لأذربيجان والأخرى للجزيرة فمدحهما الاصطخري كثيراً. ثم ان الاصطخري طلب من ابن حوقل ان يعيد النظر في كتابه كله ويحسنه. ففعل ابن حوقل ذلك. [٤] ومنذ ذلك الحين أصبح الاصطخري دليل الرحالة الجغرافي بعد ان كان يعتمد قدامة بن جعفر من قبل. حتى ان ابن حوقل لما ألف كتابه احتذى حذو الاصطخري، لكن خرطه كانت أدق وأنفع.

وقد خلف لنا جغرافيو القرن الرابع عدداً كبيراً من الخرط الخاصة بديار الاسلام بلغ ٨٢ خارطة لكنها انتهت الينا في ٢٢٧ نسخة.

ونختم هذه اللمحة الخاطفة عن جغرافيي القرن الرابع الهجري بوصف ابن حوقل لبرقة وطرابلس في ليبيا:

«فأما برقة فمدينة وسطة ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزرية، ولها كور عامرة، وهي في بقعة فسيحة تكون مسيرتها يوماً وكسراً في مثله. ويحيط بالبقعة جبل من سائر جهاتها. وارضها حمراء خلوقية التربة، وثياب أهلها أبداً محمرة، ويعرف أهلها بالفسطاط (بمصر) من بين أهل المغرب بحمرة ثيابهم وتغيرهم ويطوف بها (برقة) من كل جانب منها بادية يسكنها الطوائف من البربر. وهي برية بحرية جبلية، ووجوه أموالها جمة. وهي أول منبر ينزله القادم من مصر إلى القيروان. وبها من التجارة، وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع طلاباً لما فيها من التجارة وعابرين عليها مغربين ومشرقين. وذلك انها تتفرد في التجارة فيها من التجارة بالقطران الذي ليس في كثير من النواحي كهو، والجلود المجلوبة للدباغ بمصر، والتمور الواصلة إليها من جزيرة اوجلة. ولها أسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت، وضروب المتاجر الصادرة من المشرق، والواردة من المغرب. وشرب أهلها من ماء المطر بمواجن يدخر بها. واسعارها بأكثر الأوقات فائضة بالرخص في جميع الأغذية» [٥].

«فأما أطرابلس فكانت قديماً من عمل أفريقية وسمعت من يذكر أن عمل أفريقية، لما كانت أطرابلس مضافة إليها معروف معلوم، وكان من صبرة وهي منزل من أطرابلس على يوم، وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا. ولم أعرفها قديماً ولا سمعت بها على الخارج من أطرابلس إلى القيروان وعلى القادم من القيروان إلى أطرابلس غير ما يقبضه المتولي عمل أطرابلس من كل جمل ومحمل وحمل. وذلك كالذي بلبده، وهي أيضاً قرية بينها وبين أطرابلس إلى جهة المشرق مرحلتان، من

الضريبة على الجمال والاحمال والمحامل والبغال والرقيق والغنم والحمير إلى ما عدا ذلك من الأسباب الواردة وأخذ الصدقات والخراج واللوازم والبربر المقيمين هنالك من هوارة وغيرهم إليه. وهي (أطرابلس) مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر، خصبة حصينة كبيرة ذات ربض، صالحة الاسواق كبيرة وكان لها في ربضها أسواق كبيرة فنقل السلطان بعضها إلى داخل السور. وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية وارتفاعها دون ارتفاع برقة في وقتنا هذا، وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره كالخوخ الفرسك والكمثرى اللذين لا شبه لهما بمكان. وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع وطيقان الأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة. إلى مراكب تحط ليلاً ونهاراً، وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحاً ومساءً من بلد الروم وارض المغرب بضروب الامتعة والمطاعم، وأهلها قوم مرموقون بنظافة الاعراض والثياب والاحوال، متميزون بالتجمل في اللباس، وحسن الصور والقصد في المعاش، إلى مروآت ظاهرة وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيات جميلة، إلى مراء لا يفتر وعقول مستوية وصحة نية ومعاملة محمودة ومذهب في طاعة السلطان سديد، ورباطات كثيرة ومحبة للغريب اثيرة ذائعة. ولهم في الخير مذهب من طريق العصبية لا يدانيهم أهل بلد. إذا وردت المراكب ميناهم عرضت لهم دائماً الريح البحرية فيشتد الموج لانكشافه ويصعب الأرساء فيبادر أهل البلد بقواربهم وحبالهم متطوعين فيقيد المركب ويرسى به في أسرع وقت بغير كلفة لأحد ولا غرابة حية ولا جزاء بمثقال» [٦].

الاصطخري: مسالك الممالك

بحر فارس

«وسنذكر بعد ديار العرب بحر فارس فإنه يشتمل على أكثر حدودها وتتّصل بديار العرب منه وبسائر بلدان الاسلام ونصوّره ثم نذكر جوامع مما يشتمل عليه هذا البحر ونبتدىء بالقلزم على ساحله مما يلي المشرق فإنه ينتهي إلى أيلة ثم يطوف بحدود ديار العرب التي ذكرناها وبيّناها قبل هذا إلى عبّادان ثم يقطع عرض دجلة وينتهي على الساحل إلى مهروبان ثم إلى جنابة ثم يمر على سيف فارس إلى سيراف ثم يمتدّ إلى سواحل هرموز وراء كرمان إلى الدّيبل وساحل الملتان وهو ساحل السند وقد انتهى حدّ بلاد الاسلام ثم ينتهي إلى سواحل الهند حتى ينتهي إلى سواحل التّبت فيقطعها إلى أرض الصين، وإذا أخذت من القلزم غربيّها على ساحل البحر سرت في مفاوز من حدود مصر حتى تنتهي إلى مفاوز هي للبجة وبها معادن الذهب إلى مدينة على شطّ البحر يقال لها عيذاب ثم تمتدّ الحبشة وهي محاذية لمكّة والمدينة حتى تحاذي قرب عدن ثم ينقطع الحبشة ويتّصل بظهر بلد النّوبة حتى ينتهي إلى بلدان الزنج وهي من أوسع تلك الممالك فيمتدّ على محاذاة جميع بلدان الاسلام وقد انتهى

مسافة هذا البحر ثم يعرض فيه جزائر وأقاليم مختلفة إلى أن يحاذي أرض الصين.

«وقد صوّرت هذا البحر وذكرت حدوده مطلقة وسأصف ما يحيط به وما في اضعافه جملاً يقف عليه من قرأه ان شاء الله، أما ما كان من هذا البحر من القلزم إلى ما يحاذي بطن اليمن فإنه يسمّى بحر القلزم ومقداره نحو ثلاثين مرحلة طولاً وعرضه أوسع ما يكون غير مسير ثلاث ليال ثم لا يزال يضيق حتى يرى من بعض جنباته الجانب الآخر حتى ينتهي إلى القلزم ثم يدور على الجانب الآخر من بحر القلزم، وبحر القلزم مثل الوادي به جبال كثيرة قد علا الماء عليها وطرق السفن بها معروفة لا يهتدى فيها إلا بربّان يتخلل بالسفينة في أضعاف تلك الجبال بالنهار فأما بالليل فلا يسلك وماؤه صاف ترى تلك الجبال فيه، وفي هذا البحر ما بين القلزم وأيلة مكان يعرف بتاران وهو اخبث ما في هذا البحر من الأماكن وذلك انه دوّارة ماء في سفح جبل إذا وقعت الريح على ذروته انقطعت الريح على قسمين فتنزل الريح على شعبين في هذا الجبل متقابلين فتخرج الريح من كلي هذين الشعبين فتتقابل فيثور الماء وتتبلّد كل سفينة تقع في الدوارة باختلاف الريحين وتتلف فلا تسلم واحدة وإذا كان للجنوب أدنى مهبّ فلا سبيل إلى سلوكه ومقدار طوله نحو ستة أميال وهو الموضع الذي غرق فيه فرعون. وبقرب تاران موضع يعرف بجبيلات يهيج ويتلاطم أمواجه باليسير من الريح وهو موضع مخوف أيضاً فلا يسلك بالصبا مغرّباً وبالدبور مشرّقاً. وإذا حاذى أيلة ففيه سمك كثير مختلف الألوان، وإذا قابل بطن اليمن سمّي بحر عدن إلى أن يجاوز عدن ثم يسمّى بحر الزنج إلى أن يحاذي عمان عاطفاً على فارس وهذا بحر يعرض حتى يقال ان عبره إلى بلد الزنج سبع مائة فرسخ وهو بحر مظلم اسود لا يرى ما فيه شيء وبقرب عدن معدن اللؤلؤ يخرج ما يرتفع منه إلى عدن، وإذا جزت عمان إلى أن تخرج عن حدود الاسلام وتتجاوزه إلى قرب سرنديب يسمّى بحر فارس وهو عريض البطن جداً في جنوبه بلدان الزنج. وفي هذا البحر هوارات كثيرة ومعاطف صعبة ومن أشدها ما بين جنّابة والبصرة فإنه مكان يسمّى هور جنّابة وهو مكان مخوف لا تكاد تسلم منه سفينة عند هيجان البحر، وبها مكان يعرف بالخشبات من عبّادان على نحو من ستة أميال على جري ماء دجلة إلى البحر يرق الماء حتى يخاف على السفن الكبار ان سلكته ان تجلس على الأرض إلا في وقت المدّ وبهذا الموضع خشبات منصوبة قد بني عليها مرقب يسكنه ناظور يوقد بالليل ليهتدى به ويعلم به المدخل إلى دجلة وهو مكان مخوف إذا ضلّت السفينة فيه خيف انكسارها لرقّة الماء، وبحذاء جنّابة مكان يعرف بخارك وبه معدن اللؤلؤ يخرج منه الشيء اليسير إلا ان النادر إذا وقع من هذا المعدن فاق في القيمة غيره ويقال ان الدرّة اليتيمة تقع من هذا المعدن، وبعمان وبسرنديب في هذا البحر معدن لؤلؤ ولا اعلم معدناً للؤلؤ إلا ببحر فارس.

«ولهذا البحر مدّ وجزر في اليوم والليلة مرتان من حدّ القلزم إلى حدّ الصين حيث انتهى وليس لبحر المغرب ولا لبحر الروم ولا لسائر البحار مدّ ولا جزر غير بحر فارس وهو ان يرتفع الماء قريباً من عشرة اذرع ثم ينضب حتى يرجع إلى مقداره. وفي هذا البطن من البحر الذي نسبناه خصوصاً إلى فارس جزائر منها لافت وخارك وأوال وغيرها من الجزائر المسكونة وبها مياه عذبة وزرع وضرع، فهذه جوامع من صفة هذا البحر من حدود الاسلام. وسأصف ما على سواحله صفة جامعة نبتدىء منها بالقلزم ثم ننتهي بالصفة إلى جنباته إن شاء الله، وأما القلزم فإنها مدينة على شفير البحر وينتهي هذا البحر إليها وهي في عطف هذا البحر في آخر لسانه وليس بها زرع ولا شجر ولا ماء وإنما يحمل لهم من آبار ومياه بعيدة منهم وهي تامّة العمارة بها فرضة مصر والشام ومنها تحمل حمولات الشام ومصر إلى الحجاز واليمن وسواحل هذا البحر وبينها وبين فسطاط مصر مرحلتان. ثم ينتهي على شط البحر فلا تكون بها قرية ولا مدينة سوى مواضع فيها ناس مقيمون على صيد من هذا البحر وشيء من النخيل يسير حتى ينتهي على تاران وجبيلات وما حاذى جبل الطور إلى أيلة. وأيلة هذه مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير وهي مدينة اليهود الذين حرّم الله عليهم صيد السبت وجعل منهم القردة والخنازير وبها في يد اليهود عهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما مدين وما انتهى على هذا البحر في عطوف اليمن إلى عُمان والبحرين إلى عبّادان فقد وصفناه في صفة ديار العرب. وأما عبّادان فإنها حصن صغير عامر على شطّ البحر ومجمع ماء دجلة وهو رباط كان فيه محارس للقطريّة وغيرهم من متلصّصة البحر وبها على دوام الايام مرابطون. ثم تقطع عرض دجلة فتصير على ساحل هذا البحر إلى مهروبان من حدّ فارس ويعرض فيها أماكن تمنع من السلوك إلا في الماء وذلك ان مياه خوزستان تجتمع إلى دورق وحصن مهديّ وباسيان فتتصل بماء البحر. ومهروبان مدينة صغيرة عامرة وهي فرضة أرّجان وما والاها من اداني فارس وبعض خوزستان. ثم ينتهي البحر على الساحل إلى شينيز وهي مدينة أكبر من مهروبان ومنها يرتفع الشينيزيّ الذي يحمل إلى الآفاق. ثم ينتهي إلى جنّابة، وجنّابة هذه مدينة أكبر من مهروبان وهي فرضة لسائر فارس خصبة شديدة الحرّ. ثم ينتهي على الساحل إلى سيف البحر إلى نجيرم وهذا السيف ما بين جنّابة ونجيرم به قرى ومساكن ومزارع متفرّقة مفترشة شديدة الحرّ. ثم ينتهي إلى سيراف وهي الفرضة العظيمة لفارس وهي مدينة عظيمة ليس بها سوى الابنية شيء حتى يجاوز على جبل يطلّ عليه وليس بها ماء يجمد ولا زرع ولا ضرع وهي اغنى بلاد فارس. ثم يتجاوز على الساحل في مواضع منقطعة تعترض بها جبال ومفارز إلى ان ينتهي إلى حصن ابن عمارة وهو حصن منيع على هذا البحر وليس بجميع فارس حصن امنع منه ويقال ان صاحب هذا الحصن هو الذي قال الله فيه: «وكان وراءهم

ملك يأخذ كل سفينة غصباً». وينتهي على ساحل هذا البحر إلى هرموز وهي فرضة كرمان مدينة غرّاء كثيرة النخل حارّة جداً. ثم تسير على شطّه إلى الدّيبل وهي مدينة عامرة وبها مجمع التجار وهي فرضة لبلد السند وبلد السند هو المنصورة وأراضي الزّط وما والاها إلى الملتان ثم ينتهي على ساحل بلدان الهند إلى أن يتصل بساحل تبّت وينتهي إلى ساحل الصين ثم إلى الصين ثم لا يسلك بعده. وإذا أخذت من القلزم غربي هذا البحر فإنه ينتهي إلى برية قفرة لا شيء فيها إلى أن يتصل ببادية البجة والبجة قوم أصحاب أخبية شعر أشدّ سواداً من الحبشة في زي العرب لا قرى لهم ولا مدن ولا زرع إلا ما ينقل إليهم من مدن الحبشة واليمن ومصر والنّوبة وينتهي حدهم إلى ما بين الحبشة وأرض النوبة وأرض مصر وينتهي إلى معادن الذهب، ويأخذ هذا المعدن من قرب اسوان مصر على نحو من عشر مراحل حتى ينتهي إلى حصن على البحر يسمّى عيذاب ويسمّى مجمع الناس بهذا المعدن العلاقي وهو رمال وأرض مبسوطة لا جبل بها وأموال هذا المعدن يرتفع إلى أرض مصر وهو معدن ذهب لا فضة فيه، والبجة قوم يعبدون الاصنام وما استحسنوه، ثم يتصل ذلك بأرض الحبشة وهم نصارى وتقرب ألوانهم من ألوان العرب بين السواد والبياض وهم متفرّقون في ساحل هذا البحر إلى أن يحاذي عدن وما كان من النمور والجلود الملمّعة وأكثر جلود اليمن التي تدبغ للنعال تقع منها إلى عدوة اليمن وهم أهل سلم ليسوا بدار حرب ولهم على الشط موضع يقال له زيلع فرضة للعبور إلى الحجاز واليمن، ثم يتصل ذلك بمفازة النوبة والنوبة نصارى وهي بلدان أوسع من الحبشة وبها من المدن والعمارة أكثر مما بالحبشة ويخترق نيل مصر فيما بين مدنها وقراها حتى يتجاوز ذلك إلى رملة أرض الزنج ثم يتجاوزها إلى براري يتعذّر مسلكها، ثم ينتهي هذا البحر حتى يتصل بأرض الزنج مما يحاذي عدن إلى أن يمتد على البحر وتتجاوز محاذاتها جميع حد الاسلام ويدخل فيما حاذى بعض بلدان الهند لسعته وكثرته، وبلغني أن في بعض أطراف بلد الزنج صروداً فيها زنج بيض وبلد الزنج هذا بلد قشف قليل العمارة قليل الزروع إلا ما اتّصل بها من مستقرّ الملك» (٧).

ابن حوقل: كتاب صورة الارض

بلاد الاندلس

«فأما الاندلس فهي من نفائس جزائر البحر ومن الجلالة في القدر بما حوته واشتملت عليه بحال سآتي بأكثرها ودخلتها في أول سنة سبع وثلثين وثلثمائة والقيم بها أبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وطولها شهر في عرض نيف وعشرين يوماً وفيها غامر وأكثرها عامر مأهول ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والانهار العذبة والرخص والسعة في جميع

الاحوال إلى نيل النعيم والتملك الفاشي في الخاصة والعامة فينال ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ويسار ملكهم بقلة كلفه ولوازمه وسقوط شغله بشيء يحذره وحال تخيفه إذ لا رقبة عليه لأحد من أهل جزيرته ولا خشية له من عدو ينصب لمملكته مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله ومما أدل بالقليل منه على كثيره وغزيره ان سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضمانها في كل سنة مائتا ألف دينار ويكون عن صرف سبعة عشر بدينار ثلثة آلف ألف واربع مائة ألف درهم هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته واعشاره وضماناته ومراصده وجواليه وما يقبض من الأموال الوافرة على المراكب الواردة إليها والصادرة عنهم والرسوم على بيوع الاسواق» [٨].

قرطبة

«وقرطبة وان لم تكن كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة به وهي مدينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ورحاب فسيحة وفيها لم يزل ملك سلطانهم قديماً ومساكنه وقصره من داخل سورها المحيط بها وأكثر أبواب قصره في داخل البلد من غير جهة ولها بابان يشرعان في نفس سور المدينة إلى الطريق الآخذ على الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعالي ربضها متصلة مبانيها بربضها الاسفل وابنيتها مشتبكة مستديرة على البلد من شرقه وشماله وغربه فأما الجنوب منه فهو إلى واديه وعليه الطريق المعروف بالرصيف والاسواق والبيوع والخانات والحمامات والمساكن العامة بربضها، ومسجد جامعها جليل عظيم في نفس المدينة والحبس منه قريب، وقرطبة هذه بائنة بذاتها عن مساكن ارباضها غير ملاصقة لها والمدينة قريبة المحال ودرت بسورها غير يوم في قدر ساعة وهي نفسها مستديرة حصينة السور وسورها من حجر. ولم تكن الزهراء بذات سور تام وبها مسجد جامع حسن طيب في نفسه [دون جامع البلد في المحل والقدر والكبر] ولقرطبة سبعة أبواب حديد، وهي فخمة واسعة الحال بحسن الجدة وكثرة المال والتصرف في وجوه التنعم بجيّد الثياب والكسي من لين الكتان وجيد الخز والقز والمتعة بفاره المركوب والمأكول والمشروب»[٩].

صقلية

«ويلحق بها في حسن الحال مما هو بيد أهل الاسلام صقلية وهي جزيرة [على شكل مثلث متساوي الساقين زاويته الحادة من غربي الجزيرة] طولها سبعة أيام في أربعة أيام. [وهي في شرقي الاندلس في لج البحر وتحاذيها من بلاد الغرب بلاد افريقية وباجة وطبرقة إلى مرسى الخزر وغربيها في البحر جزيرة قرشقة ومن جنوب صقلية جزيرة قوسره وعلى ساحل البحر شرقيها من البر الاعظم الذي عليه قسطنطينية مدينة ريو ثم نواحي قلورية] . والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون

وأكثر أرضها مسكونة مزروعة وليس لها مدينة مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم قصبة صقلية. وهي على نحو البحر وهي خمس حارات متجاورة غير متباينة ببعيد مسافة وإن كانت حدودها ظاهرة بينة.

«ومنها المدينة الكبرى المسماة بلرم وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الاكبر وكان بيعة للروم قبيل فتحها» (١٠).

المغرب

«وهذه جملة احوال المدن المشهورة والمراسي والقرى المعروفة على نحر بحر المغرب من حد برقة إلى البحر المحيط مما انتهيت إليه وأدركته بالعيان أو أخذته عمن نشأ فيه. وليس من حد برقة واعماله إلى نواحي افريقية فيما يواجه البحر المغربي من البر غير عشر مراحل فما فوقها بلد يذكر ولا يعرف إلا ما ذكرته. والغالب على ما واجه هذا البحر من أرض مصر إلى نواحي عمل افريقية البراري والمفاوز التي بين بلاد السودان وأرض المغرب وفي أطرافها سكان من البربر وفي قلب البر أيضاً مياه عليها قوم منهم. وأما ما حاذى أرض افريقية إلى آخر اعمال طنجة عن مرحلة إلى عشر مراحل فزائد وناقص فبلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياع والمياه والولادة والسلاطين والملوك والحكام والفقهاء. وكل ذلك في جملة صاحب المغرب وحوزته وقبضته أو يد خليفته. ومما عداه واوغل في براري سجلماسة واودغست ونواحي لمطة وتادمكة إلى الجنوب ونواحي فزان ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين الذين لا يعرفون الطعام ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئاً من الحبوب. والغالب عليهم الشقاء والاتشاح بالكساء، وقوام حياتهم باللبن واللحم» (١١).

فاس

«وفاس مدينة جليلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما اميران مختلفان، وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل. ونهرها كبير غزير الماء عليه أرحية كثيرة وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة احدثها ادريس بن ادريس. في كل يوم من أيام الصيف يرسل في أسواقها من نهرها الماء فيغسلها فتبرد الحجارة. وجميع ما بها من الفواكه والغلات والمطاعم والمشارب والتجارات والمرافق والخانات فزائد على سائر ما قرب منها وبعد، في أرض الهبط موقعه وظاهر بكثرته حده وموضعه ومستفاضٌ بوفره مكانه ومرفقه» (١٢).

الغرناطي: تحفة الألباب

«ولقد رأيت يوماً في البحر وأنا على صخرة والماء تحت رجلي قد خرج ذنب حية صفراء منقطة بسواد طولها مقدار باع تطلب ان تقبض على رجلي فبعدت منها واخرجت الحية رأسها كأنه رأس أرنب من تحت ذلك الحجر فسللت خنجراً كبيراً كان

معي فطعنت به رأسها فادخلت رأسها تحت الحجر ثم قبضت على الخنجر فلم أقدر أن أخلصه منها وكلما جررته وجذبته لم أقدر على تخليصة منها فأمسكت مقبض الخنجر بيدي جميعه وجعلت أجره وألصقه بالحجر كأني اقطع به شيئاً. فتركت الخنجر وخرجت من تحت الحجر وإذا بها خمس حيات ورأس واحد فعجبت من ذلك، فسألت من كان هنالك عن اسم هذه الحية فقالوا هذه تعرف بأم الحيات. وذكروا انها تقبض على الآدمي في الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله وانها تقبض على السمك في البحر وتأكله حتى تعظم. تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعاً وانها تقلب المراكب وتأكل كل من قدرت عليه من أصحابها، وان الحديد لا يقطعها ولا يؤثر فيها. ثم بعد ذلك وقعت حية من هذه الحيات في صنارة غلام كان معي فأخرجها إلى البر فرأيت منظراً عجيباً: فمها تحت رأسها في الموضع الذي يمكن أن يكون فيه الدبر وحشاها في دماغها وأدخلوا سكيناً في فمها وأخرجوا حشوتها فماتت فسلخوا جلدها فكان أرق من قشرة البصلة خفيفاً ليناً فكنت أجعله على يدي وأجر عليه السكين الحاد المرهف الذي يحلق الشعر فلا يؤثر فيه ولا يعلق منه بشيء. وكان لحمها كأكلية الغنم المطبوخة ليس فيه عظم ولا يصلح للأكل إلا انهم يصطادون به السمك في الصنارة فالسمك يحبه ويصطاد السمك به. ولقد رأيت يوماً وأنا على جانب البحر وقد جزر الماء بعد الظهر وانكشف جبل في البحر قريب من الساحل فرأيت على صخرة من ذلك الجبل عدداً من النارنج الطري الأحمر الذي كأنه قد قطع الآن من شجره فقلت في نفسي هذا قد وقع من بعض السفن فذهبت إليه فقبضت منها واحدة فإذا هي متصلة بالبحر وإذا بها حيوان يضطرب في يدي ويتحرك، فتركته ونظرت إليه وإذا فمه في موضع العرجون الذي يعلق النارنج وهو ثقب فيه خضرة كما يكون النارنج وهو يتحرك ويفتح فمه وكأنه يأكل شيئاً وهو لين. فلففت كم ثوبي على يدي وقبضت عليه مرة أخرى وعصرته وجررته فخرج من فمه مائية كثيرة وضم ولم اقدر ان أقلعه من مكانه. فأخرجت سكيناً كان معي ورمت قلعه عن الحجر أو قطعه فلم يؤثر السكين فيه شيئاً وعالجت كل واحدة منها فلم استطع لها على شيء فتركتها عجزاً منها. وهي من عجائب خلق الله تعلى ورأيت جميعها أحياء يتحرك وليس لها عين ولا جارحة من الجوارح إلا الفم والله اعلم لأي شيء تصلح.

«ولقد كنت مرة في زورق انظر إلى ماء البحر إذ مرت بي قطعة شبكة مقدار ذراع في مثله مفتولة الخيوط مربعة العيون ظاهرة العقد كأنها قطعة من شبكة صياد، فأخذتها من البحر فاضطربت في يدي فألقيتها في البحر فسبحت وذهبت وغاصت في البحر وهي من حيوانات البحر فتعجبت من ذلك. ولقد وجدت يوماً عنقود عنب أسود على جانب البحر كثير الحب أخضر العرجون كأنه قطف من كرمة الآن فأخذته وذلك في زمان الشتاء وليس في تلك الأرض التي كنت فيها عنب، لأنني كنت في بعض

بلاد البربر في بلدة يقال لها تمسامان كانت لبعض قرابتي وكنت نازلاً عنده وهي على جانب البحر. فأخذت ذلك العنقود وقد فرحت به فرمت ان آكل منه فقبضت على حبة منه وجذبتها وهي لينة ولكن لم اقدر أن أقلعها من العنقود كأنها من الحديد قوة. فتعجبت منه وجذبت الحبة كثيراً بقوة فانسلخت قشرة الحبة وهي كقشر لبة العنب سواداً وداخلها على هيئة حبة العنب إذا قشرت قبل أن تنضج بيضاً يبين في داخلها عجمها ويبين العروق في لحم تلك الحبة لا يغادر من العنب شيئاً، فقيل لي هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك ويخرج من البحر إذا كان وقت الخريف وهاجت الرياح واضطربت الأمواج فيه فيظهر الله تعالى على جانب البحر احمالاً من حيوان يشبه جامات الزجاج التي تكون في الحمامات شديدة البياض مدورة ينفذ فيها البصر ثخاناً لينة فتتحرك ثم تموت بسرعة فتكون على البحر احمالاً يترامى بها الصبيان فتتقطع ولا تصلح لشيء والله أعلم أي منفعة فيها» (١٣).

الاندلس

«ومما في جزيرة الاندلس أن ابن حزم ذكرة في رسالته التي وضعها في وصفها وذكر خصائصها وطبائع أهلها أن أرضها شامية في طيبها تهامية في اعتدالها واستوائها، أهوازية في عظم خراجها وجبايتها، عدنية في منافع سواحلها، صينية في معادنها، هندية في عطرها وذكائها. واهلها عرب في الانساب والمعزة والانفة وفصاحة الالسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والنزاهة عن الخضوع، هنديون في فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم لها، بغداديون في ظرافتهم ونظافتهم ودقة اخلاقهم ونباهتهم ولطافة اذهانهم ودرة أفكارهم، نبطيون في استنباطهم المياه ومعاناتهم للغراسة وتركيب الشجر والفلاحة، صينيون في إتقان الصنائع العملية وأحكام المهن الصورية، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها والنظر في مهمتها»(١٤).

المعروف

«وفي الصين مناديل الغمر التي إذا اتسخت القيت في النار فتنقى ولا تحترق. والعرب تقول لكل طرفة من الأواني وما اشبهها كائناً ما كانت صينية لاختصاص الصين بالطرف.

«وفي سمرقند القراطيس التي عطلت قراطيس مصر لأهل المشرق كقراطيس مصر لأهل المغرب وفي بلخ أنها شبيهة بالعراق وخراسان والهند.

«وفي غرفة ان الاعمار بها طويلة والامراض بها قلية.

«وفي لبست انه يقال من مات فيها مغفور له فقد انتقل من جنة إلى جنة.

«وفي طوس ان الله تعالى ألان لأهلها الحجارة كما ألان لداوود عليه السلام الحديد حتى أنهم يتخذون منها ما يتخذ الناس من الزجاج كالأقداح واليزان وغيرهم من الأواني.

«وفي نيسابور ان أهلها لا يكرمون الغريب ولا يؤاسون القريب.

«وفي جرجان وتسمى بغداد الصغرى أنها قاتلة للغربي وذلك لاختلاف هوائها وكان أبو تراب النيسابوري يقول لما قسمت الدنيا بين الملائكة وقعت جرجان في قسمة أبي يحيى يعني ملك الموت.

«وفي الري أنها ترم بأهلها.

«وفي اصبهان حجر الكحل وذبابها النحل وحشيشها الزعفران.

«وفي فارس ان لشيراز نعمة طيبة ليس فيما عداها من كور فارس.

«وفي الاهواز قصبتها مخصوصة بالحما الدائمة حتى انها ليست إلى الغريب بأسرع منها إلى القريب. ولا يكاد يوجد فيها وجنة حمراء لصبي ولا لصبية وربما لمست القابلة المولود فتجده محموماً. ومن عجائب خصائصها ان جميع أصناف الطيب تستحيل رائحته فيها الاستحالة الشديدة حتى لا يوجد له رائحة وهذا من كثرة الرطوبة وغلظ الهواء والبخارات الفاسدة وهذا موجود بالقسطنطينية وانطاكية.

«وفي البصرة ان للغربان بها مسودا ويقع على كل نخلة قد صرم نخلها.

«ولا يقع على ما لم يصرم ولو بقي عليها عذق واحد ومن عجائبها أيضاً ان الثمر يكون مصبوباً في بيادره فلا يقع على شيء منه ذبابة لا في ليل ولا في نهار وأهل البصرة يتخذون المظلات على الثمر والعجوة خوفاً عليها من الجفاف ومن شأن الذباب الفرار من الشمس إلى الظل فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه البتة فيتوهم ان هاتين الحالتين من طلسم له من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب وليس الأمر كذلك وانما هو من حماية الله ووقايته.

«وفي جزيرة العرب ان مكة يريع الذيب فيها الظبي ويعارضه ويصيده فإذا دخل الحرم كف عنه ومنها انه لا يسقط على الكعبة حمام إلا إن كان عليلاً وإن من عادة الطير إذا حاذت الكعبة ان تفترق فرقتين لا تعلوها.

«وفي المدينة على ساكنها الصلاة والسلام ان العطر والبخور يوجد لهما من الضوع والرائحة الطيبة أضعاف ما يوجد في سائر البلاد ولها في نفسها نعمة طيبة ورائحة عطرية وان لم يكن فيها شيء من الطيب البتة ولهذا سميت طيبة وطاب قول الشاعر في ذلك:

ما على من مس تربة احمد ان لا يمس طول الزمان غواليا

«وفي اليمن ان السيف متى قلع بالهند وطبع باليمن فناهيك به جودة.

«وفي الموصل قال الجاحظ من اقام بالموصل حولاً ثم تفقد قوته وجد فيها فضلاً»[١٥].

المشهورات

«فصل الهند بحرها درّ وجبلها ياقوت وشجرها عود وورقها عطر. وكرمان ماؤها وشل وتمرها دقل وعودها بهل. وخراسان ماؤها وعودها جاهد. وعمان حرها شديد وصيدها عتيد. والبحرين كناسة بين المصرين. والبصرة ماؤها ملح وحربها صلح مأوى كل تاجر وطريق كل عابر. والكوفة ارتفعت عن حر البحرين وسلمت عن برد الشام وواسط جنة بين حماة وكنت.

«والشام عروس بين نساء جلوس. ومصر هواؤها راكد وحرها متزايد تطول الاعمار وتسود الابشار.

«فصل ونذكر خصائص بلاد العملية فيقال حكماء يونان وأطباء جنديسابور وصاغة حران وحاكة اليمن وكتاب السوار.

«فصل ونذكر خصائص البلاد في الاحجار فيقال فيروج نيسابور وياقوت سرنديب ولؤلؤ عمان وزبرجد مصر وعقيق اليمن وجزع ظفار ونجاد بلخ ومرجان افريقية.

«فصل ونذكر خصائص البلاد في الحيوانات ذوات السموم فيقال افاعي سجستان وثعابين مصر وعقارب شهرزون وحرارات الاهواز وبراغيث ارمينية وفار ارزن ونمل بافرقين وذباب تدفافان واوزاغ.

«فصل ونذكر خصائص البلاد في الملابس فيقال برود اليمن وقصب مصر وديباج الروم وخز السوس وحرير الصين واكسية فارس وحلل اصبهان وسقلاطون بغداد وعمائم الابلة ومنير الري وملحم مرو.

«فصل ونذكر خصائص البلاد في الاوبار فيقال سنجاب خرخز وسمور بلغار وثعاليب الخزر وحواصل هراة وقماقم التغزغز.

«فصل ونذكر خصائص البلاد في المركوب فيقال عتاق البادية ونجائب الحجاز وبراذين طخارستان وحمير مصر وبغال بردعة.

«فصل ونذكر خصائص البلاد في الحلو فيقال سكر الاهواز وعسل اصبهان وفانيد ماسكان.

«فصل ونذكر خصائص البلاد في الثمار فيقال رطب العراق وتمر كرمان وعناب جرجان واجاص سبت وسفرجل نيسابور وتفاح الشام ومشمش طوس وكمثرى نهاوند واترنج طبرستان ونارنج البصرة وتين حلوان وعنب بغداد ومشمش هراة وموز اليمن وجوز الهند وبطيخ خوارزم وبقلاء الكوفة.

«فصل ونذكر خصائص البلاد في الرياحين فيقال نرجس جرجان وورد جور ونلوفير شروان ومنثور بغداد وزعفران قم وسمرقند» [١٦].

الهوامش

(١) Miller، نفس المكان، ص ١٧.
(٢) المقدسي، ص ٤.
(٣) نفس المكان، ص ٦.
(٤) ابن حوقل، ص ٣٢٨.
(٥) نفس المكان، ص ٦٦ ـ ٦٧.
(٦) نفس المكان، ص ٦٨ ـ ٧٠.
(٧) الاصطخري، ص ٢٨ ـ ٣٦.
(٨) ابن حوقل، ص ١٠٨.
(٩) نفس المكان، ص ١١٢ ـ ١١٣.
(١٠) نفس المكان، ص ١١٨.
(١١) نفس المكان، ص ٨٣ ـ ٨٤.
(١٢ نفس المكان، ص ٩٠ ـ ٩١.
(١٣) الغرناطي، ابو احمد الاندلسي «تحفة الألباب»، باريس، المطبعة الوطنية، ١٩٢٥، ص ٩٦ ـ ٩٩.
(١٤) نفس المكان، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.
(١٥) نفس المكان، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٦.
(١٦) نفس المكان، ص ٢٠٧ ـ ٢١٤.

٣ ـ المقدسي

يعتبر ابو عبد الله محمد بن ابي بكر البناء، المعروف بالمقدسي، لأنه ولد في بيت المقدس، خاتمة الجغرافيين الكبار من المدرسة العربية التي بلغت أوجها في القرن الرابع للهجرة (القرن العاشر). فالرجل يمثل العالم الصحيح، يطّلع على ما كتب وألف، ويتنقل في الاقطار ويزور الديار، ثم يعطي هذا كله الوقت ليختمر، وينظمه بحوثاً وفصولاً، ويدونه بعد ان يقلب الأمر على وجوهه. ومن ثم كان كتابه «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» نموذجاً للكتاب العلمي المرتب المنتظم المبوب المقسم. هذا فضلاً عن انه يحوي نقداً علمياً صريحاً اديباً لشيوخه في هذا الموضوع. وهو يقدم للوصف الجغرافي الدقيق بذكر ما دفعه إلى الاهتمام بهذا الموضوع ثم يعرض القواعد التي اسس الكتاب عليها، ثم يذكر البحار والانهار، وبعد ذلك يقدم للقارىء الاسماء المتفقة اسماً والمختلفة صقعاً وينتقل إلى الخصائص في الاقاليم فيجملها، ويذكر المذاهب والذمة. ويشفق على الفقهاء من قراءة كتابه بكامله فيختصر لهم باباً خاصاً هو خلاصة للكتاب. وبعد ان يعدد أقاليمه الاربعة عشر التي قسَّم إليها مملكة الاسلام، يأخذ هذه الأقاليم فيفصل كورها وقصباتها ثم يعود فيجعل الأقاليم عامة اقتصاداً وادارة وما إلى ذلك.

وقد تم له وضع كتابه في شيراز سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م وكان له من العمر أربعون سنة.

والمقدسي دقيق الملاحظة شديد الحرص على التعرف على البلاد وسكانها. وكتابه، فضلاً عن انه فريد في الجغرافية، فهو، في رأينا، من كتب الأدب الجميلة، لما احتوى من رصين الاسلوب ورقيق العبارة ودقيق التعبير.

وقد رأينا ان نترك للمقدسي الحديث، فننقل عنه فقرات تبين آراءه وتنظيمه ومعرفته وأدبه. وها هو يقدم إلى القارىء ما دفعه إلى وضع الكتاب فيقول: «اما بعد فإنه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم، ولا تنقطع اخبارهم، فأحببت ان اتبع سُنَنهم وأقفو سَننهم وأقيم علماً أحيي به ذكري ونفعاً للخلق أرضي به ربي، ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنفوا على الابتداء ثم تبعتهم الاخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه. فرأيت ان أقصد علماً قد اغفلوه وانفرد بفن لم يذكروه إلا على الاخلال وهو ذكر الاقاليم الاسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات

والانهار ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة وعناصر العقاقير والآلات ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلد في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الاخطار في المفازات وعدد المنازل في المسافات وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال» (١).

ويعدد الأسباب التي عاينها حتى تم له وضع هذا الكتاب فيقول: «أعلم ان جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنفوا في هذا الباب وان كانت مختلفة غير ان أكثرها بل كلها سماع لهم، ونحن فلم يبق اقليم إلا وقد دخلناه وأقل سبب إلا وقد عرفناه وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر في الغيب، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه والثاني ما سمعناه من الثقات والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره. وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم ولا مذكرو بلد إلا وقد شهدتهم حتى استقام لي ما ابتغيته في هذا الباب. ولقد سميت بستة وثلاثين اسماً دعيت وخوطبت بها مثل مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني... وفقيه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسياح وورّاق... وغير ذلك، لاختلاف البلدان التي حللتها وكثرة المواضع التي دخلتها. ثم انه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكدية وركوب الكبيرة. فقد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعبدت وفقهت وأدبت وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر وأممت في المساجد وذكرت في الجوامع واختلفت إلى المدارس ودعوت في المحافل وتكلمت في المجالس. وأكلت مع الصوفية الهرائس ومع الخانقائيين الثرائد ومع النواتي العصائد. وطردت في الليالي من المساجد وسحت في البراري وتهت في الصحاري وصدقت في الورع زماناً وأكلت الحرام عياناً. وصحبت عباد جبل لبنان وخالطت حيناً السلطان وملكت العبيد وحملت على رأسي بالزبيل وأشرفت مراراً على الغرق وقطع على قوافلنا الطرق. وخدمت القضاة والكبراء وخاطبت السلاطين والوزراء وصاحبت في الطريق الفسّاق وبعت البضائع في الأسواق وسجنت في الحبوس وأخذت على اني جاسوس وعاينت حرب الروم بالشواني وضرب النواقيس في الليالي وجلّدت المصاحف بالكرى واشتريت الماء بالغلاء وركبت الكنائس [الكنائص؟] والخيول ومشيت في السمائم والثلوج ونزلت في عرصة الملوك الأجلّة وسكنت بين الجهال في محلة الحاكة. وكم نلت العز والرفعة ودبر في قتلي غير مرة. وحججت وجاورت وغزوت ورابطت وشربت بمكة من السقاية السويق وأكلت الجلبّان والخبز بالسيق ومن ضيافة ابراهيم الخليل وجميز عسقلان السبيل وكسيت خلع الملوك وأمروا لي

بالصلات وعريت وافتقرت مرات وكاتبني السادات ووبخني الاشراف وعرضت علي الأوقاف وخضعت للاخلاف ورميت بالبدع واتهمت بالطمع واقامني الامراء والقضاة أميناً ودخلت في الوصايا وجعلت وكيلاً وامتحنت الطرارين ورأيت دول العيارين. واتبعني الأرذلون وعاندني الحاسدون وسعي بي إلى السلاطين. ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية ورأيت يوم الفوارة وعيد بربارة وبئر بضاعة وقصر يعقوب وضياعه. ومثل هذا كثير. ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا اننا لم نصنفه جزافاً ولا رتبناه مجازاً ويميزه من غيره. فكم بين من قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على السماع. ولقد ذهب لي في هذه الاسفار فوق عشرة آلاف درهم سوى ما دخل علي من التقصير في أمور الشريعة ولم يبق رخصة مذهب إلا وقد استعملتها... غير انني لم اخرج عن الفقهاء الاربعة ولم أؤخر صلاة عن وقتها بتة» (٢).

اقتصر المقدسي على ديار الاسلام وعلى البلاد التي زارها وهي الأقاليم الأربعة عشرة، العربية منها ستة هي جزيرة العرب والعراق واقور والشام ومصر والمغرب والباقية أقاليم العجم وهي المشرق والديلم والرحاب والجبال وخوزستان وفارس وكرمان والسند. ولم يعرض للهند ولا الأندلس لأنه لم يزرهما. ورسم للبلاد التي كتب عنها خرطاً قال عنها: «وافردنا اقاليم العجم عن اقاليم العرب... ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها المالحة بالخضرة وانهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف إلى الافهام» (٣).

وقد رأينا ان ننقل للقارىء وصف المقدسي للرملة من فلسطين، ويرى البعض انها بلد المقدسي أصلاً، وشيراز، حيث وضع كتابه القيم الذي نقحه بعد ثلاث سنوات وخلّفه لنا مصدراً قيماً لما كانت عليه دنيا الاسلام في القرن الرابع للهجرة (العاشر). فها هو يقول عن الرملة: «الرملة قصبة فلسطين بهية حسنة البناء خفيفة الماء مرية واسعة الفواكه جامعة الاضداد بين رساتيق جليلة ومدن سرية ومشاهد فاصلة وقرى نفيسة. والتجارة بها مفيدة والمعايش حسنة. ليس في الاسلام ابهى من جامعها ولا أحسن وأطيب من حواريها ولا أبرك من كورتها ولا ألذ من فواكهها. موضوعة بين رساتيق زكية ومدن محيطة ورباطات فاضلة ذات فنادق رشيقة وحمامات أنيقة وأطعمة نظيفة وادامات كثيرة ومنازل فسيحة ومساجد حسنة وشوارع واسعة وأمور جامعة. قد خطت في السهل وقربت من الجبل والبحر وجمعت التين والنخل وانبتت الزروع على البعل وحوت الخيرات والفضل. غير انها في جزيرة من الوحل وفي الصيف ذريرة من الرمل» (٤).

أما شيراز فيصفها بقوله إنها مصر «معتدل الهواء طيب في الصيف وفي الشتاء وماء خفيف إذا شربت مما جرى ومياه الآبار حلوة قريبة المستقى أهل يسار وتجارة

وتعطف على الغرباء. لهم خصائص وصنائع وعقل ودها ومعروف وصدقات وبها مشايخ ووجوه وتنّا واسناد لولا لحن المستملى وصاحب الاملا، كثير الصوفية ومجالس القرا. ولهم غدوات الجمع ختمات لها نور وبها جامع لا نظير له في الثمانية أقاليم له يوم الجمعة سما باساطين على عمل المسجد الاقصى، وبه دار امارة إليها المنتهى ولهم... بيت قرى نظيفة الأطعمة والهرائس لا الشوا قد اشتهر بالاكسية والبرود ودار المرضى» (٥).

المقدسي: احسن التقاسيم

ذكر الخصائص في الأقاليم

«اظرف الأقاليم العراق وهو اخفّ على القلب وأحد للذهن وبها تكون النفس أطيب والخاطر أدقّ إذا كانت كفاية. واجلّها وأوسعها فواكه وأكثرها علماء وأجلّه وبردا المشرق. وأكثرها صوفاً وقزاً ودخلا على قدره الديلم. وأجودها ألباناً واعسالاً وألذّها أخبازاً وأمكنها زعفراناً الجبال. وأكثرها ثماراً وأرخصها أسعاراً ولحوماً وأثقلها قوماً الرحاب. وأسفلها قوماً وأشرهم أصلاً وفصلاً خوزستان. وأحلاها تموراً وأوطاها قوماً كرمان. وأكثرها فانيذاً وارزازاً ومسكاً وكفاراً السند، وأكيسها قوماً وتجاراً وأكثرها فسقاً فارس. وأشدها حراً وقحطاً ونخيلاً جزيرة العرب. وأكثرها بركات وصالحين وزهاداً ومشاهداً الشام. وأكثرها عباداً وقراء وأموالاً ومتجراً وخصائص وحبوباً مصر. وأخوفها سبلاً وأجودها خيلاً وأوسطها قوماً اقور. واجفاها وأثقلها وأغشها قوماً وأكثرها مدناً وأوسعها أرضاً المغرب. وقال عبد الرحمان بن اخي الاصمعي «دخلت على الجاحظ فقلت افدني في البلدان فائدة قال نعم الامصار عشرة: المروة ببغداد والفصاحة بالكوفة والصنعة بالبصرة والتجارة بمصر والغدر بالري والجفاء بنيسابور والبخل بمرو والصلف ببلخ والحرفة بسمرقند. وقد صدق لعمري». إلا ان بنيسابور أيضاً صنّاعاً حذاقاً وبمصر تجارات وبمكة فصاحة وبمرو دهاة وصنعاء طيبة الهواء وبيت المقدس حسنة البنا، وصغر وجرجان موضع الوبا، ودمشق كثيرة الانهار، وصغد ممتدة الأشجار، والرملة لذيذة الثمار، وطبرستان دائمة الامطار، وفرغانة رخيصة الأسعار، والمروة والجحفة معدن الدعار، والرقة موضع الاخطار، وهمذان وتنيس مركز الاحرار، والشام اقليم الاخبار، وسمرقند فرضة التجار، ونيسابور بلدة الكبار، والفسطاط آهل الامصار. وطوبى لأهل الغَرْج بعدل الشار ولاصفهان الهواء والحلل والفخار، ورسوم شيراز على الاسلام عار، وعدن دهليز الصين مع صحار، وبالصغانيان الكلأ والثمار والاطيار، وبخارا جليلة لولا الماء وحريق النار، وبلخ خزانة الفقه مع الرحب واليسار، وايليا تصلح لأهل الدين والدار، وأهل بغداد قليلو الاعمار، وصنعاء ونيسابور بالضد... فإن سأل سائل أي البلدان أطيب نظر فإن كان ممن يطلب الدارين قيل له بيت المقدس، وان كان مخلصاً آمناً من الطمع قيل مكّة، وإن كان ممن

يطلب النعمة والحيازة والرخص والفواكه قيل له كل بلد أجزاك وإلا فعليك بخمسة أمصار دمشق والبصرة والري وبخارا وبلخ، أو بخمس مدائن قيساريّة وباعيناثا وخجندة والدينور ونوقان أو بخمس نواح الصغد والصغانيان ونهاوند وجزيرة ابن عمر وسابور فاختر ما شئت منها فإنها منازه الاسلام. وأمّا الاندلس فيقال انها جنّات ومستفاض جنات الدنيا أربع غوطة دمشق ونهر الابلّة وروضة الصغد وشعب بوّان. ومن أراد التجارة فعليه بعدن أو عمان أو مصر وكلّما نذكر من عيوب أهل البلدان فأهل العلم والأدب عنه بمعزل خاصّة الفقهاء لأني رأيت الفضل فيهم. وأعلم ان كلّ بلد فيه صاد فأهله حمق إلا البصرة فإن اجتمعت صادان مثل المصيصة وصرصر فنعوذ بالله. وكل بلد نسبت صاحبه إليه فلقيت الزاي الياء فهو داه مثل رازي مروزي سجزي. وكل بلد آخره ان فله خاصية أو طيبة مثل جرجان موقان أرّجان. وكل بلد شديد البرد فأهله أسمن وأضخم وأحسن وأكبر لحى فرغانة وخوارزم وارمينية. وكل بلد يحيط به انهار فإن في أهله شغباً وخروجاً مثل دمشق وسمرقند والصليق. وكل بلد رحب رخيّ فإن المعايش به ضيقة إلا بلخ. وأعلم ان بغداد كانت جليلة في القديم وقد تداعت الآن إلى الخراب واختلف وذهب بهاؤها ولم استطبها ولا أعجبت بها وان مدحناها فللتعارف. وفسطاط مصر اليوم كبغداد في القديم ولا أعلم في الاسلام بلداً أجل منه، وأما اقليم المشرق فقد فشا فيه الجور وفسد وهو خير من غيره. وأقاليم الاعاجم فلا تطيب لأهل اسفل، ولو كان للرملة ماء جار لما استثنينا انها أطيب بلد في الاسلام لأنها ظريفة خفيفة بين قدس وثغور وغور وبحور معتدلة الهواء لذيذة الثمار سرية الأهل غير ان فيهم جهلاً خزانة مصر ومطرح البحرين رخيّة»[٦].

إقليم الشام

«اقليم الشام جليل الشان ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومعدن البدلا ومطلب الفضلا، به القبلة الاولى، وموضع الحشر والمسرى، والارض المقدسة والرباطات الفاضلة والثغور الجبلية والجبال الشريفة ومهاجر ابراهيم وقبره وديار ايوب وبئره ومحراب داود وبابه وعجائب سليمان ومدنه وتربة اسحاق وامه ومولد المسيح ومهده وقرية طالوت ونهره ومقتل جالوت وحصنه وجب ارميا وحبسه ومسجد اورياء وبيته وقبة محمد وبابه وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريا ومعرك يحيى ومشاهد الانبياء، وقرى أيوب، ومنازل يعقوب، والمسجد الأقصى، وجبل زيتا، ومدينة عكا، ومشهد صديقا، وقبر موسى، ومضجع ابراهيم ومقبرته، ومدينة عسقلان، وعين سلوان، وموضع لقمان، ووادي كنعان، ومدائن لوط وموضع الجنان، ومساجد عمر ووقف عثمان، والباب الذي ذكره الرجلان، والمجلس الذي حضره الخصمان، والسور الذي بين العذاب والغفران، والمكان القريب ومشهد بيسان، وباب حطة ذو القدر والشان، وباب الصور وموضع اليقين وقبر مريم وراحيل ومجمع البحرين، ومفرق

الدارين، وباب السكينة وقبة السلسلة ومنزل الكعبة مع مشاهد لا تحصى، وفضائل لا تخفى، وفواكه ورخا، واشجار واميا، وآخرة ودنيا، به يرق القلب وينبسط للعبادة الاعضا. ثم به دمشق جنة الدنيا، وصغر البصرة الصغرى، والرملة البهية وخبزها الحوارى، وايليا الفاضلة بلا لاوى وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهواء، وجبل بصرى وكرومه فلا تنسى، وطبرية الجليلة بالدخل والقرى. ثم البحر يمد على طرفه فالحمولات فيه إليه أبداً وبحر الصين متصل بطرفه الاقصى، له سهل وجبل واغوار وأشياء، والبادية على تخومه كالزقاق منه إلى تيما. وبه معادن الرخام وعقاقير كل دوا، ويسار وتجار ولباقة وفقها، وكتاب وصناع واطبا، إلا أنهم على خوف من الروم وفي جلا. والاطراف قد خربت وامر الثغور قد انقضى، وليسوا كالاعاجم في العلم والدين والنهي، بعض قد ارتدّ وبعض للجزية في ادا، يقدمون طاعة المخلوق على طاعة رب السماء، عامتهم جهال أو غوغا، لا نهضة في جهاد ولا حمية على الاعداء» (٧).

جمل شؤون هذا الاقليم (الشام)

«هو اقليم متوسط الهواء إلا وسطه من الشارة إلى الحولة فإنه بلد الحر والنيل والموز والنخيل. وقال لي يوماً غسان الحكيم ونحن بأريحاء: ترى هذا الوادي؟ قلت بلى! قال: هو يمد إلى الحجاز ثم يخرج إلى اليمامة ثم إلى عُمان وهجر ثم إلى البصرة ثم إلى بغداد ثم يصعد إلى ميسرة الموصل إلى الرقة وهو وادي الحر والنخيل. وأشد هذا الاقليم برداً بعلبك وما حولها. ومن أمثالهم قيل للبرد اين نطلبك؟ قال بالبلقاء، قال فإن لم نجدك قال بعلبك بيتي. وهو اقليم مبارك بلد الرخص والفواكه والصالحين. وكلما علا منه نحو الروم كان أكثر انهاراً وثماراً وابرد هواء وما سفل منه فإنه افضل وأطيب وألذ ثماراً وأكثر نخيلاً. وليس فيه نهر يسافر فيه انما يعبر. قليل العلماء كثير الذمّة والمجذمين ولا خطر فيه للمذكرين والسامرة فيه من فلسطين إلى طبرية ولا تجد فيه مجوسياً ولا صابئاً، مذاهبهم مستقيمة، أهل جماعة وسنة وأهل طبريا ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعة، ولا ما فيه لمعتزلي انما هم في خفية. وببيت المقدس خلق من الكرامية لهم خوانق ومجالس ولا ترى به مالكياً ولا داودياً. وللاوزاعية مجلس بجامع دمشق والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث والفقهاء شفعوية. وأقل قصبة أو بلد ليس فيه حنفي وربما كانت القضاة منهم فإن قيل لمَ لم يقل والعمل فيه على مذهب الشافعي والصدور ثم شفعوية قيل له هذا كلام لا تمييز له لأن مذهب الشافعي الجهر بالبسملة والقنوت في الفجر ولا نقنت إلا في النصف الأخير من شهر رمضان في الوتر وغير ذلك ما لم يكن يستعمله أهل الشام وينكرونه. ألا ترى ان ملكهم لما أمر بالجهر بالبسملة بطبرية كيف تظلموا منه إلى كافور الاخشيدي واستبشعوا ما فعله واليوم أكثر العمل على مذاهب الفاطمي ونحن نذكرها مع رسومهم في اقليم المغرب ان شاء الله تعالى. والغالب فيه من القراءات

حـروف ابي عـمـرو إلا بدمـشق فـإنه لا يوم في الـجـامـع إلا من يقـرأ لابن عـامـر وفي شـائعة فيهم مـختـارة عندهم وقد فشت قـراءة الكسائي فـي الاقليم ويستعملون السبع ويجتهدون في ضبطها» (٨).

جمل شؤون هذا الاقليم (مصر)

«هذا اقليم إذا أقبل فلا تسأل عن خصبه ورخصه وإذا أجدب فنعوذ بالله من قحطه يمد سبع سنين حتى يأكلون الكلاب ويقع فيهم الوباء المبرح. أشد حراً من سواحل الشام ويبرد في طوبه برداً شديداً. به نخيل كثيرة وعامة ذمته نصارى يقال لهم القبط ويهود قليل، كثير المجذومين وبيت الجرب لأنه عفن. وأكثر أدمهم السمك وعلى مذاهب أهل الشام غير أن أكثر فقهائهم مالكيون ألا ترى انهم يصلون قدام الامام. وأعلى القصبة وأهل صندفا شيعة وسائر المذاهب بالفسطاط موجودة ظاهرة وثم محلة الكرامية وجلبة للمعتزلة والحنبلية والفتيا اليوم على مذاهب الفاطمي التي نذكرها في اقليم المغرب، والقراآت السبع فيه مستعملة غير ان قراءة ابن عامر اقلها. ولما قرأت بها على أبي الطيب ابن غلبون قال دع هذه القراءة فإنها عتيقة. قلت قليل لنا عليكم بالعتيق قال فعليك بها. وقرأت عليه لابي عمرو فكان يأمرني بتفخيم الرآء من مريم والتورية والغالب عليهم والمختار عندهم قراءة نافع. وسمعت شيخاً في الجامع السفلاني يقول ما قدم في هذا المحراب امام قط الا وهو يتفقه لمالك ويقرأ لنافع غير هذا يعني ابن الخياط. قلت ولم ذلك؟ قال لم نجد أطيب منه وكان شفعوياً ابو عمريا لم أر في الاسلام أحسن نغمة منه. لغتهم عربية غير انها ركيكة رخوة وذمتهم يتحدثون بالقبطية.

«وهو بلد التجارات يرتفع منه اديم جيد صبور على الماء ثخين لين والبطائن الحمر والهملختات والمثلث هذا من المصر ومن الصعيد الارز والصوف والتمور والخل والزبيب ومن تنيس لا دمياط الثياب الملونة ومن دمياط القصب ومن الفيوم الارز وكتان دون بوصير قريدس الكتان الرفيع ومن الفرما الحيتان ومن مدنها القفاف والحبال من الليف في غاية الجودة ولهم القباطي والارز والخيش والعبّاداني والحصر والحبوب والجلبان ودهن الفجل والزنبق وغير ذلك الخصائص. ولا نظير لأقلامهم وزاجهم ورخامهم وخلهم وصوفهم وخيشهم وبزهم وكتانهم وجلودهم وحذوهم وهملختاتهم وليفهم ووزهم وموزهم وشمعهم وقندهم ودقهم وصبغهم وريشهم وغزلهم واشنانهم وهريستهم ونيدتهم وحمصهم وترمسهم وقرطهم وقلقاسهم وحصرهم وحمرهم وبقرهم وحزمهم ومزارعهم ونهرهم وتعبدهم وحسن نغمتهم وعمارة جامعهم وحالومهم وحبشهم وحيتانهم ومعايشهم وتجاراتهم وصدقاتهم كل ذلك في غاية الجودة. وقد اجتمع بها من خصائص فلسطين القلقاس وهو شيء على قدر الفجل المدور عليه قشر وفيه حدة يقلى بالزيت ويطرح في السكباج والموز وهو على مقدار

الخيار عليه مزود رقيق يقشر عنه ثم يؤكل له حلاوة وعفوصة، والجميز وهو اصغر من التين له ذنب طويل، والترمس وهو على قدر الظفر يابس مر يحلّى ويملح، والنبق وهو على قدر الزعرور فيه نواة كبيرة حلو وهو ثمرة شجرة السدر» [٩].

الهوامش

(١) المقدسي، ص ١ ـ ٢.
(٢) نفس المكان، ص ٤٣ ـ ٤٥.
(٣) نفس المكان، ص ٩.
(٤) نفس المكان، ص ١٦٤.
(٥) نفس المكان، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.
(٦) نفس المكان، ص ٣٢ ـ ٣٦.
(٧) نفس المكان، ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(٨) نفس المكان، ص ١٧٩ ـ ١٨٠.
(٩) نفس المكان، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

٤ ـ المعاجم الجغرافية

ياقوت

الصفة الغالبة على القرن السادس للهجرة (القرن الثاني عشر) هي انعدام الخَلق في الفكر العربي، واهتمام العلماء والأدباء بوضع موسوعات ومعاجم تتناول جهد الاسبقين في مختلف المواضيع والبحوث. ولا تختلف الجغرافية في ذلك عن غيرها من ضروب المعرفة. ولعل أبرز من يمثل هذا الاتجاه في هذا الصنف هو ياقوت الحموي.

ولد ياقوت في ديار الروم، ومن هنا تسميته أحياناً بالرومي، وكان ذلك في سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م. وقد أسر وهو حدث، وحُمل إلى سوق الرقيق ببغداد حيث اشتراه عسكر بن ابراهيم وهو تاجر بغدادي أصله من حماه، فنسب ياقوت إليه وغلب عليه لقب الحموي. ورأى عسكر ان يفيد من هذا الحدث النابه ليستعين به في حساباته وتجارته فوضعه في مدرسة حيث تعلم الكتابة. إلا ان ياقوت أفاد أكثر من ذلك إذ اهتم بالنحو والأدب. وأرسله سيده في تجارات له حملته إلى جزيرة كشم في الخليج العربي وإلى عُمان وديار الشام. فاغرم ياقوت بالرحلة وتعرف إلى البلاد التي زارها.

أعتقه عسكر سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م. والظاهر انه حدث بينه وبين سيده القديم جفاء، فتعاطى ياقوت النسخ ليعيش منه. وفي هذه الاثناء اتصل بالعكبري فأفاد منه كثيراً في اخبار الأدب والادباء والرواة. وبعد ذلك عاد الود بينه وبين سيده القديم إلى ما كان عليه (١٢١٩/٦١٦) وعاد ياقوت يرحل في التجارة لعسكر، فلما رجع إلى بغداد وجد عسكر قد مات. ولعل الرجل أوصى لياقوت ببعض ثروته إذ انه تعاطى بعد ذلك التجارة لحسابه الخاص.

وها نحن نجد ياقوت ينتقل من قطر إلى قطر. فهو مرة في تبريز وأخرى في مصر وثالثة في مرو، حيث قضى سنتين يلتهم ما في خزائنها من الكتب وهي كثيرة جداً. وقد بدأ هناك بوضع كتابه الهام «معجم البلدان» (١٢١٥/٦١٢). ورحل إلى خوارزم (خيوه الحديثة) حيث استقر بعض الوقت. لكن لما بلغه تحرك جنكيز خان نحو الغرب هرب إلى الموصل (١٢٢٠/٦١٧) مخلفاً وراءه كل ثروته، فوصلها معدماً. ومنها كتب إلى الوزير ابن القفطي، وكان في حلب، يرجوه العون، فأمده بما قوّم به

أوده، واستدعاه إلى حلب. لكن ياقوت عاد بعد سنتين إلى الموصل، حيث انصرف إلى اتمام معجمه الذي فرغ من وضعه في ٢٠ صفر ٦٢١/١٣ آذار ـ مارس ١٢٢٤. ثم زار مصر، وعاد إلى حلب فعمل في تنقيح المعجم. وتوفي في حلب في رمضان ٦٢٦/آب ـ اغسطس ١٢٢٩.

يروي ياقوت انه لما كان في مرو عرضت في مجلس صاحبها يوماً قضية تتعلق بإسم مكان هل هو حباشة (بضم الحاء) ام حباشة (بالفتح). وارتأى ياقوت انه بالضم وخالفه الآخرون [١]. فأراد أن يثبت صحة ما ذهب إليه بالنقل عن العلماء، فعمل في خزائن الكتب هناك طويلاً، فلم يجد بغيته (وان كان قد تثبت من الامر بعد ذلك بمدة طويلة) [٢]. فكانت هذه الحادثة دافعاً له على وضع المعجم. فهو يقول في ذلك: «فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطاً، وبالاتقان وتصحيح الألفاظ بالتقييد مخطوطاً، ليكون في مثل هذه الظلمة هادياً، وإلى ضوء الصواب داعياً، ونبهت على هذه الفضيلة النبيلة، وشرح صدري لنيل هذه المنقبة التي غفل عنها الأولون، ولم يهتد لها الغابرون[٣].

وياقوت أمين في نقله عن غيره، فهو ينسب كل شيء أخذه عن الآخرين إلى صاحبه. يضاف إلى ذلك انه يتحدث في المقدمة عن مصادره المكتوبة حديثاً جميلاً علمياً. انه ينبئنا ان القدامى، مثل بطليموس وغيره كتبوا عن الارض والاماكن وسموا علمهم جغرافيا. لكن الاماكن التي كتبوا عنها زالت وتغيرت اسماؤها بحيث لم يتمكن هو من التعرف عليها. ثم يشير اشارة لطيفة إلى الاسلاميين من الذين كتبوا في صورة الارض والمسالك والممالك وما إلى ذلك، فيذكر اولئك الذين رجع إلى مؤلفاتهم وهم: ابن خرداذبة وابن واضح والجيهاني وابن الفقيه والبلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي والمهلبي والبغدادي والبكري. على ان ياقوت استعان بفئة أخرى من الرواة وأهل الادب واللغة ومؤلفاتهم. ذلك بأنه وجد ان هؤلاء قد ذكروا بعض المعلومات المفيدة عن الأماكن في ما وضعوه عمن ترجموا له» [٤].

ويحدثنا ياقوت عن طريقة أخذه وافادته من مصادره ومخبريه فيقول: «واستقصيت لك الفوائد جلها أو كلها، وملكتك عفواً صفواً عقدها وحلها، حتى لقد ذكرت اشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفر عنها طباع من له محصول، لبعدها عن العادات المألوفة، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة، وان كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق، وانا مرتاب بها نافر عنها متبرىء إلى قارئها من صحتها، لأنني كتبتها حرصاً على احراز الفوائد، وطلباً لتحصيل القلائد منها والفرائد، فإن كانت حقاً فقد أخذنا منها بنصيب المصيب، وان كانت باطلاً فلها في الحق شرك ونصيب، لأنني نقلتها كما وجدتها، فأنا صادق في إيرادها كما أوردتها، لتعرف ما قيل في ذلك حقاً أو باطلاً، فإن قائلاً لو قال: سمعت زيداً يكذب، لأحببت ان تعرف كيفية كذبه»[٥].

لم يكن الرجل جاهلاً الجهد الذي يبذله ولا قيمة معجمه، فتراه يعدد صفاته قائلاً: «وعلى ذلك فإنني اقول ولا احتشم، وادعوا إلى النزال كل علم في العلم ولا انهزم، ان كتابي هذا أوحد في بابه، مؤمر على اضرابه، لا يقوم بإبراز مثله إلا من أيد بالتوفيق، وركب في طلب فوائده كل طريق، فغار تارة وأنجد، وطوح لاجله بنفسه فأبعد، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته، وساعده العمر بامتداده وكفايته، وظهرت منه امارات الحرص وحركته» (٦).

وكان ياقوت يرى ان معجمه يجب ألا يختصر قط. ودفاعه عن وجهة رأيه ووصيته للخلف طريفة. جاء في ذلك قوله: «ولقد التمس مني الطلاب اختصار هذا الكتاب مراراً، فأبيت ولم أجد لي على قصر هممهم أولياء ولا أنصاراً، فما انقدت لهم ولا ارعويت، ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه أن لا يضيع نصبي، ونصب نفسي له وتعبي، بتبديد ما جمعت، وتشتيت ما لفقت، وتفريق ملتئم محاسنه، ونفي كل علق نفيس عن معادنه ومكامنه، باقتضابه واختصاره، وتعطيل جيده من حليه وانواره، وغصبه اعلان فضله وأسراره، فرب راغب عن كلمة غيره متهالك عليها، وزاهد عن نكتة غيره مشغوف بها، ينضي الركاب إليها. فإن أجبتني فقد بررتني، جعلك الله من الابرار، وان خالفتني فقد عققتني والله حسيبك في عقبى الدار.

«ثم اعلم ان المختصر لكتاب كمن اقدم على خلق سوي، فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين، أبتر الرجلين، أعمى العينين، أصلم الاذنين، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلاً، أو كالذي سلب الكمي سلاحه فتركه أعزل راجلاً» (٧).

ومع ذلك فلم ترع وصية ياقوت ورغبته. ذلك بأن ابن عبد الحق انتزع من معجم البلدان مادته الجغرافية ووضعها في كتاب سماه «مراصد الاطلاع في اسماء الأمكنة والبقاع»، كما ان السيوطي لخص معجم البلدان في كتاب اسمه «مختصر معجم البلدان».

وقبل أن يعرض ياقوت معجمه مرتباً على حروف الهجاء، يقدم بين يدي القارىء خمسة فصول يتناول فيها صورة الارض، ومعنى الاقليم، واصطلاحات جغرافية لازمة معرفتها مثل البريد والفرسخ، وحكم الارضين من حيث الفتح والخراج والشرع في ذلك، وجملاً من اخبار البلدان.

معجم ياقوت منجم للمعرفة الجغرافية ومثل للعمل المنظم وللنتاج الذي يستطيعه رجل صنع نفسه بنفسه، وهو إلى ذلك يعطينا صورة للعالم الاسلامي قبل أن يهدمه التتار ويعملوا على تحطيم بعض أجزائه.

ياقوت: معجم البلدان

في تفسير الألفاظ المتكررة

«فإن فسرناها في كل موضع تجيء فيه أطلنا، وان ذكرناها في موضع دون الآخر بخسنا احدهما حقه، ويبهم على المستفيد موضعها، وان ألقيناها جملة أحوجنا

الناظر في هذا الكتاب إلى غيره، فجئنا بها ها هنا مفسرة، مبينة، مسهلاً على الطالب أمرها، وهي البريد، والفرسخ، والميل، والكورة، والاقليم، والمخلاف، والاستان، والطسوج، والجند، والسكة، والمصر، وأباذ، والطول، والعرض، والدرجة، والدقيقة، والصلح، والسلم، والعنوة، والخراج، والفيء، والغنيمة، والقطيعة.

«فأما البريد: ففيه خلاف، وذهب قوم إلى انه بالبادية اثنا عشر ميلاً، وبالشام وخراسان ستة أميال. وقال أبو منصور: البريد الرسول، وابراده ارساله. وقال بعض العرب: الحمى بريد الموت أي أنها رسول الموت تنذر به، والسفر الذي يجوز فيه قصر الصلاة، أربعة برد، ثمانية وأربعون ميلاً بالأميال الهاشمية التي في طريق مكة، وقيل لدابّة البريد بريد، لسيرها في البريد قال الشاعر:

واني أنصُّ العيس، حتى كأنني، عليها، بأجواز الفلاة، بريد

«وقال ابن الأعرابي: كل ما بين المنزلين بريد. وحكى بعضهم ما خالف به من تقدم ذكره، فقال: من بغداد إلى مكة مائتان وخمسة وسبعون فرسخاً وميلان، ويكون أميالاً ثمانمائة وسبعة وعشرين ميلاً. وهذه عدة ثمانية وخمسين بريداً وأربعة أميال. ومن البريد عشرون ميلاً. هذه حكاية قوله. والله اعلم. وأخبرني بعض من لا يوثق به، لكنه صحيح النظر والقياس، انه انما سميت خيل البريد بهذا الاسم، لأن بعض ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته، فلما جاءته الرسل سألها عن سبب بطئها، فشكوا من مروا به من الولاة، وأنهم لم يحسنوا معونتهم. فأحضرهم الملك وأراد عقوبتهم، فاحتجوا بأنهم لم يعلموا انهم رسل الملك، فأمر أن تكون أذناب خيل الرسل واعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به، ليزيحوا عللهم في سيرهم فقيل: بريد أي قطع، فعرب فقيل خيل البريد. والله أعلم.

«وأما الفرسخ: فقد اختلف فيه أيضاً. فقال قوم: هو فارسي معرّب وأصله فرسنك. وقال اللغويون: الفرسخ عربي محض. يقال: انتظرتك فرسخاً من النهار أي طويلاً. وقال الازهري: أرى ان الفرسخ أخذ من هذا. وروى ثعلب عن ابن الاعرابي قال: سمي الفرسخ فرسخاً، لأنه إذا مشى صاحبه استراح وجلس. قلت: كذا. قال: وهذا كلام لا معنى له. والله أعلم. وقد روي في حديث حذيفة: ما بينكم وبين أن يصب عليكم الشر فراسخ، إلا موت رجل، فلو قيل قد مات صب عليكم الشر فراسخ. قال ابن شميل في تفسيره: وكل شيء دائم كثير فرسخ. قلت: أنا أرى ان الفرسخ من هذا أخذ، لأن الماشي يستطيله ويستديمه. ويجوز في رأيي أن يكون تأويل حديث حذيفة أنه يصب عليكم الشر طويلاً بطول الفراسخ، ولم يرد به نفس الطول، وانما يراد به مقدار طول الفرسخ الذي هو علم لهذه المسافة المحدودة. والله أعلم. وقالت الكلابية: فراسخ الليل والنهار ساعاتهما وأوقاتهما، ولعله من الأول، وان كان هذا هو الاصل، فالفرسخ مشتق منه كأنه يراد سير ساعة أو ساعات، هذا ان كان عربياً. وأما حده

ومعناه، فلا بد من بسط يتحقق به معناه ومعنى الميل معاً. قالت الحكماء: استدارة الارض في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل أربع آلاف ذراع. فالفرسخ اثنا عشر ألف ذراع، والذراع أربع وعشرون اصبعاً، والاصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض. وقيل: الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع بالذراع المرسلة، تكون بذراع المساحة، وهي الذراع الهاشمية، وهي ذراع وربع بالمرسل تسعة آلاف ذراع وستمائة ذراع. وقال قوم: الفرسخ سبعة آلاف خطوة، ولم أر لهم خلافاً في أن الفرسخ ثلاثة أميال.

«وأما الميل: فقال بطليموس في المجسطي: الميل ثلاثة آلاف ذراع بذراع الملك، والذراع ثلاثة أشبار، والشبر ست وثلاثون اصبعاً، والاصبع خمس شعيرات مضمومات بطون بعضها الى بعض. قال: والميل جزء من ثلاثة أجزاء من الفرسخ. وقيل: الميل ألفا خطوة وثلاثمائة وثلاث وثلاثون خطوة. وأما أهل اللغة فالميل عندهم مدى البصر ومنتهاه.

«قال ابن السكيت: وقيل للأعلام المبنية في طريق مكة أميال، لأنها بنيت كل مقادير مدى البصر من الميل إلى الميل، ولا نعني بمدى البصر كل مرئي فانا نرى الجبل في مسيرة أيام، إنما نعني أن ينظر الصحيح البصر ما مقداره ميل، وهي بنية ارتفاعها عشر أذرع أو قريباً من ذلك، وغلظها مناسب لطولها، وهذا عندي أحسن ما قيل فيه.

«وأما الاقليم: فقد تقدم من القول فيه اشتقاقاً واحداً واختلافاً في الباب الثاني ما أغنانا عن اعادة ذكره، وإنما ترجمناه ههنا لأنه حري بأن يكون فيه، فلما تقدم من أمره دللنا على موضعه ليطلب.

«وأما الكورة: فقد ذكر حمزة الأصفهاني: الكورة اسم فارسي بحت، يقع على قسم من أقسام الاستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للاستان، كما استعارت الاقليم من اليونانيين فجعلته اسماً للكشخر، فالكورة والاستان واحد. قلت أنا: الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها، ذلك اسم الكورة كقولهم: دار ابجرد، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة دار ابجرد، ونحو نهر الملك، فإنه نهر عظيم مخرجه من الفرات ويصب في دجلة، عليه نحو ثلاثمائة قرية. ويقال لذلك جميعه نهر الملك، وكذلك ما أشبه ذلك.

«وأما المخلاف: فأكثر ما يقع في كلام أهل اليمن. وقد يقع في كلام غيرهم على جهة التبع لهم والانتقال لهم، وهو واحد مخاليف اليمن، وهي كورها. ولكل مخلاف منها اسم يعرف به، وهو قبيلة من قبائل اليمن أقامت به وعمّرته فغلب عليه اسمها. وفي حديث معاذ: من تحول من مخلاف إلى مخلاف فعشره وصدقته إلى

مخلاف عشيرته الأول، إذا حال عليه الحول. وقال أبو عمرو: يقال استعمل فلان على مخاليف الطائف وعلى الاطراف والنواحي. وقال خالد بن جنبة: في كل بلد مخلاف، بمكة مخلاف، والمدينة، والبصرة، والكوفة.

«قلت وهذا كما ذكرنا بالعادة والالف، إذا انتقل اليماني إلى هذه النواحي سمى الكورة بما ألفه من لغة قومه، وفي الحقيقة انما هي لغة أهل اليمن خاصة. وقال بعضهم: مخلاف البلد سلطانه. وحكي عن بعض العرب، قال: كنا نلقى بني نمير ونحن في مخلاف المدينة وهم في مخلاف اليمامة. وقال أبو معاذ: المخلاف البنكرد، وهو أن يكون لكل قوم صدقة على حدة، فذاك بنكرده يؤدي إلى عشيرته التي كان يؤدي إليها. وفي كتاب العين يقال فلان من مخلاف كذا وكذا، وهو عند أهل اليمن كالرستاق، والجمع مخاليف. قلت هذا الذي بلغني فيه، ولم اسمع في اشتقاقه شيئاً، وعندي فيه ما أذكره، هو ان ولد قحطان لما اتخذوا أرض اليمن مسكناً وكثروا فيها لم يسعهم المقام في موضع واحد، فجمعوا رأيهم على أن يسيروا في نواحي اليمن ليختار كل بني أب موضعاً يعمرونه ويسكنونه. وكانوا إذا ساروا إلى ناحية واختارها بعضهم تخلف بها عن سائر القبائل وسماها باسم أبي تلك القبيلة المتخلفة فيها، فسموها مخلافاً لتخلف بعضهم عن بعض فيها، الا تراهم سموها مخلاف زبيد، ومخلاف سنحان، ومخلاف همدان، لا بد من اضافته إلى قبيلة. والله أعلم.

«وأما الاستان: فقد ذكرنا عن حمزة أنه قال: ان الاستان والكورة واحد. ثم قال: شهرستان وطبرستان وخوزستان مأخوذ من الاستان، فخفف بحذف الألف. ومثال ذلك ان رقعة فارس خمسة أساتين، أحدها استان دار ابجرد، ثم ينقسم الاستان إلى الرساتيق، وينقسم الرستاق إلى الطساسيج، وينقسم كل طسوج إلى عدة من القرى، مثال ذلك: اصطخراستان من أساتين فارس، ويزد رستاق من رساتيق اصطخر، ونائين وقرى معها طسوج من طساسيج رستاق يزد، ونياستانة قرية من قرى طسوج نائين. وزعم مؤيد الري ان معنى الاستان المأوى، ومنه يقال: وهما استان كرفت إذا أصاب موضعاً يأوي إليه.

«وأما الرستاق: فهو فيما ذكره حمزة بن الحسن مشتق من روذه فستا. وروذه اسم للسطر والصف والسماط، وفستا اسم للحال، والمعنى أنه على التسطير والنظام، قلت: الذي عرفناه وشاهدناه في زماننا في بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد، وهو اخص من الكورة والاستان.

«وأما الطسوج: بوزن سبوح وقدوس، فهو أخص وأقل من الكورة والرستاق والاستان، كأنه جزء من أجزاء الكورة. كما أن الطسوج جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الدينار، لأن الكورة قد تشمل على عدة طساسيج، وهي لفظة فارسية أصلها تسو،

فعربت بقلب التاء طاء وزيادة الجيم في آخرها، وزيد في تعريبها بجمعها على طساسيج، وأكثر ما تستعمل هذه اللفظة في سواد العراق، وقد قسموا سواد العراق على ستين طسوجاً، أضيف كل طسوج إلى اسم. وقد ذكرت في مواضعها من كتابنا باسقاط طسوج.

«وأما الجند: فيجيء في قولهم، جند قنسرين، وجند فلسطين، وجند حمص، وجند دمشق، وجند الاردن، فهي خمسة أجناد، وكلها بالشام. ولم يبلغني انهم استعملوا ذلك في غير أرض الشام، قال الفرزدق:

فقلت: ما هو الا الشام تركبه كأنما الموت، في أجناده، البغر

«وقال أحمد بن يحيى جابر: اختلفوا في الأجناد، فقيل سمى المسلمون كل واحد من أجناد الشام جنداً، لأنه جمع كورا، والتجند على هذا التجمع، وجندت جنداً أي جمعت جمعاً. وقيل: سمى المسلمون لكل صقع جنداً عينوا له يقبضون اعطياتهم فيه منه، فكانوا يقولون: هؤلاء جند كذا حتى غلب عليهم وعلى الناحية» (٨).

ابو الفدا: تقويم البلدان

«ومن تلك البلاد وهران، قال في المشترك: وهران بفتح الواو وسكون الهاء وفتح الراء المهملة وبعد الالف نون قال وهي مدينة في بلاد البربر من المغرب على ضفة البحر وهي عن تلمسان على مسيرة يوم وذكر من رآها ان عندها فرضة تلمسان وهي شرقي تلمسان بشمال قليل فيقرب ان يكون طولها يَه كَ وعرضها لحَ نَ. قال الادريسي: ومدينة وهران على قرب من ضفّة البحر وعليها سور تراب متقن وهي تقابل المريّة من جزيرة الاندلس. وقال أيضاً في كتاب نزهة المشتاق وعلى ستة أميال من اغمات وريكة اغمات ايلان مدينة صغيرة في أسفل جبل درن وهي عن اغمات في جهة الشرق وبها يسكن يهود تلك البلاد وهي مدينة حسنة كثيرة الخصب كاملة النعم وكانت اليهود لا تسكن مدينة مراكش عن أمر أميرها عليّ بن يوسف بن تاشفين» (٩).

«قال ابن سعيد وفي شرقي غذامس ودّان وهي جزائر نخل ومياه وأوّلها حيث الطول احدى وأربعون درجة والعرض سبع وعشرون درجة وخمسون دقيقة وفي شرقيها بلاد فزّان وهي أيضاً جزائر نخل ومياه ولها مدن وعمائر أكثر من ودّان والجميع الآن في طاعة ملك الكانم [وفزّان بفتح الفاء والزاء المشدّدة وألف ونون] وقاعدة فزّان مدينة زويلة.

«وفي جنوبي فزّان وودّان مجالات ازكان وهم برابر مسلمون وفي جنوبيهم جبل طنطنة وهو كبير ممتدّ من الشرق إلى الغرب نحو ست مراحل وفي اسفله معدن الحديد الجيد وفي شمالي زويلة مدينة سرت.

«وفي جنوبي قابس الجبل العظيم الممتدّ شرقاً وغرباً فيعرف في جهتها بجبل

دمر وفي جهة قفصة بجبل الأوطس وفي جهة القيروان بجبل وسلات وهو خصيب ويجيء منه الاموال السلطانية وفي جنوبي هذا الجبل مدينة القيروان» (١٠).

«ومن البلاد الواقعة بين بلاد المغرب والواحات اوجلة بالجيم واللام وهي جزيرة في تلك الرمال وعمارة في تلك الصحارى فيها ماء ونخل.

«قال الادريسي: ومدينة اوجلة مدينة صغيرة متحضّرة فيها قوم ساكنون كثيرو التجارة ومنها يدخل إلى كثير من أرض السودان نحو بلاد كوار وبلاد كوكو وأرضها.

«وأرض برقة أرض واحدة ومياهها قليلة ومنها إلى مدينة زلّة عشر مراحل غرباً. وزلّة مدينة صغيرة ذات سوق عامر وهي حصن منيع. ومن زلّة يدخل إلى بلاد السودان أيضاً ومن زلّة إلى مدينة زويلة عشرة أيام في جهة الغرب والجنوب. ومن زلّة إلى سرت تسعة أيام ومن سرت إلى ودّان خمس مراحل وودّان هذا ناحية في جنوب سرت وهي قصران وبينهما رمية سهم والقصر الذي يلي البحر خال والذي يلي البرية مسكون ولها آبار كثيرة يزرعون بها الذرة وبغربيها غابات وبها توت كثير وتين ونخيل. قال: ومن أرض كوار يجلب الشبّ.

«واوجلة حيث الطول خمس وأربعون درجة وخمس وخمسون دقيقة وفي سمت أرضها مدينة سنترية حيث الطول ثمان وأربعون درجة وخمسون دقيقة وهي أيضاً جزائر نخل ومياه في صحارى والجبال محدقة بها وفيها رمان يكون في أوله مرّاً ثم يكون حلواً إذا طاب وهي مهلكة بالوبأ لأهلها فكيف الغرباء وبين البحر وبينها حيث العقبة الصغيرة ثمان مراحل وفي شرقيها وجنوبيها الواحات الشمالية» (١١).

اسفي ـ من الاقليم الثالث ـ من اقاصي المغرب

«عن ابن سعيد: ومدينة اسفي على جون من البحر داخل في البرّ. واسفي فرضة مرّاكش وهي مدينة مسوّرة في مستو من الارض وأرضها كثيرة الحجر وليس بها ماء إلا من المطر. ولها كروم وليس بها بساتين إلا على دواليب وماؤها النبع غير عذب بل يشوبه ملوحة. قال الشيخ عبد الواحد: وهي تشبه حماة ودونها في القدر ولكن ليس لها نهر يجري بل كرومها ومقاثيها على باب البلد. وأسفي من اقليم دكالة وهي كورة عظيمة من اعمال مراكش وبين اسفي وبين مراكش أربعة أيام» (١٢).

طنجة ـ من الاقليم الرابع ـ من اقاصي المغرب

«ومدينة طنجة على فم بحر الزقاق. واتّساع البحر عندها ثلث مجرى. فإذا شرق عنها اتّسع عن ذلك. وهي مدينة اولية وقد استحدث أهلها لهم مدينة على ميل منها على ظهر جبل ليمتنعوا بها. وماء طنجة مجلوب من قنيّ إليها من بعد. وطنجة كثيرة الفواكه لا سيّما العنب والكمثرى... واضيق ما يكون البحر من طنجة إلى سبتة وقدره ثمانية عشر ميلاً. وهناك موضع يقال له قصر المجاز ومن طنجة إلى قصر المجاز مرحلة لطيفة ومن قصر المجاز إلى سبتة كذلك» (١٣).

سبتة ـ من الاقليم الرابع ـ من اقاصي المغرب

«وسبتة مدينة بين بحرين البحر المحيط وبحر الروم وهي مورد البرّين بر العدوة وبر الاندلس. وهي مدينة حطّ وإقلاع وهي في دخلة من البر في البحر ومدخلها من جهة الغرب وهو ضيق والبحر محيط باكثرها، ولو شاء اهلها لوصلوا البحر حولها وجعلوها جزيرة. واسوارها عظيمة من صخر وميناها بشرقيها والبحر عندها ضيق وإذا كان الصحو ابصرت منها الجزيرة الخضراء من برّ الاندلس. ومآؤها مجلوب ولها صهاريج من المطر» (١٤).

فاس ـ من أواخر الاقليم الثالث ـ من المغرب الاقصى

«وفاس مدينتان يشق بينهما نهر. وفي فاس عدة عيون تجري. وللمدينتين ثلثة عشر باباً والمياه تجري بأسواقها وديارها وحماماتها وليس بالمغرب ولا بالمشرق مثلها في هذا الشأن. وهي مدينة محدثة اسلامية. ونقل ابن سعيد عن الحجازي انهم لما شرعوا في حفر هذه المدينة وجدوا فأساً في موضع الحفر فسمّيت بذلك. قال وعلى انهارها داخل المدينة نحو ستماية حجر أرحى تدور بالماء دائماً. وأهل فاس مخصوصون برفاهية العيش. ولفاس قلعة بأرفع مكان بها ويشق القلعة نهر. وفي فاس ثلثة جوامع يخطب فيها. ومنها إلى سبتة عشرة أيام ومخرج نهرها نصف يوم من فاس يجري في مرج وازاهر حتى يدخلها. قال في كتاب الاطوال وفاس قصبة طنجة ثم ذكر بعد ذلك انه يقال فاس القديم» (١٥).

تلمسان ـ من أوائل الاقليم الرابع ـ أول المغرب الاقصى متاخمة الاوسط

«وتلمسان مدينة مشهورة مسوّرة في سفح جبل ولها ثلثة عشر باباً وماؤها مجلوب من عين على ستة أميال منها، وفي خارجها أنهار وأشجار. ويستدير النهر بقبليها وشرقيها ويدخل فيه السفن اللطاف حيث يصبّ في البحر. وبقعتها شريفة كثيرة المرافق وهي قاعدة مملكة ولها حصون كثيرة وفرض عديدة اشهرها هنين ووهران. وهنين يقابل المرية من الاندلس ووهران حصينة ولها مياه سائحة وهي على ثمانين ميلاً من تلمسان وملوك تلمسان من بني عبد الواد من زناتة وفي غربي تلمسان بانحراف إلى الجنوب مدينة فاس [قال الادريسي ومن تلمسان إلى تاهرت أربع مراحل]» (١٦).

بجاية ـ من أوائل الاقليم الرابع ـ من المغرب الاوسط

«وبجاية هي قاعدة المغرب الأوسط ولها نهر على شاطئه البساتين والمنازه في شرقي بجاية ويقابل بجاية من الاندلس طرطوشة وعرض البحر بينهما ثلاثة مجار. وغربي بجاية جزائر بني مزغنّان وهي فرضة مشهورة من عمل بجاية... ومزغنّان بفتح الميم وسكون الزاء وكسر الغين المعجمتين ثم نونان بينهما الف الاولى مشددة عن الشيخ شعيب وفي آخر حدّ مملكة بجاية وشرقي قسطينة مرسى الخرز المخصوص

بالمرجان وامام هذا المرسى جزيرة سردانية» [١٧].

قسطينة ـ من أواخر الاقليم الثالث ـ من المغرب الاوسط من معاملة بجاية

وعن بعض المتاخرين ان بعد السين وقبل الطاء نون وحينئذ بضم السين وسكون النون

«وبقسطينة نهر يصبّ في خندقها العظيم ويسمع لذلك دوي هائل ويرى النهر في قعر الخندق مثل ذوابة النجم لشدة ارتفاع قسطينة عن خندقها. وقسطينة على آخر مملكة بجاية وأول مملكة افريقية. قال في نزهة المشتاق: وقسطينة عامرة وبها أسواق وتجارات والحنطة تقيم في مطاميرها ماية سنة لا تفسد. وهي على قطعة جبل منقطع مرتفع فيه بعض الاستدارة لا يتوصل إليه إلا من جهة بابه من غربيها ليس بكبير السعة. ويحيط بقسطينة الواد من جميع جهاتها وبينها وبين مدينة مسيلا ثمانية عشر ميلاً. ومدينة مسيلا حسنة كثيرة الاشجار والثمار ومياهها عذبة وبين مسيلا وقسطينة جبل متصل» [١٨].

سطيف ـ من الاقليم الثالث ـ من المغرب الاوسط

«ومدينة سطيف مدينة كبيرة بين تاهرت وبين القيروان وهي خصبة ولها كورة تشتمل على قرى كثيرة سكانها من البربر. قال الشريف الادريسي: وحصن سطيف كبير القطر كثير الخلق كالمدينة، وهو كثير المياه والشجر المثمر بضروب من الفواكه. ومنها يحمل الجوز لكثرته إلى سائر البلاد وهو بالغ الطيب. وبين سطيف وقسطينة أربع مراحل. وبقرب سطيف جبل يسمّى انكجان وبه قبائل كتامة وبه حصن حصين وبينه وبين بجاية مرحلتان بجاية في الشمال والحصن في الجنوب» [١٩].

القيروان ـ من الاقليم الثالث ـ من افريقية

«ومدينة القيروان محدثة بنيت في صدر الاسلام وهي جنوبي الجبل والجبل من شمالها وهي في صحراء تصلح لجمال العرب، وكانت قاعدة افريقية في صدر الاسلام وهي اليوم تابعة لتونس. وشرب أهلها من الآبار وليس لها ماء جار وهي في الوطأة. قال في العزيزي ومدينة القيروان أجل مدن المغرب وكان عليها سور عظيم فهدمه زيادة الله بن الأغلب لما ثار على عمار بن مجالد. وشرب أهلها من ماء المطر يجتمع لها من الشتاء في برك عظام تسمّى المواحل ولها واد في قبلة المدينة تأتي فيه ماء ملح يستعمله الناس فيما يحتاجونه» [٢٠].

طلميثا ـ من الاقليم الثالث ـ مرسى برقة على البحر وعلى طرف الغابة

«وطلميثا فرضة مشهورة وبها قصر فيه يهود تحت خفارة العرب ومنها تحمل المراكب الشعير والعسل إلى غيرها وقصر اليهود المذكور على هيئة برج كبير وعدّة اليهود الذين به إلى يومنا هذا ما يزيد على مايتي يهودي وطلميثا عن الاسكندرية على نحو مسافة شهر، والمراكب ترسي قبالة قصر اليهود وبالقرب منه وتحضر العرب

وتبايعهم بالبضائع مقايضة»[٢١].

موانىء ومدن أخرى ـ مشرقية

«**أوال**. جزيرة بالقرب من القطيف وهي في بحر فارس على مسيرة يوم للريح الطيبة عن القطيف. وبها مغاص مفضل على غيره. وقطر هذه الجزيرة مسيرة يومين من كل جهة. وبها تقدير ثلاثمائة ضيعة وما يزيد. وبها كروم كثيرة إلى الغاية ونخيل وأترج. وبها صحراء ومراع ومزدرعُها على عيون بها وهي حارة جداً» [٢٢].

«**بانياس**. من أعمال دمشق بانياس. اسم لبلدة صغيرة ذات اشجار ومحمضات وغيرها وأنهار. وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب. والصبيبة اسم لقلعتها وهي من الحصون المنيعة. قال في العزيزي: ومدينة بانياس في لحف جبل الثلج، وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالغمامة لا يعدم منه صيفاً ولا شتاء» [٢٣].

«**بدليس**. روي عن بعض أهل تلك البلاد: وبدليس في أرمينية بين ميافارقين وبين خلاط. وهي مدينة مسورة وقد خرب نصف سورها. والمياه تخترق المدينة من عيون في ظاهرها. ولها بساتين في واد. وهي دون حماة في القدر. وهي بين جبال تحف بها. وبردها وشتاؤها شديد وثلوجها كثيرة. قال ابن حوقل: وهي بلد صغير عامر كثير الخير خصب. قال في العزيزي: وبينها وبين خلاط سبعة فراسخ» [٢٤].

«**تدمر**. بُليدة ببادية الشام من أعمال حمص وهي في شرقي حمص. وأرض تدمر غالبها سباخ وبها نخيل وزيتون. وبها آثار عظيمة أولية من الأعمدة والصخور. وهي عن حمص على نحو ثلاث مراحل. وبينها وبين دمشق تسعة وخمسون ميلاً» [٢٥].

«**حماة**. مدينة أولية وبلدة قديمة وهي من أنزه البلاد الشامية. والعاصي يستدير على غالبها من شرقيها وشماليها. ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة. وفي داخلها الأرحية على الماء. وبها نواعير على العاصي تسقي أكبر بساتينها. ويدخل منها الماء إلى كثير من دورها. ونهر حماة يسمى الأرنُط والنهر المقلوب لجريه من الجنوب إلى الشمال. ويسمى العاصي لأن غالب الأنهر تسقي الأراضي بغير دواليب ولا نواعير بل بأنفسها تركب البلاد ونهر حماة لا يسقي إلا بنواعير تنزع منه الماء. وهو يجري بكليته من الجنوب إلى الشمال وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك تسمى الرأس في الشمال عن بعلبك على نحو مرحلة عنها. ويسير من الرأس شمالاً حتى يصل إلى مكان يقال له قائم الهرمل بين جوسية والرأس. ويمر في واد هناك وينبع من هناك غالب النهر المذكور من موضع يقال له مغارة الراهب. ويستدير النهر المذكور ويرجع ويسير جنوباً ومغرباً ويمر على سور انطاكية حتى يصب في بحر الروم عند السويدية»[٢٦].

«**الشوبك**. من الشراة في بلاد الشام بلد صغير كثير البساتين. وغالب ساكنيه

النصارى. وهو شرقي الغور وهو على طرف الشام من جهة الحجاز. وينبع من ذيل قلعتها عينان احداهما عن يمين القلعة والأخرى عن يسارها كالعينين للوجه. وتخترقان بلدتها ومنهما شُرب بساتينها. وهي في واد غربي البلد. وفواكهها من المشمش وغيره مفضلة وتنقل إلى ديار مصر. وقلعتها مبنية بالحجر الأبيض وهي على تل مرتفع أبيض مطل على الغور من شرقيه» (٢٧).

ذكر الجانب الشمالي من الارض

«ومن بلاد تلك الجهات مملكة بولية وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادقة من غربيه وهي تقابل مملكة الباسليسة التي من البر الآخر. وملك بولية في زماننا يقال له الريدشار، ويقال لبولية أنبولية أيضاً. وغربي بلاد بولية بلاد قلفرية ويقال لها قلورية بالواو أيضاً وهي داخلة في مملكة الريدشار صاحب بولية. وأهل قلفرية يونان وهي بلاد على ساحل بحر الروم. ومن تلك الممالك مملكة الباسليسة وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادقة تقابل مملكة بولية التي من البر الآخر، وبلاد الباسليسة هي من فم جون البنادقة إلى جهة قسطنطينية. والباسليسة امرأة هي صاحبة هذه البلاد في زماننا. ومن تلك بلاد المرا وهي مملكة تبتدىء من فم الخليج القسطنطيني على ساحل بحر الروم وتمتد مغرباً وتشتمل على قطعة من ساحل الروم على بلاد وجبال خارجة عن البحر. وهذه المملكة مناصفة بين صاحب قسطنطينية وبين جنس من الفرنج يقال لهم القيتلان. ويجاور هذه المملكة من غربيها بلاد الملفجوط، وبلاد الملفجوط غربي بلاد المرا على ساحل بحر الروم وهي من أعمال قسطنطينية والملفجوط جنس من الروم لهم لسان يتفردون به. وغربي بلاط الملفجوط بلاد اقلرنس وهي بلاد أهلها يونان تحت حكم الباسليسة وهي على ساحل بحر الروم غربي بلاد الملفجوط وهي واقعة بين الملفجوط وبين الباسليسة. قال الشريف الادريسي: امتداد كنيسة رومية ٦٠٠ ذراع في مثله وهي مسقفة بالرصاص ومفروشة بالرخام وفيها أعمدة كثيرة عظيمة وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض رخام عظيم للمعمودية وفيه ماء جار أبداً، وفي صدر الكنيسة كرسي من ذهب يجلس عليه البابا، وتحته باب مصفح بالفضة يدخل منه إلى أربعة أبواب واحد بعد آخر يفضي إلى سرداب فيه مدفون بطرس حواري عيسى عم. ولهذه المدينة كنيسة أخرى مدفون فيه بولص. وبحذاء قبر بطرس حوض رخام منقوش عظيم فيه فرش الكنيسة وستورها التي تزين بها اعيادهم. وفي خارج الكنيسة عند ركن من اركانها عمود عظيم على أربع قواعد من نحاس مربعة كل وجه منها ١٣ ذراعاً، وكلما صعد العمود يدق وفي اعلاه عمود نحاس في أعلاه كرة مذهبة يكون قطرها نحو باع ولها بريق ولمعان. وتظهر من ١٣ ميلاً فيعلم بها موضع الكنيسة...

«ومما يقع في شمالي العمارة بلاد الروس وهم شمالي مدينة بلار المذكورة في

الجدول وشمالي الروس القوم الذين يبايعون مغايبة. قال بعض من سافر إلى تلك البلاد: انهم يتصلون بساحل البحر الشمالي. قال فإذا وصل القفل إلى تخومهم اقاموا حتى يعلموا به. ثم يتقدمون إلى المكان المعروف بالبيع والشراء ويحط كل تاجر بضاعته معلمة ويرجعون إلى منازلهم فيحضر اولئك القوم ويضعون قبالة تلك البضاعة السمور والثعلب والوشق وما شاكل ذلك، ويدعونه ويمضون. ثم يحضر التجار فمن اعجبه ذلك أخذه وإلا تركه حتى يتفاصلوا على الرضى.

«قال ابن سعيد: وعلى ساحل البحر المحيط في الاقليم السابع بلاد بيطو وسكانها الفرنج ومنها يجتاز الملوك لأفرنسة إذا عدموا في أفرنسة عادة متوالية لهم. وفي شمالي بيطو مصب نهر بريس... وفي وسط هذا النهر وجانبيه مدينة بريس قاعدة أفرنسة وهي ثلث قطع كما هي مدينة الباب فالوسطى التي هي الجزيرة لفرنسيس سلطان الفرنج والجنوبية للجند والشمالية لسائر قوامسهم وتجارهم ورعيتهم. وهذا النهر ينزل من جبل دنبيوس الكبير ويقال له في الشمال جبل مليحة. ومن شرقيه منبع نهر دنبيوس الذي يقال انه أكبر من النيل ومن جيحون. وهو مشهور بنهر دونا ويسميه الترك طنا. وعلى جانبيه وفي جزره إلى مصبه في بحر القسطنطينية من المدن والعمائر الكثيرة إلا أنها معجمة الأسماء خاملة الذكر عندنا»[٢٨].

الادريسي ـ نزهة المشتاق

«**بيت لحم**. سرت من بين المقدس إلى مدينة بيت لحم فوجدت على طريقي عين سلوان. وهي العين التي ابرأ فيها السيد المسيح الضرير الأعمى ولم تكن له قبل ذلك عينان. وبقربها بيوت كثيرة منقورة في الصخر. وفيها رجال قد حبسوا أنفسهم فيها عبادة. وأما بيت لحم وهو الموضع الذي ولد فيه السيد المسيح فبينه وبين المقدس ستة أميال. وفي وسط الطريق قبر راحيل أم يوسف وأم ابن يامن ولدي يعقوب. وهو قبر عليه اثنا عشر حجراً. وفوقه قبة معقودة بالصخر. وبيت لحم هناك وفيها كنيسة حسنة البناء متقنة الوضع فسيحة مزينة إلى أبعد غاية. حتى انه ما أبصر في جميع الكنائس مثلها بناء. وهي في وطأ من الارض ولها باب من جهة المغرب وبها من اعمدة الرخام كل مليحة. وفي ركن الهيكل في جهة الشمال المغارة التي ولد بها السيد المسيح وهي تحت الهيكل. وداخل المغارة المذود الذي وجد به. وإذا خرجت من بيت لحم نظرت في الشرق منه كنيسة المليكة الذين بشروا الرعاة بمولد السيد المسيح»[٢٩].

«**بيروت**. مدينة على ضفة البحر عليها سور حجارة كبيرة واسعة. ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد جيد يقطع ويستخرج منه الكثير ويحمل إلى بلاد الشام. وبها غيضة أشجار صنوبر مما يلي جنوبها تتصل إلى جبل لبنان. وتكسر هذه الغيضة اثنا عشر ميلاً في مثلها. وشرب أهلها من الآبار. ومنها إلى دمشق يومان. قال ابن بطوطة:

ومدينة بيروت حسنة الأسواق. وجامعها بديع الحسن. وتجلب منها إلى ديار مصر الفواكه والحديد. قال ابو الفداء: وهي على ساحل البحر وهي ذات برجين ولها بساتين ونهر وهي خصبة. وكان بها مقام الامام الأوزاعي الفقيه. ولها ميناء جليل. وبينها وبين جبيل ثمانية عشر ميلاً»[٣٠].

«**دمشق** . مدينة من أجلّ بلاد الشام وأحسنها مكاناً وأعدلها هواء وأطيبها ثرى وأكثرها مياهاً وأغزرها فواكه وأعمها خصباً وأوفرها مالاً وأكثرها جنداً وأشمخها بناء. ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة وطول الغوطة مرحلتان في عرض مرحلة بها ضياع كالمدن. ومدينة دمشق جامعة لصنوف من محاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخزّ والديباج النفيس الثمين العجيب الصفة والقديم المثال الذي يحمل منها إلى كل بلد ويتجر به منها إلى كل الآفاق والأمصار المصاقبة لها والمتباعدة عنها. ولدمشق في داخلها على أوديتها أرحاء كثيرة. وأما الحلاوات فبها منها ما لا يوجد بغيرها ولا يوصف كثرة وطيباً وجودة. وصناعاتها نافقة وتجاراتها رائجة وهي من أغنى البلاد الشامية. ومنها إلى مدينة بعلبك في جهة الشرق مرحلتان»[٣١].

من مؤلفين آخرين

«**بيت المقدس** . هي المدينة المشهورة التي كانت محل الأنبياء وقبلة الشرائط ومهبط الوحي. بناها داود وفرغ منها سليمان... فأوحى الله تعالى إليه أن سلني حاجتك. فقال: يا رب أسألك أن تغفر لي ذنبي. فقال: لك ذلك. ثم ضرب الدهر ضرباته واستولت عليها الأمم وخربوها. وقد عمرها أحد ملوك الفرس. فصارت أعمر مما كانت وأكثر أهلاً. والتي عليها الآن أرضها وضياعها جبال شاهقة. وليس بقربها أرض وطيئة. وزروعها على أطراف الجبال. وأما نفس المدينة ففي فضاء في وسط ذلك وأرضها كلها حجر. وفيها عمارات كثيرة حسنة وشرب أهلها من ماء المطر ليس فيها دار إلا وفيها صهريج. مياهها تجتمع من الدروب. ودروبها حجرية ليست كثيرة الدنس. لكن مياهها رديئة. وفيها ثلاث برك بركة بني اسرائيل وبركة سليمان وبركة عياض. قال محمد بن أحمد البشاري المقدسي: انها متوسطة الحر والبرد وقل ما يقع فيها ثلج. ولا ترى أحسن من بنيانها ولا أنظف. ولا أنزه من مساجدها. وقد جمع الله فيها فواكه الغور والسهل والجبل. والأشياء المتضادة كالأترج واللوز، والرطب والجوز، والتين والموز»[٣٢].

«**ملطية** . بلدة من بلاد الروم ذات أشجار وفواكه وأنهار ويحتف بها جبال كثيرة الجوز. وجميع الثمار مباحة لا مالك بها. وهي قاعدة الثغور وهي شمالي الجبل الدائر الذي سيس في غربيه. وهي بلدة مسورة في بسيط والجبال تحف بها من بعد. ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة يسقيها ويمر بسور البلد وهي شديدة البرد وهي في الجنوب عن سيواس. ولملطية أيضاً قني تدخل البلد وتجري في دوره وسككه. والجبال محيطة

بها على بعد منها»[٣٣].

«**مراكش** . من المغرب الأقصى محدثة بناها يوسف بن تاشفين في ارض صحراوية. وجلب إليها المياه وأكثر الناس فيها البساتين فكثر وخمها. ولا يكاد الغريب يسلم فيها من الحمى. وجنوبي مملكة مراكش جبل درن وشماليها مملكة سلا وغربيها البحر المحيط. وشرقيها الجهات التي بين سجلماسة وفاس. ودور مراكش سبعة أميال ولها سبعة عشر باباً. وحرها شديد وهي في شمالي أغمات بميلة يسيرة إلى الغرب وبينهما نحو خمسة عشر ميلاً»[٣٤].

«**أجدابية** . مدينة في المغرب وهي مدينة كبيرة في صحراء أرضها صفا وآبارها منقورة في الصفا طيبة الماء وبها عين ماء عذبة. ولها بساتين لطاف ونخل يسير وليس بها من الأشجار إلا الأراك. وبها جامع حسن البناء بناه أبو القاسم بن عبيد الله له صومعة مثمنة بديعة العمل وحمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة. وأهلها ذوو يسار أكثرهم أقباط. ولها مرسى على البحر يعرف بالماحور لها ثلاثة قصور بينه وبينها ثمانية عشر ميلاً. وليس لمباني مدينة أجدابية سقوف خشب. إنما هي أقباء طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها. وهي راخية الأسعار كثيرة التمر يأتيها من أوجلة أصناف التمر»[٣٥].

«**تهوذا** . من المغرب الأقصى مدينة آهلة كثيرة الثمار والنخيل والزرع. وهي مدينة أولية بنيانها بالحجر. ولها أموال كثيرة وحولها ربض قد خندق على جميعه واستدار بالمدينة. وبها جامع جليل ومساجد كثيرة وأسواق وفنادق ونهر ينصب في جوفها من جبل اوراس. سكانها العرب وقوم من قريش. وان كانت بينهم وبين من يجاورهم حرب ارسلوا ماء النهر في الخندق المحيط بمدينتهم فشربوا منه وامتنعوا من عدوهم به. وفي المدينة بئر لا تنزح أولية وآبار كثيرة طيبة. واعداؤهم هوارة ومكناسة. وأهل تهوذا على مذاهب أهل العراق. وحولها بساتين كثيرة من أصناف الثمار وضروب البزر يجود بها البزور وحواليها أزيد من عشرين قرية»[٣٦].

الاقليم الرابع

قال ابن فاطمة هو عندهم اعدل الاقاليم وأحسنها حيواناً ونباتاً والكلام في تفضيله يطول وهو أوسط الأقاليم السبعة وخير الامور أوساطها وسكانه بين البياض والحمرة والصفرة. ولما كان الإقليم الثالث في جنوبيه والاقليم الخامس في شماليه حكم لهما بقرب الاعتدال ولاحت فيهما مشابه من الرابع. وعرض هذا الاقليم الرابع ٣٦ درجة ووسعه من جنوبيه إلى شماليه ٦ درجات و١٩ دقيقة.

الجزء الأول

يقع فيه جزائر السعادات الأربع التي رسمت ويصعد البحر المحيط في ساحله إلى حيث الطول ٦ درجات و٣٠ دقيقة فيقع هنالك مازنغان وهي فرضة مشهورة تحمل

منها (المراكب) القمح إلى سبتة وغيرها وبينها وبين اسفي (فرضة مراكش) ٥٠ ميلاً ولها طرف يدخل في البحر ١٢ ميلاً وفي شماليها يصب نهر أم ربيع (المشهور) تدخله المراكب المتوسطة. وعلى جنوبيها مدينة ازمور على ميلين من (البحر وسكانها أكثرهم صنهاجة وهي قاعدة لولاتها وبينها وبين طرف امازيغان ١٢ ميلاً وفي شمالي هذا النهر على ٥٠ ميلاً من فرض تامسنا المشهورة بالفتح آنفاً، ومعظم سكانها برغواطة. وفي شماليها ٦٠ ميلاً مصب على) نهر سلا وحلقة صعب على دخول المراكب (لا تهتدي إلى مسالكه غير قوم يعرفون بوقاصة وينسبون إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه) وعلى جانبه الجنوبي عند المصب (مدينة) رباط الفتح (التي بناها عبد المؤمن أولاً فتممها على منزع الاسكندرية المنصور من بني عبد المؤمن، وعزم ان يجعلها عوضاً من مراكش فعاجلته المنية). وفي مقابلتها على شمالي النهر مدينة سلا (المشهورة حيث الطول ٧ درجات و١٠ دقائق والعرض ٣٣ درجة و٣٠ دقيقة. وفي شماليها مصب نهر المعمورة) وهو من أنهار المغرب مخصوص بالحوت الطيب المعروف عندهم بالشابل الذي يكون في اختلاط الماء المالح بالحلو ويحمل من هنالك إلى الاقطار. وبين المصبين ١٦ ميلاً ويقال له أيضاً نهر صبو. وهو ونهر سلا لا يعبران إلا على جسر وفي شماليه على ٦٠ ميلاً يصب نهر القصر وهو مشهور عند المسافرين (في البحر) يأوي إليه المراكب المتوسطة حتى يستقيم لها الهواء في البحر المحيط (وعلى جانبه الجنوبي عند البحر العرائش وعلى جانبه الشمالي تشمس وكانتا مدينتين في مدة العلويين ثم صارت قريتين بالفتن). ومن هذا المصب إلى مدينة ازيلا على البحر المحيط ٢٠ ميلاً (وهي محل خط واقلاع) حيث الطول ٨ درجات غير ٢٠ دقيقة والعرض ٣٤ درجة و٤٠ دقيقة ومنها يشرق المراكب (قليلاً قليلاً) إلى فم الزقاق وهو يدخل بحر الاسكندرية من البحر (المحيط): في جانبه الجنوبي طرف اسبرتال داخل في البحر (و) على جانبه الشمالي طرف الأغر (على ذلك المنزع) وطالما تكسرت (عليهما) المراكب في طول البحر (الملاطمة الامواج على الطرفين) وانزعاج دخول الماء أو خروجه والمسافة بين الطرفين ٤٠ ميلاً، (وكذلك من ازيلا إلى طرف اسبرتال). ثم الزقاق بين (بر) العدوة وبر الاندلس فيكون قدر ١٨ ميلاً (وطوله إلى جبل الميناء الذي على سبتة ٤٤ ميلاً. فمن طرف اسبرتال إلى مدينة طنجة (المشهورة ٤ أميال وهي) على البحر المحيط وقال البكري ان اتساع البحر عندها ٣ مجرى وهو اضيق بقليل عندما يشرق عنها إلى أن يكون عند قصر المجاز ١٨ ميلاً وبينه وبين طنجة مرحلة صغيرة وكذلك بينه وبين سبتة). وطول (طنجة) ٨ درجات و٣١ دقيقة وعرضها ٣٥ درجة و٣٠ (دقيقة ويكون) سبتة (المشهورة) حيث الطول ٩ درجات والعرض ٣٥ درجة و٣٠ دقيقة. (وهذه المدينة بين بحرين وهي ركاب البرين تشبه الاسكندرية في كثرة الحط والاقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين

يبتاعون المركب الكبير بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة ولا يخرجون صاحبه إلى نقاص. وهي الآن راجعة إلى السلطان بل يدبرها الفقيه العزفي وعسكرها في اسطولها ومجريها في المراكب التي ترد عليها من البحر المحيط ومن ريف غمارة وآخر هذا الجزء) جزيرة قادس (وهي) صغيرة قدر ١٢ ميلاً (وموضوعها حيث نصفها الجنوبي في الأقليم الرابع والنصف الشمالي في الخامس وطولها قريب من طنجة. وتقابل قصر المجاز من فرض الاندلس طريف وأمامها في البحر جزيرة (صغيرة) يعرفها (المسافرون بها فيقولون جزيرة طريف كما يقولون الجزيرة) الخضراء و(انما) هي مدينة وامام هذه المدينة في جنوبيها جبل الفتح المشهور الذي فتحت منه الاندلس، هكذا يعرفه الناس واسمه في الكتب جبل طارق، وهو مولى موسى بن نصير فاتح الاندلس. وهذا الجبل يظهر في البحر من سبتة وهو عال في البحر وفيما بينه وبين الخضراء الميناء المشهورة فيها يشتى مراكب سبتة وغيرها مما للنوء عليها من سبيل والبحر من شرقي سبتة يتيامن إلى الجنوب ويمر متقارباً مع خط الأقليم الخامس بجزيرة الاندلس. فأول ما يلقاك في بر العدوة بعد سبتة) جبل غمارة العالي الطويل (العريض) فيه (من) الامم (ما لا يحصيهم إلا الله تعالى ومنه يحمل خشب الارز الذي ينشأ به الاساطيل ويصرف في الانية الملوكية إلى الآفاق وصمغه الغار يقون السيل. وبينه وبين سبتة ٢٦ ميلاً وإلى نهر لو النازل منه ١٠ أميال وهو كبير يدخله المراكب ويسير فيه ومنه إلى) مدينة بادس (٧٠ ميلاً وهي من أشهر فرض غمارة وذلك الساحل يعرف بالريف) ومن باديس إلى المزمة (مثل ما) بين باديس إلى سبتة ١٠٠ ميلاً (وهي فرضة مشهورة) ومنها إلى (مدينة) مليلة ١٠٠ ميل ويصب في شرقيها على ١٠ أميال نهر ملوية الكبير (المشهور الذي ينزل فيه نهر زير وينزل فيه نهر سجلماسة فيكون مسافته من منبع نهر سجلماسة في الجنوب نحو ٨٠٠ ميل). ومنها إلى ارسقول فرضة تلمسان (وحيث يصب نهرها الذي يصب فيه نهر يسر الكبير) ٧٠ ميلاً ومنه إلى فرضة هنين ١٢ ميلاً ومنها إلى فرضة وهران (المشهورة) ٨٠ ميلاً (وهي آخر فرضة هذا الجزء من المدن العدوية ومينا‌ها مشهورة مأمونة في الهول). ويقابل مدينة باديس من بر الاندلس مالقة وهي مع خط الاقليم الخامس وعرض البحر بينهما درجة (ومنها يحمل التين المالقي واللوز إلى الاقطار. ويقابل المزمة فرضة المنكب وهو مع الخط المذكور وهي في ساحل غرناطة وعرض البحر هنالك مجرى. ويقابل ارسقول (مدينة) المرية (المشهورة التي كانت بها دار صناعة الاندلس وديوانها وهي أيضاً مع الخط ويصنع فيها وفي مالقة وفي مرسية ثياب الحرير الموشاة بالذهب ذات الصنائع الغريبة). وعرض البحر هنالك درجتان (فتقع) تلمسان (المشهورة) حيث الطول ١٤ درجة و٤٠ دقيقة والعرض ٣٣ درجة و٤٢ دقيقة (وبينها وبين ارسقول ٢٠ ميلاً وبينها وبين هنين ٣٠ ميلاً. وهي الآن قاعدة بني عبد الوادي من زناتة ومنها يحمل ثياب

الصوف المفضلة على حسنها المصنوع في سائر المغرب ويحمل منها الجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك، والاندلسيون يقولون كأنها من مدائن الاندلس لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها. ويقع في غربيها بانحراف إلى الجنوب مدينة) الرباط حيث الطول ١٢ درجة والعرض ٣٣ درجة غير (١٠) دقائق. وفي غربيها (مدينة) فاس حيث الطول ١١ درجة والعرض ٣٣ درجة وهي من خواص المغرب الملأ بالخيرات والصنائع الغريبة. ويقال ان فيها من العيون عدد أيام السنة) ويسقيها نهرها الآتي من المرج (الذي في شرقيها ويصب في نهر مهبو الذي يمر على شماليها). وفي شرقي (فاس) جبل مديونة (يمتد إلى الجنوب) وفيه تعمل البرانس المديونية (التي لا ينفذها المطر ويختلط هذا الجبل من جنوبيه بجبل درن ومن شماليه بجبال فازا وجبال غمارة ومن الجبال التي في جنوبي فاس ينزل نهر سلا ومنها في جنوبي هذا النهر ينزل نهر ام ربيع ومن الجبال التي في شمالي فاس ينزل نهر سبو، وكلها تصب في بحر المحيط على ما رسم. وفي شمالي فاس مدينة) مكناسة المشهورة الكثيرة الزيتون (وينزل من جبال غمارة التي في شرقيها نهر فلفل ويمر جنوبيها ويصب في نهر سبو وبينها وبين فاس ٤٠ ميلاً. وفي غربيها بانحراف إلى الشمال مدينة) القصر (ويعرف بقصر عبد الكريم وبقصر كتامة وهم باديته وموضوع هذه المدينة) حيث الطول ٨ درجات و٣٠ دقيقة والعرض ٣٤ درجة و٤٠ (دقيقة وهو على شمالي النهر المنسوب إليه وبينه وبين سبتة ٤ أيام) وبين نهر سلا ونهر سبو جبل فازاز وهم برابر (لهم في الخيل نتاج مشهور ولهم قلعة في هذا الجبل يخزنون فيها طعامهم ومحارثهم في تلك الجهات إلى جبل مديونة ومجاز الزقاق حيث يجرى نهر سلا إلى جهة تادلا. وفي تلك الجهة) معدن غرام الكثير الفضة واخوه معدن رقيدر (الذي في جنوبي جبل درن. وفي شرقي جبل مديونة جبال مذغرة وهم معظم كومية وهم من قبيل عبد المؤمن. ومن أعلى هذه الجبال حيث الطول ١٣ درجة والعرض ٣٧ درجة ينبع نهر ملوية الكبير الذي تقدم ذكره وفي شرقي جبال مدغرة جبال يسد، ومنها ينبع نهر يسر المتقدم الذكر ويتصل بها من شرقيها جبل ونشريش الذي تعمل فيه البسط الملوكية وهي لبني يوحين من زناتة ممتد بقرب خط الاقليم الثالث ومنه ينبع نهر سلف الكبير المشهور ويخرج من هذا الجزء إلى الثاني ويصب في البحر عند مستغانم وهو مثل النيل يزيد في أيام وينقص الانهار وعليه مجالات مغراوة من زناتة» [٣٧].

الجزء الثالث

(من الاقليم الرابع أول ما يلقاك منه) جزيرة جربة (المشهورة بالزيت والزبيب والرطب والتفاح والاكسيه الملاح وهي) في شرقي قابس (و) بينها وبين البر مجاز ضيق (يعبر بالزوارق) وبين هذا المجاز وقابس مرحلة. (وطول هذه الجزيرة مرحلة وسكانها خوارج وفي شماليها جزيرة انبذوشية خالية تأوي إليها المراكب ويسقى منها

الماء، وفي شماليها تقع صقلية. ومن شرقي جربة وجنوبيها يقهقر البحر إلى الشمال حتى تكون مدينة) طرابلس (المشهورة عليه) حيث الطول ٣٨ درجة والعرض ٣٢ درجة و٢٠ دقيقة (وفي شرقيها على مرحلتين جبل نفوسة المتصل بجبل دمر وما يتصل به من الجبال إلى جبل درن الذي يدخل في البحر المحيط وطوله ٦ أيام وعرضه ٣ أيام وفيه مدن وعمائر وخلق كثير ومياه وخصب. ومنه تمتار طرابلس انواعاً من الخيرات حتى الخضر والفواكه وفيه الزيتون والتين والزبيب والتمر ويتصل به جبال إلى أن ينقطع في شرقي مدينة لبدة الخراب وآبار هذه المدينة من الرخام والحجارة والهرقلية يشهد بحالها المتقدم وهي على البحر حيث الطول ٣٩ درجة و٣٠ دقيقة والعرض مقارب لعرض طرابلس. ومجالات دباب من حد قابس إلى بئر السدرة من برقة وبعد لبدة يأخذ البحر في الدخول إلى الجنوب وعلى ساحله هنالك عمائر لبطون من هوارة تحت خفارة دباب. وعلى الجملة فإذا فارقت طرابلس مشرقاً لا تلقى مدينة فيها حمام ولا حبار إلى أن تتصل إلى الاسكندرية وفي آخر صعود البحر إلى الجنوب يكون) قصر احمد (وهو آخر حد افريقية) حيث الطول ٤١ درجة و٢٢ دقيقة والعرض مع خط الاقليم الرابع. (وفي عرضه) قصور مسراته تمتد نحو ١٢ ميلاً على زيتون ونخيل وأهلها من هوارة (تحت خفارة دباب ولهم غرام بحمل الخيل إلى الاسكندرية وتجد منهم الحجاج معونة في تلك الطريق الشاقة. فأول ما يلقاك من حد برقة جون زديق المذكور وما بعده قد ذكر في الاقليم الثالث وشرقيه حيث بئر السدرة أول مجالات هيب إلى العقبة الصغيرة من أرض الاسكندرية. ويقع في دخلة البرين جون برنيق وراس إلى طلميثا وهي فرضة مشهورة هنالك وبها قصر فيه اليهود الذين تحت خفارة العرب وموضوعها حيث الطول ٤٤ درجة والعرض ٣٣ درجة و١٠ دقائق، ومنها تحمل المراكب الكبريت والعسل والقمح والشعير. وفي شرقيها مدينة) برقة (التي كانت قاعدة البلاد البرقية فخربها العرب ويقال لها اليوم مدينة المرج) وبينها وبين طلميثا ١٠ أميال (وخصب برقة الذي فيه الاشجار والخيرات هو في الدخلة التي في جنوبيها مسافته نحو ١٠ مراحل من غرب إلى شرق ومن جاره إلى عرب هيب فله الصولة ومن جبالها ينزل نهر درنا ويصب في البحر المالح ولم أرَ في جميع بلاد برقة على طولها نهراً غيره، وفي جنوبيه الصحراء المقفرة وتقع درنا حيث الطول ٤٦ درجة والعرض ٣٥ درجة و١٧ دقيقة وكانت من مدن برقة المذكورة فخربها العرب. وهي الآن محسوبة من قصور العرب التي تأوي إليها اليهود وكلاهم على جزيتهم وفي ساحلها) راس اوثان (الذي) تأخذ البحريون على تعديته البشارة وهو (واقع) في الركن حيث الطول ٤٤ درجة والعرض ٣٤ درجة و٥٢ دقيقة. (وفي شرقيه الهلال المشهور وهو جبل يظهر من بعيد في البحر وفي ميمنة جزيرة اقريطش الواقعة في الاقليم الخامس وبينه وبين راس اوثان مرحلتان ونصف وبينه وبين درنا

وهي في شرقيه مرحلتان وفي شرقي درنا راس تيني المشهور وهو في الركن الشرقي كما ان راس اوثان في الركن الغربي وموضوعه حيث الطول ٤٦ درجة و٤٧ دقيقة والعرض ٣٥ درجة غير دقائق ومن هنالك يأخذ البحر في الصعود إلى الجنوب فيكون في جنوبيه من المراسي المشهورة القرسي ثم طبرق، وهي كانت قاعدة البلاد في أيام الروم. وكانت البلاد تعرف بانطابلس فسمتها العرب برقة لما رأتها كثيرة الحجارة المختلطة بالرمل. ولطبرق مرسى قل ان يكون له نظير على هذا البحر ما للرياح عليه سبيل كأنه حوض منقور في حجر وبقايا اسوار هذه المدينة تدل على قديمها وهي حيث الطول ٤٧ درجة و٢٢ دقيقة والعرض ٣٢ درجة و٥٥ دقيقة وفي جهتها المجرى المعروف بالطنان وفي شرقي ذلك من القصور المشهورة عند العرب لك وقمار. في شرقيها) العقبة الكبيرة وهي أول حد الديار المصرية (وهنالك مرسى المسلم من المراسي المذكورة والعقبة) حيث الطول ٤٨ درجة والعرض ٣٢ دقيقة (وهنالك دخلة هوارة المشهورة وهي دخلة في البحر وفي شماليها مرسى الكنائس المشهورة ومن هنالك مجالات هوارة ثم مجالات زنارة إلى آخر البحيرة. وتقع) الاسكندرية (المشهورة التي هي ركاب بحر الهند وبحر الروم) حيث الطول ٥١ درجة و٢٠ دقيقة والعرض ٣١ درجة و٣١ دقيقة (ولها بحران مثل سبتة والمهدية إلا ان الاسكندرية يفضل بين طرفيها الطرف الخارج أمامها المعروف بالجزيرة وفيها المنار المشهور الذي تهتدي به المراكب بالنهار وبنوره بالليل. وطولها في زماننا ٣٤ قامة وطول مأذنة اشبيلية ٣٥ قامة وطول مأذنة مراكش ٣٦ قامة وطول عمود السواري الذي بظاهر الاسكندرية ١٠٠ ذراع ودوره ٤٠ شبراً. وللاسكندرية خليج في جنوبيها يدخل إليه الماء من النيل أيام الزيادة فتأتي في المراكب من سائر السواحل المصرية بأنواع الغلال والخيرات فإذا تعطل هذا الخليج عملت البحيرة التي في شرقيها وهي مالحة يدخل ماء البحر فيها بين الاسكندرية ورشيد ويسافر فيه المراكب إلى البلاد التي على النيل من خليج يعرف بالحافر حفر في زمان العادل من بني أيوب. وعلى ٤٠ ميلاً من الاسكندرية تروجة وهي في الجنوب بميلة إلى الغرب يسوق إليها عرب البحيرة وعرب برقة ولها شهرة بذلك والعنب التروجي في نهاية الطيب وحسن المنظر ويقال انه كان بجهتها من الغرب مدينة قديمة فيها لقي أهل مصر المعز العبيدي حين قدم من افريقية، ثم خربت بالفتن. وفي شرق اسكندرية وجنوبها دمنهور على نحو ٥٠ ميلاً وهي قاعدة البحيرة ولها خليج من خليج الاسكندرية وأكثر ما يسوق فيها عرب البحيرة وأكثرهم زبادة ولواتة وتقع) رشيد (التي على غربي النيل عند مصبه في البحر) حيث الطول ٥٢ درجة و٤ دقائق والعرض ٣٢ درجة، وفي شرقيها بحيرة يستراء وليس في بحيرات الديار المصرية أكثر ضماناً منها، بلغ في عصرنا ٢٥٠٠٠ ديناراً مصرية. وسائر بحيرات مصر تضمن بقيمة ٧٠٠٠ دينار (وفي شرقيها رباط البرليس ومنه يصير

البحر إلى الجنوب) فتقع دمياط (المشهورة) على مصب النيل الشرقي حيث الطول ٥٤ (فيكون في آخر الجزء الثالث) والعرض ٣١ درجة و٢٠ دقيقة وتقع المحلة (قاعدة الغربية التي بين النيلين) حيث الطول ٥٣ درجة و٢٢ دقيقة والعرض ٣١ درجة و٦دقائق. (وتقع المنصورة التي بنيت في عصرنا رباطاً على خليج اشمون الخارج من النيل الشرقي حتى يصب في بحيرة تنيس حيث الطول ٥٣ درجة و٣٠ دقيقة والعرض ٣١ درجة غير دقائق)» [٣٨].

الهوامش

(١) ياقوت، شهاب الدين «معجم البلدان»، بيروت، صادر ١٩٥٥، ج١، ص ١٠.
(٢) نفس المكان، ص ١٠.
(٣) نفس المكان، ص ١٠.
(٤) نفس المكان، ص ١١.
(٥) نفس المكان، ص ١٢.
(٦) نفس المكان، ص ١٣.
(٧) نفس المكان، ص ١٣ ـ ١٤.
(٨) ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٣٥ ـ ٣٨.
(٩) ابو الفدا «ذكر بلاد المغرب» الجزائر، مطبعة الحكومة، ١٨٣٩ ص ١٠ ـ ١٢.
(١٠) نفس المكان، ص ٢٢ ـ ٢٤.
(١١) نفس المكان، ص ٢٦ ـ ٢٨.
(١٢) نفس المكان، ص ٣٦.
(١٣) نفس المكان، ص ٤٨.
(١٤) نفس المكان، ص ٥٠.
(١٥) نفس المكان، ص ٥٢ ـ ٥٤.
(١٦) نفس المكان، ص ٧٠.
(١٧) نفس المكان، ص ٧٦.
(١٨) نفس المكان، ص ٨٨ ـ ٩٠.
(١٩) نفس المكان، ص ٩٢.
(٢٠) نفس المكان، ص ١١٤.
(٢١) نفس المكان، ص ١٤٢.
(٢٢) ابو الفدا، منقول عن شيخو، لويس، «مجاني الأدب في حدائق العرب»، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٨٢ ج١، ص ١٨٩.
(٢٣) نفس المكان، ص ١٩٠ ـ ١٩١.
(٢٤) نفس المكان، ص ١٩١.
(٢٥) نفس المكان، ص ١٩٥.
(٢٦) نفس المكان، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.
(٢٧) نفس المكان، ص ٢٠٤.
(٢٨) ابو الفدا، منقول عن بلاشير: «منتخبات من اثار الجغرافيين في القرون الوسطى» بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٢ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٧.
(٢٩) الادريسي، منقول عن شيخو، نفس المكان، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٣٠) نفس المكان، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٣١) نفس المكان، ص ١٩٨ ـ ١٩٩.
(٣٢) القزويني، «اثار البلاد واخبار العبد»، غوتنجن، ١٨٤٨ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ (باختصار).
(٣٣) ابن سعيد، منقول عن شيخو، نفس المكان، ص ٢١٢.
(٣٤) نفس المكان، ص ٢٣١.
(٣٥) البكري، منقول عن شيخو، نفس المكان، ص ٢٢٧.
(٣٦) نفس المكان، ص ٢٢٩.
(٣٧) ابن سعيد المغربي، ابو الحسن علي: «بسط الارض في الطول والعرض»، تطوان، معهد مولاي الحسن، ١٩٥٨ ص ٧١ ـ ٧٥.
(٣٨) نفس المكان، ص ٧٩ ـ ٨٢.

٥ ـ الموسوعات

يمتاز عصر المماليك البرجية بالنضج في الحياة العلمية في مصر والشام، كما يمتاز بالعناية بالمدارس ونواحي الحياة الفنية المختلفة. ولبعض المؤلفات التي وصلتنا من هذا العصر ميزة خاصة هي الاحاطة والشمول، او ما يجوز ان نسميه كتابة الموسوعات. فقد اهتم المؤلفون باخراج كتب تشمل اللغة والأدب والجغرافية والتاريخ واصول الشرع والإدارة وقواعد المخاطبات السلطانية، وغير ذلك مما يحتاجه ارباب الدواوين واصحاب الوظائف والعمال. وقد وصلت الينا ثلاثة كتب من هذا النوع هي نهاية الارب للنويري ومسالك الابصار لابن فضل الله العمري وصبح الاعشى للقلقشندي.

النويري

شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب المعروف بالنويري من اهل القرن الرابع عشر، ولد في سنة ٦٧٧ هـ ـ ١٢٧٨م وتوفي سنة ١٣٣٣/٧٣٣. وقد ولي كتابة الانشاء، كما انه كان وفي وقت من اوقات حياته ناظراً للجيش في طرابلس الشام.

ترجم له الادفوي صاحب الطالع السعيد قال: «احمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم البكري، ينعت بالشهاب النويري المحتد القوصي المولد والمنشأ. سمع الحديث على الشريف موسى بن علي بن أبي طالب وعلى يعقوب بن احمد بن الصابوني. واحمد الحجار. وزينب بنت منجي. وقاضي القضاة أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن جماعة وغيرهم. وكتب كثيراً كتب البخاري مرات. وجمع تاريخاً كبيراً في ثلاثين مجلداً وحصل له قرب من السلطان الناصر ووكله في بعض أموره وعمل عليه حتى رافع بن عبادة وهو الذي قربه من السلطان فضربه بالمقارع. ثم عفا عنه ابن عبادة. وتقلب في الخدم الديوانية. وباشر نظر الجيش بطرابلس. وتولى نظر الديوان بالدهقلية والمرتاحية. وكان ذكي الفطرة. حسن الشكل. وفيه مكرمة وأريحية وود لاصحابه. وصام رمضان سنة وفاته. وحصل له انه واظب على القراءة فكان كل يوم بعد العصر يستفتح قراءة القرآن الى قريب المغرب. ثم حصل له وجع في اصابع يديه وكان سبب وفاته. توفي يوم الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاثة وثلاثين وسبعمائة وله نظم يسير ونثر لا بأس به. وكان صاحبنا رحمه الله[1].

وكتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب»، وضعه لمصلحة كُتَّاب الدواوين والإنشاء. والكتاب في ثلاثين مجلداً لم يطبع منها بعد سوى ستة عشر مجلداً.

والنويري، كغيره من مؤلفي مثل هذه الكتب، رغب في وضع الكتاب ائتناساً به، ثم افاد منه غيره. وقد قال في فاتحة كتابه «وكنت ممن عدل في مباديه، عن الالمام بناديه، وجعل صناعة الكتابة فننه الذي يستظل بوارفه، وفنّه الذي جمع له فيه بين تليده وطارفه. فعرفت جليها، وكشفت خفيها، وبسطت الخرائد ونظمت منها الارتفاع، وكنت فيها كموقد نار على يفاع، واسترفعت القوانين، ووضعت الموازين، وعانيت المقترحات، وأعتمدت على المقايسات، وفذلكت على الأصل وما أضيف إليه، وحررت ما بعد الفذلكة فكان العمل على ما استقرت الجملة عليه، واستخرجت وحصلت، وجملت من عرضه وحصّلت، وسقت الحواصل، وأوردت المحاسيب وفذلكت على الواصل، وطردت ما انساق الى الباقي والموقوف، ونضّدت شواهد المصروف، وشطبت شواهد الارتفاع، وقرنت اعمال المبيع بالمبتاع، واستوفيت اعمال الاعتصار وتوالي الغلات، وتأملت سياق الأصناف والآلات، ونظرت في سياقات العلوفات والعوامل، وأجبت عن المخرج والمردود فأعجزت المناظر والمناضل، وأتقنت مواد هذه الصناعة، وتاجرت فيها بأنفس بضاعة.

«ثم نبذتها وراء ظهري، وعزمت على تركها في سري دون جهري، وسألت الله تعالى الغنية عنها، وتضرعت اليه فيما هو خير منها. ورغبت في صناعة الآداب وتعلقت بأهدابها، وانتظمت في سلك أربابها، فرأيت غرضي لا يتم بتلقيها من أفواه الفضلاء شفاهاً، وموردي منها لا يصفو ما لم أجرد العزم سفاهاً.

«فامتطيت جواد المطالعة، وركضت في ميدان المراجعة. وحيث ذل لي مركبها، وصفا لي مشربها، آثرت ان أجرد منها كتاباً أستأنس به وأرجع اليه، وأعول فيما يعرض لي من المهمات عليه. فاستخرت الله سبحانه وتعالى وأثبت منها خمسة فنون حسنة الترتيب، بينة التقسيم والتبويب: كل فن منها يحتوي على خمسة أقسام: «الفن الأول في السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية، والفن الثاني في الانسان وما يتعلق به، والفن الثالث في الحيوان الصامت، والفن الرابع في النبات، والفن الخامس في التاريخ وترجمته بنهاية الأرب في فنون الأدب.

«وأتيت فيه بالمقصود والغرض، وأثبت الجوهر ونفيت العرض، وطوقته بقلائد من مقولي، ورصعته بفرائد من منقولي. فكلامي فيه كالسارية تلتها السحائب، أو السرية ردفتها الكتائب، فما هو الا مترجم عن فنونه وحاجب لعيونه.

«وما أوردت فيه الا ما غلب على ظني ان النفوس تميل اليه، وان الخواطر تشتمل عليه. ولو علمت ان فيه خطأ لقبضت بناني، وغضضت طرفي، ولو خبرت طريق المعترض لعطفت عناني، وثنيت عطفي. لكني تبعت فيه آثار الفضلاء قبلي، وسلكت

منهجهم فوصلت بحبالهم حبلي. فان يكن اعتراض، فعلى علاهم لا على العار. وقد علمت أنه من صنف كتاباً فقد استهدف، وأصم الاسماع وان كان لبعضها قد شنف.

«وخليق للواقف عليه ان يسد ما يجد به من خلل، وان يغفر ما يلمح فيه من زلل.

فأسبل عليها ستر معروفك الذي ستـرت به قـدمـاً على عـواري

«والذي أدى اليه اجتهادي من تأليفه فقد أصدرته، والذي وقفت عنده غايتي فقد أوردته. قـد تبلغت فيـه وسعي، لكن ليس من عـثرة الكتـاب أمـان. وبالله سـبـحـانه المستعان! وعليه أتوكل، واليه أتضرع في التيسير وأتوسل، ومن فضله أستمد الصواب وباسمه استفتح الكتاب!»[1].

العمري

شهاب الدين ابن فضل الله العمري هو صاحب كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصـار. وهو متـحـدر من أسـرة سـورية كانت لهـا مـشـاركـة كبـيـرة في شـؤون الدولة والإدارة في ايام المماليك، وخـاصة في تنظيم أمور البريد. ولد الرجل في دمشق سنة ٧٠٠ هـ ـ ١٣٠١م وتوفي فيها منفياً سنة ٧٤٨/ ١٣٤٧، وقد تولى القضاء قبل وصوله إلى ديوان الانشاء.

ترجم له صاحب الدرر الكامنة قـال «احمـد بن يحيى بن فـضل الله... ولد في ثالث شـوال سنة سبعمائة وقـرأ العربيـة على كمـال الدين ابن قـاضي شهبـة والفقـه على ابن الفـركاح وشهـاب الدين ابن المجد والشيخ برهان الدين ابن الفركاح وقـرأ الاحكام الصغرى عن ابن تيمية وتخرج في الأدب بالشهاب محمود وبالوداعي وشمس الدين بن الصـائغ الكبيـر وابن الزملكاني وابي حيـان وسـمع الحـديث على جمـاعـة كست الوزراء والحـجـار وكان يتـوقـد ذكاء مع حـافظة قـوية وصـورة جـميلة واقتـدار على النظم والنثـر حتى كان يكتب من رأس القلم ما يعـجـز عنه غيـره في مـدة مع سـعـة الصـدر وحـسـن الخلق وبشـر المحيا كتب الانشاء بمصـر ودمشق ولما ولى أبوه كتابة السـر كان هو يقرأ كتب البـريد على السلطان ثم غـضب عليـه السلطان وذلك في سـابـع عشـر ذي الحـجـة سنة ٤٠ وولاه كتابة السر بدمشق... وعمل مسـالك الابصـار في ازيد من عشرين مجلداً والتعريف بالمـصطلح الشريف واشياء لطاف كثيرة وله شعر كثيـر جداً لكنه وسط ذكره الذهبي في المـعجم المـختص فـقـال ولد سنة ٧٠٠ وسـمع الحـديث وقـرأ على الشيـوخ وسـمع مـعي من ست القضـاة بنت الشيـرازي وله تصـانيف كـثيـرة أدبية وبـاع طويل في الصناعتين وبراعة في البلاغتين والله اعلم». [1].

وقد قدم لنا العمري كتابه بنفسه فقال:

«ولقـد طالعت الكتب الموضوعة في أحوال الأقاليم وما فيها، فلم أجد من قنن احـوالهـا، ومـثل في الافـهـام صـورهـا، لأن غـالب تلك الكتب لا تتـضـمن سـوى الأخبـار

القديمة، وأحوال الملوك السالفة والأمم البائدة وبعض مصطلحات ذهبت بذهاب اهلها ولم يبق في مجرد ذكرها عظيم فائدة، ولا كبير أمر. وخير القول أصدقه، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم.

«فاستخرت الله تعالى في اثبات نبذة دالة على المقصود في ذكر الأرض وما فيها ومن فيها: الأظهر فالأظهر، والأشهر فالأشهر، وما لم أجد بداً من ذكره في ذلك ومثله وحالة كل مملكة، وما هي عليه، هي وأهلها في وقتنا هذا مما ضمه نطاق تلك المملكة، واجتمع عليه طرفا تلك الدائرة. لأقرب إلى الأفهام البعيدة غالب ما هي عليه أم كل مملكة من المصطلح والمعاملات، وما يوجد فيها غالباً: ليبصر اهل كل قطر القطر الآخر. وبينته بالتصوير: ليعرف كيف هو، كأنه قدام عيونهم بالمشاهدة والعيان. مما اعتمدت في ذلك على تحقيق معرفتي له، فيما رأيته بالمشاهدة، وفيما لم أره بالنقل ممن يعرف احوال المملكة المنقول عنه أخبارها، مما رآه بعينه او سمعه من الثقات بأذنه.

«ولم أنقل الا عن اعيان الثقات، من ذوي التدقيق في النظر، والتحقيق للرواية. واستكثرت ما أمكنني من السؤال عن كل مملكة، لأمن من تغفل الغفلاء، وتخيل الجهالات الضالة، وتحريف الافهام الفاسدة.

«فان نقلت بعض الكتب المصنفة في هذا الشأن، فهو من الموثوق به فيما لا بد منه: كتقسيم الأقاليم، وما فيها من اقوال القدماء، واختلاف آراء الحكماء، الى غير ذلك من غرائب وعجائب، واخبار ملل ودول، وذكر مشاهير أعلام، وتاريخ سنين وشهور وأيام. مما هو مسرح أمل، ومطمح ذي عمل، لأجمل به كلامي، وأكمل به نقصي، وأتمم بهجة النظر، ورونق الصفحات: كالطراز في الثوب، والخال في الخد. لا لأكثر به سواد السطور، وأكبر به حجم الكتاب. ولم أقتصر بذكر الأقاليم، عند ذكري الممالك، مقصد الجغرافيا، كالأول والثاني والثالث، ولا بما تطلق عليه المسميات، كالعراق وخراسان وأذربيجان.

«بل أذكر ما اشتملت عليه مملكة كل سلطان، جملة لا تفصيلاً، على ما هي عليه المدينة التي هي قاعدة الملك: كقرشي والسراي من قسمي توران وتوريز من ايران، أو ما لا بد من ذكره معها، والغالب في تلك المملكة من اوضاعها، والأكثر من مصطلح أهلها.

«ولا أعني ذوي الممالك الصغار، اذا كانوا في مملكة سلطان قاهر عليهم، آمر فيهم: اذ هم جزء من كل. بل الذكر لكل سلطان يستحق اسم السلطنة: لاتساع ممالك واعمال، وكثر جنود واموال، ويتغطى بذيله من لعله يكون في مملكته من ذوي الممالك الصغار: كصاحب حماة مع صاحب مصر، وصاحب ماردين مع صاحب ايران. اللهم الا أن تكون تلك المملكة مفردة لملك أو ملوك، وليس عليهم سلطان يجمعهم حكمه، ويمضي فيهم أمره، كملوك الجيل، وملوك جبال البربر وما يجري هذا المجرى، ويسري كوكبه هذا المسرى.

«ولم آل جهداً في تصحيح ما كتبته بحسب الطاقة، من غير استيعاب ولا تطويل. ولم أعرج الى ملوك الكفار ركابي، ولا أرسيت بجزائر البحر سفني، ولا اسهرت في الظلمات عيني، ولا أتعبت في المحفورة يدي. إلا ما ألممت منه المامة الطيف المنفر، ونغبت منه نغبة الطائر الحذر، لأن غالب ما يقال (والله اعلم) أسماء لا يعرف لها حقيقة، ومجاهل لا توصل اليها طريق.

«ولم اقصد في المعمورة سوى الممالك العظيمة، ولا خرجت في جهاتها عن الطريق المستقيمة: اكتفاء بالحق الواضح والصدق الظاهر، مما اتصلت بنا حقيقة أخباره، وصحت عندنا جلية أحواله.

«وقنعت بما بلغه ملك هذه الامة، وتمت بكلمة الاسلام على أهله النعمة. ولم أتجاوز حدها، ولا مشيت خطوة بعدها، الا ما جره سياق الكلام، أو طارح به شجون الحديث: مما اندرج في اثناء ذلك، أو اضطرت اليه تعريجات السالك، أو اقتضاه سبب، أو دخل مع غيره في ذمة حسب.

«وان كان في العمر فسحة، وفي الجسم صحة، وللهمة نشاط، وللنفس انبساط، (وما ذلك على الله بعزيز، ولا من عوائد ألطافه الخفية بعجيب)، لأذيلن بممالك الكفار هذا التصنيف، وأجيء بفارسه المعلم وخلفه من سبيهم رديف.

لكنني لم آت في هذا الكتاب بذكر ممالكهم (على اتساع بلادها) الا عرضا، ولا سطرت من تفصيلها الا جملاً: توفيراً للمادة، وتيسيراً للجادة، ولأتمتع برونق الأنوار، ولا أشوب بسواد الليل بياض النهار.

«على أنني ربما ذكرت في مكان ما قاربه من بلاد الكفار، وذكرته للمجاورة رجاء ان يؤخذ بشفعة الجوار.

«ولم أذكر عجيبة حتى فحصت عنها، ولا غريبة حتى ذكرت الناقل، لتكون عهدتها عليه، وتبرأت منها. وقد يقع الانكار لأكثر الحقائق من الناس: لنقصان العقول. لأن الذي يعرف الجائز والمستحيل، يعلم ان كل مقدور بالاضافة الى قدرة الله تعالى قليل. وقد وصف الله تعالى الجهال بعدم العقل، فقال: ﴿ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون﴾. وقد أودع الله من عجائب المصنوعات، في الأرض والسماوات، كما قال تعالى: ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾. وقد أرانا من عظيم قدرته، وبدائع صنعه، ما جلا الشك، وأوضح الحق. فماذا بعد الحق الا الضلال؟

«وأول ما أبدأ بالمشرق، لأن منه يتفتح نوار الأنوار، وتجري أنهار النهار. الى ان أختمه بنهاية المغرب، الى البحر المحيط. لأنه الغاية، واليه النهاية. الا فيما لم أجد بداً من الابتداء به من المغرب الى المشرق: كتخريج الأقاليم، لابتداء الأطوال من الجزائر الخالدات بالبحر الغربي، او ما هذا حكمه، أو وقع عليه قسمه.

«وقطعت فيه عمر الأيام والليالي، وأثبت فيه بالأقلام اخبار العوالي. وشغلت به الحين بعد الحين، واشتغلت ولم أسمع قول اللاحين. وحرصت عليه حرص الضنين، وخلصت اليه بعد ان أجريت ورائي السنين.

«وشرعت فيه في ايام من مانا باحسانه، وأمننا في سلطانه: سيدنا ومولانا، ومالك رقابنا، السلطان ابن السلطان، السيد الكبير الملك الناصر، العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر والمؤيد المظفر المنصور، ناصر الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين، وارث الملك، ملك العرب والعجم والترك، نائب الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البحرين، خادم الحرمين، حامي القبلتين، مبايع الخليفتين، بهلوان جهان، اسكندر الزمان، ناشر علم العدل والاحسان، مملك اصحاب المنابر والأسرة والتخوت والتيجان، جامع ذيول الأقطار، مبيد البغاة والطغاة والكفار، هازم الروم والفرنج والكرج والأرمن والتتار، سلطان البسيطة، مثبت أركان المحيطة، امام المتقين، ولي أمور المؤمنين، متعهد حج بيت الله الحرام وزيارة سيد المرسلين، أبي المعالي محمد بن مولانا السلطان الكبير الشهيد أبي المظفر قلاوون، سيد ملوك الأرض على الاجماع، المخصوص بملك أشرف البقاع.

سل عنه وانطق به وانظر اليه تجد ملء المسامع والأفواه والمقل!

«فأدام الله أيامه، وادار على مفارق النجوم أعلامه!

«وسميته: مسالك الابصار في ممالك الامصار. وعلى الله أعتمد، ومنه استمد، واياه أسأل التوفيق والاعانة، وأبرأ من الحول والقوة الا به. وهو حسبي ونعم الوكيل! وفهرست ما تضمنه وجملته قسمان: القسم الأول ـ في الأرض. القسم الثاني ـ في سكان الأرض[٤]».

القلقشندي

شهاب الدين احمد القلقشندي، ولد سنة ٧٥٦ هـ ـ ١٣٥٥م في قلقشندة من اعمال قليوب في دلتا مصر، واقام في الاسكندرية حيث تفقه ومهر، وتعانى الأدب وكتب في الانشاء، واجيز بالفتيا والتدريس ولم تكن سنه اذ ذاك تتعدى احدى وعشرين سنة. وتصدر للافادة فانتفع الكثيرون من علمه. ثم نزل القاهرة والتحق بديوان الانشاء بالابواب السلطانية بالديار المصرية، وفي منصبه هذا الف كتابه صبح الاعشى، وهو اشهر كتبه واعظمها قيمة. على انه وصلت الينا من مؤلفاته «ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر» وكتاب «الغيوث الهوامع» و«نهاية الارب في معرفة قبائل العرب».

والكتاب الذي نحن بصدده الآن هو صبح الاعشى، كتبه المؤلف وهو بديوان الانشاء بمصر. وقد تناول الكاتب في خطبة الكتاب بالتفصيل الغاية التي من اجلها

كتب والف. وهذه الخطبة هي في الوقت ذاته نقد فني لمن سبقه من المنشئين فهو يقول: «والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التصنيف، وتباينت مواردهم في الجمع والتأليف. ففرقة اخذت في بيان اصول الصنعة وذكر شواهدها، واخرى جنحت الى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها... ولم يكن فيها تصنيف جامع لمقاصدها... بل اكثر الكتب المصنفة في بابها والتآليف الدائرة بين اربابها، لا يخرج عن علم البلاغة المرجوع فيها اليه، او الالفاظ الرائقة فيما وقع الاختيار عليه»[٥]. ثم يعرض القلقشندي لكتابين فينقدهما: الأول التعريف بالمصلح الشريف للمقر الشهابي بن فضل الله العمري، والثاني تثقيف التعريف لابن ناظر الجيش. فيقول عن الأول «انه قد اهمل من مقاصد المصطلح اموراً لا يسوغ تركها كالبطائق والملطفات». واما الثاني فقد ترك الوصايا والاوصاف ومراكز البريد وابراج الحمام[٦]. ثم يجمل القول في الاثنين فصار كل من الدستورين منفرداً عن الآخر بقدر زائد، ولم تقع الغنية بأحدهما عن الآخر، وان كانا في معنى واحد[٧].

والكتاب مرتب على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة بناها بالاجمال على التعريف بحقيقة ديوان الانشاء واصله في الاسلام وانتشاره بعد ذلك في العالم الاسلامي. وتناول ما يحتاج اليه كاتب الانشاء من الأمور العلمية والعملية. فالخط وتوابعه ولواحقه فيه موضحة، ومعرفة المسالك والممالك فيه مبوبة، ومشاركة المكاتبات والولايات والالقاب والاسماء والكنى والمواضع فيه مبوبة، هذا الى وصف الولايات وطبقاتها والبيعات والعهود، وذكر الوصايا الدينية وما يكتب فيها، والقطاعات واصلها في الشرع وعقود الامانات. وتكلم فيه عن البريد ووضعه في الجاهلية والاسلام وبين معالمه ومواضعه. والحق انه على قول مصححه المرحوم الاستاذ محمد عبد الرسول ابراهيم: «كتاب ممتع ودائرة معارف ادبية كبرى، يشهد لمؤلفه بالفطنة والذكاء وطول الباع في فن كتابة الانشاء[٨].

ونحن نكتفي بناحية أو اثنتين من نواحيه المتعددة نتناولها بشيء من التفصيل. فاننا نجد ان الفصل الثالث من الباب الأول من المقالة الأولى يتناول معرفة الازمنة والأوقات وايام الشهور والسنين على اختلاف الاسم فيها، وتفاصيل اجزائها والطرق الموصلة اليها ومعرفة اعيان الأمم. وهو يتناول كل هذه بتفصيل من الناحيتين الشرعية والفلكية، فيحكي المذاهب المختلفة ثم يلاحظ في دقة ان اليوم ينظر اليه باعتبارين. اما الطبيعي فالليل من لدن غروب الشمس الى طلوعها وظهورها من الافق، والنهار من طلوع نصف قرص الشمس من المشرق الى غيبوبته. واما الشرعي فالليل من غروب الشمس الى طلوع الفجر الثاني... والنهار منه الى غروب الشمس[٩].

وتراه ينتقل من الايام الى الشهور فيذكر انواعها ويقارن الشمسية منها بالقمرية، ويعين ابتداء القبطية منها بالنسبة الى الشمسية. والسنة عنده اما طبيعية وهي

القمرية، واما اصطلاحية وهي الشمسية ويتناول في هذه مصطلحات القبط والفرس والسريان ثم مصطلح المنجمين، ويوضح علاقاتها ببعضها البعض. ويعقد صاحبنا فصلاً في التوفيق بين السنين وعلاقة ذلك بالخراج والاعشار لارتباط المنتوج الزراعي بالسنين على اختلاف الاصطلاح. وهذا الفصل من خير ما عثرت عليه عند كتاب العرب عن الموضوع.

وإذ ينقلنا الى الحديث عن الفصول نشعر ان المؤلف دقيق الاحساس رقيقه هذا الى طول باع في رواية الشعر الرفيع. فهو يتحدث عن الفصول ويروي فيها الاشعار والقصائد.

والمقالة الثانية من كتاب الصبح في المسالك والممالك، فيها تعرض المؤلف لذكر الأرض على وجه الاجمال. فتعرف الى شكلها واحاطة البحر بها واقاليمها الطبيعية وانواع البحار وحدثنا عن كيفية استخراج جهات البلدان والابعاد الواقعة بينها. ثم بحث الخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم وما انطوت عليه الخلافة من الممالك في القديم وما كانت عليه من الترتيب الى عصره. ووصف وظائف ارباب الاقلام والسيوف، ثم تناول دول الأرض دولة دولة، فبدأ بالمملكة المصرية ومضافاتها ووضعها ومحاسنها وخواصها وعجائبها وزرعها ورياحينها ومطعومها وحيوانها وطيورها وقواعدها. ثم فصل كورها ومدنها واخبارها وملوكها جاهلية واسلاما، وترتيب احوالها في معاملاتها ونقودها وأنواع أراضيها ودواوينها وجيوشها ومواكب امرائها وملوكها. وانتقل من المملكة المصرية الى بقية اقطار العالم الاسلامي اولاً ثم الى ما خرج عنه. وهو في اخباره وانبائه دقيق الملاحظة، شديد العناية باسناد ما ينقله عن غيره، سريع الى النقد. فيقول مثلاً: «اما شكل الأرض فقد تقرر في علم الهيئة ان الأرض كُريّة الشكل... وقيل هي مسطحة وقيل كالترس وقيل كالطبل. والتحقيق الأول»[١٠]. ويحدثنا عن خطوط الطول والعرض ثم يلاحظ ان اكثر المعمور من الأرض إنما هو في النصف الشمالي والعمارة فيه فيما بين خط الاستواء الى نهاية ست وستين درجة ونصف في الأرض. ويقسم المعمور من الأرض الى اقاليم سبعة ينقلها وحدودها عن ابي الفداء.

ويحظى البحر المتوسط بقسط وافر من عناية الكاتب، وهو يسميه، مثل بقية الجغرافيين المعاصرين له، بحر الروم، ولكنه يذكرنا انه يسمى البحر الشامي ايضاً. فالمدن الموجودة عليه تذكر كلها، وتعين اعراضها واطوالها وتبين المسافات التي تفصل بينها.

ويتحدث عن الخلافة وشعارها وهي الخاتم والبردة والقضيب، وثياب الخلافة والاعلام والخلع بالوانها مفصلة في هذا الباب[١١]. كما نجد تفصيل الوظائف الوزارية وغيرها كالحجابة وهي حفظ باب الخليفة والاستئذان للداخلين عليه، وولاية المظالم،

والنقابة على ذوي الانساب والقضاء والحسبة والولاية على المساجد.[١٢] فاذا فرغ من ذكر الترتيبات على ما عرفت قبلا، اي قبل انتقال الخلافة الى مصر، تخلص الى ذكر ما اصابها بعد ذلك، فقال: «والذي استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية ان الخليفة يفوض الأمور العامة الى السلطان ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر الا في مصلى السلطان خاصة... ويستبد السلطان بما عدا ذلك، من الولاية والعزل وإقطاع الاقطاعات حتى للخليفة نفسه، ويستأثر بالكتابة في جميع ذلك[١٣].

والفصول الأخيرة في صبح الاعشى تتناول الكلام على البريد ومطارات الحمام الرسائلي وهجن الثلج ومراكبه والمناور والمحرقات.

فمما يقوله عن البريد انه كان له الواح من فضة مخلدة بديوان الانشاء تحت أمر كاتب السر بالابواب السلطانية منقوش على وجهي اللوح نقشاً مزدوجاً ما صورته «لا اله الا الله محمد رسول الله، ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ضرب بالقاهرة المحروسة». وعلى الوجه الآخر «عز لمولانا السلطان الملك الفلاني: فلان الدنيا والدين خلد الله ملكه[١٤]». وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير اصفر ذات بندين يجعلهما البريدي في عنقه متى خرج الى جهة من الجهات. فكل من رأى اللوح والشرابة علم انه بريدي وبواسطة ذلك تذعن له ارباب المراكز بتسليم خيل البريد.

ويختم المؤلف حديثه عن البريد بذكر طرقه في مصر وبلاد الشام وما جاورهما. ثم ينتقل الى ذكر الحمام الرسائلي. فيعدد انواعه ويذكر الوانه ويبين صفة الطائر الفاره، ويقص اخبار من اعتنى به من خلفاء بني العباس كالمهدي. وتنافس رؤساء الناس في العراق في اقتنائه، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منه سبعمائة دينار وثمن البيضتين منه عشرين ديناراً[١٥].

وآخر فصل في صبح الاعشى يتناول نقل الثلج من الشام الى مصر. فقد كانت له هجن تنقله في البر وسفن تنقله في البحر، حتى يصل إلى قلعة القاهرة. وقد كانت هذه المراكب ثلاثا في السنة في ايام الملك الظاهر بيبرس ثم اخذت في الزيادة حتى بلغت احد عشر مركباً. والمراكب تأتي دمياط في البحر ثم يخرج الثلج في النيل الى ساحل بولاق فينقل منه على البغال السلطانية ويحمل الى الشرابخانة الشريفة[١٦].

ومما حدث في زمن الدولة الناصرية استعمال الهجين لنقل الثلج، وكانت هذه الهجن تخرج من دمشق إلى الصنّمين ثم الى بانياس ثم الى اربد ثم الى بيسان فجنين فقاقون فاللد فغزة فالعريش فالمطيلب فقطيا ثم منها الى القصير فالصالحية فبلبيس فالقلعة. والمستقر في كل مركز ست هجن، خمسة للاحمال وهجين للهجان، تكون كل نقلة خمسة احمال[١٧].

ليس الذي عرضنا له واستشهدنا به الا القليل مما عند القلقشندي. وليس باستطاعتنا ان نفعل غير ذلك. فثمة فصول وابواب لم نشر حتى الى اسمائها كالفصول التي تناول فيها المؤلف الايمان واحكامها في الشرع واثرها في المعاهدات وتلك التي بحث فيها الخط ورسم الحروف وقواعد الكتابة وتطور الخطوط وفي الكتاب مئات من الرسائل البليغة كان المؤلف كتبها في مناسبات مختلفة فاستشهد بها وضمنها كتابه.

وقد اقبل الأدباء والمتأدبون على صبح الاعشى اقبالاً قال فيه المؤلف: «لكني احمد الله تعالى على رواج سوق تأليفي ونفاق سلعته، والمسارعة الى استكتابه قبل انقضاء تأليفه. حتى ان قلمي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان الطرس الى اكتتابه، ومرتقب نجازه للاستنساخ ويساهمان في ارتقابه، فضلاً من الله ونعمة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».[١٨]

مختارات من نهاية الأرب

في الاقاليم السبعة

«ذهب اصحاب الزيجات الى ان كل اقليم منها كأنه بساط ممدود، طوله من المغرب الى المشرق، وعرضه من الجنوب الى الشمال.

«١ ـ فأما الاقليم الأول فمبدؤه من مشرق أرض الصين الى مدائن ابوابها. وهي الانهار التي تدخل السفن فيها من البحر الى المدائن الجليلة، مثل خانقو وخانفور. وفيه جزيرة سرنديب. ومن أرض اليمن ما كان جنوبياً من صنعاء مثل ظفار وحضرموت وعدن. وفيه من بلد النوبة دنقلة، ومن بلد السودان غانة. ثم ينتهي الى البحر المحيط. وعرضه من خط الاستواء الى مقدار ما يبعد عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة.

«وذهب بعض الناس الى أن أول المعمور من حيث يكون العرض وخط الاستواء اثنتي عشرة درجة، ونصف وربع درجة، وفيما بين هذا العرض وخط الاستواء مسكون بطوائف من السودان في عداد الوحوش والبهائم. وعد فيه بطليموس من البلاد ذوات العروض ستين مدينة. وأهل هذا الاقليم سود، وهو قليل الساكن لإفرط حره.

«٢ ـ وأما الاقليم الثاني فيبتدىء من بلاد الصين، ويمر على بعض بلاد الهند الساحلية، مثل تانة، وصيمور، وسندان، ومن بلاد السند على المنصورة وديبل، ثم يبلغ عمان. ويكون فيه من أرض العرب: نجران، وهجر، وجنابة، ومهرة وسبأ، وتبالة، والطائف، وجدة، ومكة والمدينة، ومملكة الحبشة، وأرض البجة، وأسوان، وقوص، والصعيد الأعلى وجنوب بلاد المغرب حتى ينتهي الى البحر المحيط، وعرضه من غاية الاقليم الأول الى سبع وعشرين درجة واثنتي عشرة دقيقة.

«وزعم بطليموس ان فيه اربعمائة وخمسين مدينة. وأهله بين السمرة والسواد وهو كثير الذهب.

«٣ ــ وأما الاقليم الثالث فمبدؤه من شرق أرض الصين، وفيه مدينة مملكتها حمدان، وفيه من بلاد الهند تانش والقندهار، ومن بلاد السند المولتان وقزدار. ثم يمر ببلاد سجستان، وكرمان، وفارس، واصبهان، والأهواز، والبصرة والكوفة، وأرض بابل، وبلاد الجزيرة، والشأم، وفلسطين، وبيت المقدس، والقلزم، والتيه، وأرض مصر، والاسكندرية، وبلاد برقة، وافريقية، وتاهرت، وبلاد طنجة، والسوس، وينتهي الى البحر المحيط. وعرضه من غاية الاقليم الثاني في العرض الى تمام ثلاث وثلاثين درجة وتسع وأربعين دقيقة.

«وزعم بطليموس ان فيه تسعا وخمسين مدينة. وأهله سمر.

«٤ ــ واما الاقليم الرابع فمبدؤه من أرض الصين، ويمر على التبت والحنق، ثم على جبال قشمير، ووخان، وتل حسان، وكابل، والغور، وهراة، وبلخ، وطخارستان، ويمتد الى الري، وقم، وهمذان، وحلوان، وبغداد، والموصل، وأذربيجان. ويمتد على منبج، وطرسوس، والثغور، وانطاكية، وجزيرة قبرص، وصقلية، ثم على الزقاق الى البحر المحيط، وعرضه من غاية الاقليم الثالث في العرض الى تتمة تسع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة.

«وزعم بطليموس ان فيه مائة وثلاثين مدينة. وأهله بين السمرة والبياض.

«٥ ــ وأما الاقليم الخامس فمبدؤه من أرض الترك المشرفين على يأجوج ومأجوج الى كاشغر، وبلاساغون، وفرغانة، واسبيجاب، والشاش، واشروسنة وسمرقند، وبخارى، وخوارزم، وبحر الخزر الى باب الأبواب، وبرذعة، وميافارقين، ودروب الروم، وبلادهم. ثم يمر على رومية الكبرى، وارض الجلالقة، وبلاد الأندلس، وينتهي الى البحر المحيط. وعرضه من غاية الاقليم الرابع الى تمام ثلاث وأربعين درجة وثماني عشرة دقيقة.

«وذكر بطليموس ان فيه سبعا وتسعين مدينة. واكثر أهله بيض.

٦ ــ وأما الاقليم السادس فمبدؤه من مساكن ترك المشرق، وهم الخرخيز، والكيماك، والتغزغز، ثم على بلاد الخوز من شمال تخومها، واللان، والسرير، وارض برجان، ثم على قسطنطينية، وافرنجة، وشمال الأندلس، وينتهي الى البحر المحيط، وعرضه من غاية الاقليم الخامس الى تمام سبع وأربعين درجة وخمس عشرة دقيقة»[١٩].

وأما البصرة وما اختصت به

«فمن خصائصها ان للغربان بها ضربا من العجب. وذلك أنها تقع اليها بالخريف حتى تكون الأرض بها سوداء، وتقع على كل نخلة أصرم ثمرها، ولا تقع على ما لم تصرم، ولو بقي عليها عذق واحد.

ومن عجائبها أيضاً، ان التمر يكون مصبوباً في بيادره، فلا يقع عليه شيء من الذباب لا في الليل ولا في النهار.

وأهل البصرة يتخذون المظلات على التمر والعجوة خوفاً عليها من الخفاش.

ومن عادة الذباب الفرار من الشمس الى الظل، فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه البتة. فيتوهم المتوهم ان هاتين الحالتين من طلسم، له من الخاصية ما يمنع العربان والذباب. وليس كذلك، وانما هو من حماية الله ووقايته.

«ووصف خالد بن صفوان البصرة، فقال: منابتها قصب، وأنهارها عجب، وسماؤها رطب، وأرضها ذهب»[٢٠].

ومن المباني القديمة القليس

«وهي كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح ملك المين بصنعاء. ونقل اليها الرخام المجزع والملون، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس. وكان أراد أن يرفع بناءها حتى يشرف منها على بحر عدن. فلما أهلكه الله تعالى وفرق ملكه، أقفر ما حول هذه الكنيسة، وكثرت حولها السباع والحشرات وبقيت الى زمن السفاح فذكر له أمرها، فبعث اليها من خربها واخذ ما كان فيها. حكى ذلك السهيلي في «الروض الأنف».

«وحكي ان كيفية بناء هذه الكنيسة أنه كان لها باب من نحاس طوله عشرة أذرع وعرضه أربعة أذرع، يدخل منه الى بيت طوله ثمانون ذراعاً وعرضه أربعون ذراعاً، مسقف بالساج المنقوش، مسمر بمسامير الذهب والفضة ثم يدخل من البيت الى ايوان معقود طوله أربعون ذراعاً، عن يمينه ويساره عقود مزخرفة، ثم يدخل من الايوان الى قبة ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً، جدرها مموهة بالذهب والفضة، وفي صدر القبة منبر من الآبنوس المرصع بالعاج المصفح بالذهب والفضة.» [٢١]

ومن المباني القديمة ملعبا بعلبك

«هما كبير وصغير.

«فالكبير، يحكى انه من بناء سليمان بن داود عليهما السلام، وهو مبني على عمد شاهقة، وحجارته منها ما هو عشرة أذرع وأكثر.

«والملعب الصغير تهدم أكثره، وبقي منه حائط طوله عشرون ذراعاً وارتفاعه كذلك، ليس فيه الا سبعة أحجار: واحد من أسفله، وحجران فوقه، وأربعة أحجار فوقهما.

«ويقال انه البيت الذي كان فيه الصنم الذي كان يدعى «بعلا»[٢٢].

فأما غمدان

«فكان بصنعاء، زعم بعض المؤرخين أن بانيه حام بن نوح، وزعم آخرون ان بيوراسب بناه على اسم الزهرة.

«وقال ابن هشام ان الذي أسسه يعرب بن قحطان، وأكمله بعده وائل بن حمير بن سبا بن يعرب، وخربه عثمان بن عفان رضي الله عنه.

«وقيل في صفته ان كان مربعاً، أحد أركانه مبنى بالرخام الابيض، والثاني بالرخام الأصفر، والثالث بالرخام الأخضر، والرابع الأحمر، وفيه سبعة سقوف طباقاً، ما بين السقف والآخر خمسون ذراعاً. وعلى كل ركن تمثال أسد من نحاس، اذا هبت الريح دخلت من دبره وخرجت من فيه، فيسمع لها صوت كزئير الأسد.»[٢٣]

متنزهات الدنيا

«اتفق جوابو الأقطار أن مستنزهات الدنيا أربعة مواضع، وهي صغد سمرقند وشعب بوان، ونهر الابلة، وغوطة دمشق، وقد رأيت ان اصف هذه المستنزهات بصفاتها التي شاهدتها ونقلت إلي، واخبارها التي عاينتها وقصت انباؤها علي، فقلت في ذلك: ألذ ما تمتعت بحسنه النواظر، وابهى ما ارتاحت النفوس الى ازهاره النواضر، وصف رياض تاهت الارض على السماء بأزهارها، وباهت انوار الكواكب بنورها ونوارها.

«فمنها صغد سمرقند ــ الذي تحف به بساتين كست زهرتها من الأرض عاريها واصبح للسماء بكاء في جوانبها وللروض ابتسام في نواحيها، تتخللها قصور يتضاءل سنا النجم في آفاقها، وتحتجب الغزالة عند طلوعها حياء من بهجتها واشراقها.

«ومنها شعب بوان ـ الذي غدت مغانيه مغاني للزمان، وقصرت الألسن عن وصف محاسنه وطالت الى اقتطاف ثمره البنان، تكاد شمسه تغرب عند الاشراق، ولا تتخلل اشجاره الا والحياء يعيدها في قبضة الاطراق، يستغني بغدرانه عن صوب الصيب»[٢٤].

«ومنها نهر الأبلة ــ الذي طوله اربع فراسخ، ورؤوس نخله على وجه الأرض شوارف واصولها في الثرى رواسخ، بجانبيه بساتين ان هب النسيم بأغصانها تعانقت وتمايلت، وان لعب بأفنانها تناظرت وتماثلت، كأنما غرست في يوم واحد شجراته، وقامت على خط الاستواء نخلاته، وفيه يقول التنوخي شاعر اليتيمة:

واذا نظرت الأبلة خلتها	من جنة الفردوس حين تخيل
كم منزل في نهرها آل السرو	ر بأنه في غيره لا ينزل
فكأنما تلك القصور عرائس	والزهر وشى فهي فيه ترفل
غنت قيان الطير في ارجائه	هزجا يقل له الثقيل الأول
وتعانقت تلك الغصون فأذكرت	يوم الوداع وعيرهم تترحل
ربع الربيع بها فحاكت كفه	حللا بها عقد الهموم تحلل
فمدبج وموشح ومدنر	ومعمد ومحبر ومهلل
فتخال ذا عينا وذا ثغرا وذا	خدا يعضض تارة ويقبل

«ومنها غوطة دمشق ـ التي هي شرك العقول وقيد الخواطر، وعقال النفوس

ونزهة النواظر، خلخلت الأنهار أسوُق اشجارها، وجاست المياه خلال ديارها، وصافحت أيدي النسيم أكف غدرانها، ومثلت في باطنها موائس اغصانها، يخال سالكها أن الشمس قد نثرت على أثوابه دنانير لا يستطيع ان يقبضها ببنان، ويتوهم المتأمل لثمراتها أنها أشربة قد وقفت بغير أوان في كل أوان، فيا لها من رياض من لم يطف بزهرها من قبل أن يحلق فقد قصر، ومن غياض من لم يشاهدها في ابانها فقد فاته من عمره الأكثر.

«وهذه الأربعة الأماكن أجمع جوابو الأقطار على تفضيلها على ما عداها، وتمييزها على ما سواها.»[٢٥]

مختارات من مسالك الابصار

نهر النيل

«ومن ذلك نهر النيل، وهو النهر الأعظم الذي لا يعدله في عظيم نفعه شيء: لعظم ما عليه من البلاد وطوله في الأمم. وهو ينصب من جبل القمر. وقد قدمنا عند ذكر الجبال طرفا فيه، وان كان لا مقال يوفيه، لأنه احدى الكبر، وأولى العبر، آية من آيات الله في أرضه، وعجيبة لمن تأمل من خلقه. ساقه الله تعالى الى مصر وأحيا به بلدة ميتا وسقاه أمة عظمى. وان لم تكن هي المنفردة بنفعه، فانها كالمتفردة به لعظيم منفعتها منه وعميم مصلحتها به. يجيء اليها أحوج ما كانت إلى مجيئه، وينصرف احوج ما كانت الى انصرافه. وذلك تقدير العزيز العليم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء الله ذو الفضل العظيم.

«وفيه يقول القاضي الفاضل: «النيل المصري الذي يكسو الفضاء ثوباً فضياء، ويذكي في الأرض ماؤه سراجاً من النور مضيا، ويتدافع تياره دافعاً في صدر الجدب بيد الخصب، وترضع أمهات خلجانه المزارع، فتأتي ابناؤها بالعصف والأب»، وفيه يقول ايضاً: «وأما النيل فقد امتدت اصابعه، وتكسرت بالموج أضالعه، ولا يعرف الان بمصر قاطبة نهر سواه، ولا من يرجى ويخاف الا اياه».

«ونحن نذكر كيف هو، فنقول والله اعلم: ان النيل ينصب عشرة أنهار من جبل القمر المتقدم الذكر. كل خمسة أنهار من شعبة. ثم تتبحر تلك العشرة الأنهار في بحيرتين: كل خمسة أنهار تبحر بحيرة بذاتها. ثم يخرج من البحيرة الشرقية منها بحر لطيف يأخذ شرقاً على جبل قاقولي، ويمتد الى مدن هناك. ثم يصب في البحر الهندي. ثم يخرج من تينك البحيرتين ستة أنهار. من كل بحيرة ثلاثة أنهار. ثم تجتمع تلك الستة الأنهار في بحيرة متشعبة.

«حدثني أقضى القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوي، أن الأمير أبا دبوس ابن أبي العلى أبي دبوس ووالده آخر سلاطين بر العدوة من بني عبد المؤمن

حدثه أنه وصل الى هذه البحيرة، في أيام هربه من بني عبد الحق، ملوك بني مرين القائمين الآن.

«رجعنا إلى ذكر مجتمع تلك الأنهار الستة في تلك البحيرة وبعضهم يسميها: البطيحة. فنقول:

«وفي تلك البطيحة تضريسة جبل يفرق بها الماء نصفين.

«يخرج النصف الواحد من غربي البحيرة. وهذا النصف هو المعروف بنيل السودان. ويستقل نهراً يسمى بحر الدمادم. يأخذ مغرباً ما بين سمغرة وغانة، على جنوبي سمغرة وشمالي غانة. ثم ينعطف هناك منه فرقة ترجع جنوباً الى غانة ثم تمر على مدينة برنسة، ويأخذ تحت جبل في جنوبيها خارج عن خط الاستواء الى رقيلة. ثم يتبحر في بحيرة هناك. وتستمر الفرقة الثانية مغربة الى بلاد مالي والتكرور حتى تنصب في البحر المحيط، شمالي مدينة قلبتو.

«ويخرج النصف الآخر متشاملاً آخذا على الشمال الى شرقي مدينة جيمي. ثم يتشعب منه هناك شعبة تأخذ شرقاً الى مدينة سحرته. ثم ترجع جنوباً. ثم تعطف شرقاً بجنوب الى مدينة سحرته. ثم الى مدينة مركة، منتهياً في العود هناك الى خط الاستواء حيث الطول خمس وستون درجة علم عليها في لوح الرسم سه. ويبحر بحيرة هناك.

«ويستمر عمود النيل من قبالة تلك الشعبة شرقي مدينة شيمى متشاملاً آخذا على اطراف بلاد الحبش. ثم يتشامل على بلاد السودان الى دنقلة، حتى يرمى على الجنادل الى اسوان الى قوص، منحدراً يشق بلاد الصعيد شقاً، حتى يقابل قرية تعرف بدروة سربام. وقد تعرف الآن بدروة الشريف نسبة الى الشريف ابن ثعلب، الثائر في الأيام الظاهرية الركنية بالصعيد لمقامة بها.

«ويتشعب منه في غربيه شعبة تسمى المنهى. تستقل نهرا يصل الى الفيوم. يقال ان يوسف (عليه السلام) احتفره ايام توليه لأمور ملك مصر. وهو يعرف الى الآن ببحر يوسف. وهو نهر لا ينقطع جريانه في وقت من اوقات السنة، بخلاف بقية ما يتشعب بالديار المصرية من خلجان النيل. فيسقي الفيوم عامة، سقياً دائماً لا ينقطع. ثم يبحر فاضل مائة في بحيرة هناك.

«ومن العجب ـ وهو ما رأيته بعيني ـ انه ينقطع ماؤه من فوهته أو ان انقطاع المياه من خلجان الديار المصرية، ويندّى دون فوهته، ثم يكون له بلل دون المكان المندى ثم يجري جرياً ضعيفاً دون مكان البلل، ثم يستقل نهراً جارياً لا ينقطع الا بالسفن. ويتشعب منه انهار، وتنقسم قسماً تعم الفيوم لسقي قراه ومزارعه وبساتينه وعامة اماكنه.

ثم نعود الى ذكر عمود النيل الممتد: فنقول:

«انه من دروة سريام حيث يتشعب المنهى يستمر في بقية الصعيد، يشقه شقا الى مدينة الفسطاط (وهي التي يسميها الآن عامة أهل مصر بمصر) حتى يتعداها. ثم يتفرق فرقتين: تأخذ احداهما على دمياط، والأخرى على رشيد. وعندهما انتهاء النيل، ويصب في البحر الشامي.

«ومن مبدأ هبوطه من اسوان مارا في الصعيد الى ان تصب فرقتاه في البحر الشامي، تقسم منه البحار والأنهار، وتتشعب منه الخلج والمساقي. تجري في زيادته، وتنقطع في نقصه.

«وحدثني الشيخ الثبت سعيد الدكالي (وهو ممن أقام بمالي خمسا وثلاثين سنة، مضطرباً في بلادها، مجتمعاً بأهلها)، قال: «المستفيض ببلاد السودان ان النيل في أصله ينحدر من جبال سود تبان على بعد كأن عليها الغمائم. ثم يتفرق نهرين: يصب احدهما في البحر المحيط الى جهة بحر الظلمة الجنوبي، والآخر يصل الى مصر حتى يصب في البحر الشامي».

«قال الشيخ سعيد الدُكالي «ولقد توغلت في أسفاري في الجنوب مع النيل. فرأيته متفرقاً على سبعة أنهر، تدخل في صحراء منقطعة، ثم تجتمع تلك الأنهر السبعة، وتخرج من تلك الصحراء نهراً واحداً مجتمعاً. كلا الرؤيتين في بلاد السودان. ولم أره لما اجتمع بالصحراء لأننا لم ندخلها، إذ لم يكن بنا حاجة إلى الدخول إليها».

«قلت: والأقوال في أول مجرى النيل كثيرة. ذكر فيها المسعودي وغيره ما لا فائدة فيه.

«والشائع على ألسنة الناس أن احدا ما وقف على أوله بالمشاهدة. وجعل كل واحد منهم سبباً لعدم الوقوف على حقيقة أوله.» (٢٦)

نهر اشبيلية

«فمن ذلك، مما هو بجزيرة الأندلس نهر اشبيلية، ينصب من الجبل الفاصل بينها وبين قرطبة، وينصب في البحر الشامي. وهو من أحسن الأنهار وأجلها، محفوف بالبساتين والدور والقصور. ومضت فيه ـ ايام ملك المسلمين لها ـ اوقات مسرة ولهو. وحكى الفتح بن خاقان، قال: «ركب عبد الجليل بن وهبون، وأبو الحسن غلام البكري من اشبيلية في ليلة أظلم من قلب الكافر، وأشد سواداً من طرف الظبي النافر، ومعهما غلام وضيء قد أطلع وجهه البدر ليلة تمامه، على غصن بان من قوامه، وبين أيديهم شمعتان قد أزرتا بنجوم السماء، ومزقتا رداء الظلماء، وموهتا بذهب نورهما لجين الماء. فقال عبد الجليل ارتجالا:

كأنما الشمعتان اذ سمتا ... خدا غلام محسن الغيد

وفي حشا النهر من شعاعهما ... طريق نار الهوى الى كبدي

وقال غلام البكري:

أحـــبب بمنظر ليلة ليـــلاء تجنى بهـا اللذات فـوق المـاء
في زورق يزهى بغـرة اغـيـد يخـتـال مـثل البـانة الغـيناء
قـرنت يداه الشـمعتين وبجهه كـالبـدر بين النسـر والجـوزاء
والتـاج فوق المـاء ضوء منهمـا كالبـرق يخفق في غمـام سمـاء

«قالت: ومن هذا النهر أخذت اشبيلية، فقال بعضهم «لَسَبَ اشبيلية عقربها، وساورها أرقمها». يريد بالعقرب شرفها المطل، وهو عقربي الشكل، وبالأرقم نهرها. قالو: وهو من العجائب.

«وحكى ابن ظافر، قال: «ركب [الاستاذ] أبو محمد بن صارة [مع أصحاب له] في نهر اشبيلية في عشية سال أصيلها على لجين الماء عقيانا، وطارت زواريقها في سماء اللهو عـقبـانا، وأبدى نسيـمهـا من الامـواج والدارات سـرراً وأعكاناً، في زورق يجـول جولان الطرف، ويسود اسوداد الطرف. فقال بديها:

تـأمل حـــالنـا والجـــو طلق مـحـيـاه، وقـد طفل المسـاء
وقـد جـالت بنا عـذراء حبلى تجـاذب مـــرطهـــا ريح رخـاء
بنهـــر كـــالسـجنجل كـوثري تعـبس وجـهـهـا فيـه السـمـاء

«ولما وقف عليها ابن خفاجة، استحسنها واستظرفها واستطابها. فقال يعارضها، على وزنها ورويها وطريقها:

ألا يا حـبـذا ضـحك الحـمـيـا بحـانتـهـا، وقـد عـبس المسـاء
وأدهم من جـيـاد المـاء نهـد تنـازع حـــبلـة ريح رخـــاء
اذا بدت الكواكب فـيـه غـرقى رأيت الأرض تجـدبهـا السـمـاء

نهر سرقسطة

«ونهر سرقسطة، وهو نهر جليل كبير متسع الجوانب.

«وذكر ابن خاقان ان المستعين بن هود ركب هذا النهر يوماً لتفقد بعض معاقله، المنتظمة بجيد ساحله. وهو نهر غزر ماؤه وراق، وأزرى على نيل مصر ودجلة العراق. قد اكتنفته البساتين من جانبيه، وألقت ظلالها عليه، فما تكاد عين الشمس تنظر اليه. هذا على اتساع عرضه، وبعد سطح مائه وأرضه. وقد توسط زورقه زوارق حاشيته توسط البدر للهاله، وأحاطت به احاطة الطفاوة بالغزالة. وقد أعدوا من مكايد الصيد ما استخرج ذخائر الماء واخاف حتى حوت السماء. وأهلة الهالات طالعة من الموج في سحاب، وقانصة من بنات الماء كل طائرة كالشهاب. فلا ترى الا صيوداً كصيد الصوارم، وقدود اللهاذم، ومعاصم الأبكار النواعم. فقال الوزير أبو الفضل بن حسداي، والطرب قد استهواه، وبديع ذلك المرأى قد استرق هواه، وارتجل:

لله يوم أنيق واضح الغـــرر مفضض مذهب الآصال والبكر

كأنما الدهر لما ساء اعتبنا ... فيه بعتبى وأبدى صفح معتذر
نسير في زورق حف السفين به ... من جانبيه بمنظوم ومنتثر
مد الشراع به نشرا على ملك ... بذ الاوائل في أيامه الاخر
هو الامام الهمام المستعين حوى ... علياء مؤتمن في هدي مقتدر
تحوى السفينة منه آية عجبا ... بحر تجمع حتى صار في نهر
تثار من قعره النينان مصعدة ... صيدا كما ظفر الغواص بالدرر
وللندامى به عب ومرتشف ... كالراح تعذب في ولد وفي صدر
والشرب في ود مولى خلقه زهر ... يذكو، وغرته أبهى من القمر»[٢٧]

ديارات

«**دير قوطا** ـ وهو بالبردان، على شاطىء دجلة.

«قال الشابشتي: وبينه وبين بغداد بساتين متصلة، ومتنزهات منتظمة. كل ذلك شجر وكروم كثيرة الطرّاق. قال: وهذا الدير يجمع اموالاً كثيرة: من عمارته وكثرة فواكهه وما يطلبه أهل البطالة فيه. ولعبد الله بن العباس الربيعي فيه:

يا دير قوطا، لقد هيجت لي طربا ... أزاح عن قلبي الأحزان والكربا
بشادن ما رأت عيني له شبها ... في الناس، لا عجما منهم ولا عربا
والله، لو سامني نفس سمحت بها ... وما بخلت عليه بالذي طلبا

وأنشد الشابشتي له فيه قوله:

يا حبذا يومي بالداليه ... نشربها قفصية صافية
مع كل قرم متلف ماله ... لم تبق في الدنيا له باقية
فخذ من الدنيا ولذاتها، ... فانما نحن بها عارية!»[٢٨]

«**دير الرصافة** ـ هو بالشام، قريب رصافة هشام بن عبد الملك. وموضعه حسن. وفيه قيل:

نراك جزعت يا دير الرصافة ... غداة تحولت عنك الخلافة
فلا تجزع وتذري الدمع حزنا، ... فان لكل مجتمعين آفة

وحكي أن أبا نواس مر به، فبات فيه. فلما رحل عنه، قال:

ليس الا دير الرصافة دير ... فيه ما تشتهي النفوس وتهوى
بته ليلة فقضيت اوطا ... را ويوما ملأت قطريه لهوا

«وقد ذكره ابو الفرج وقال: ان ابن حمدون حكى أن المتوكل لما اتى دمشق، ركب يوماً الى رصافة هشام، يزور دوره وقصوره. ثم خرج فأتى الدير وهو من بناء الروم، حسن البناء، بين مزارع وانهار. فبينا هو يدور، اذ بصر برقعة قد الصقت في صدره.

فأمر بها ان تقلع ويؤتى بها. فقلعت واذا فيها:

أيا منزلا بالدير أصبح خالياً! تلاعب فيه شمأل ودبور
كأنك لم تسكنك بيض أوانس ولم تتبختر في فنائك حور
وأبناء أملاك عباشم سادة أصاغرهم عند الأنام كبير
اذا لبسوا أدراعهم فضراغم وان لبسوا تيجانهم فبدور
ليالي هشام بالرصافة قاطن وفيك ابنه يا دير وهو أمير
اذ العيش غض والخلافة لدنة وأنت طرير والزمان غرير
وروضك فينان يذوب نضارة وعيش بني مروان فيك نضير
رويدك ان اليوم يتبعه غد وان صروف الدائرات تدور

«فلما قرأها المتوكل، ارتاع وتطير. وقال أعوذ بالله من شر أقداره! ثم عاد بالديراني وقال: من كتب هذا؟ قال: والله لا أدري. لأني منذ نزل أمير المؤمنين هنا، لا أملك من أمور هذا الدير شيئاً. يدخله الجند والشاكرية. وغاية قدرتي أني متوار في قلايتي. فهم بضرب عنقه واخراب الدير. فلم يزل به الفتح بن خاقان حتى كف. ثم ظهر أن الذي كتبها رجل من ولد روح بن زنباع، صاحب عبد الملك، وأمه مولاة لهشام.»[٢٩]

«**دير السيق** ـ قبلي البيت المقدس. على نشز عال، مشرف على الغور، غور أريحا. يطل على تلك البسائط الخضر ومجرى الشريعة. وبه رهبان ظراف اكياس، ولا يأتيهم الا قاصد لهم او مار في مزارع الغور. تحتهم وفوقهم الطريق الآخذة الى الكثيب الأحمر. وقبر موسى عليه السلام في القبة التي بناها عليه الملك الظاهر بيبرس.

وفي هذا الدير ومشترفه، واطلال قلاليه وغرفه، قلت:

ارى حسن دير السيق يزداد كلما نظرت اليه والفضاء به نضر
بنوه على نجد على الغور مشرف كتخت مليك تحته بسط خضر
واشرق في سود الغمام كأنما تشقق ليلا عن جلابيبه الفجر
وقام على طود علي كأنما مصابيحه تحت الدجى الأنجم الزهر
وزفت اليه الشمس من جنب خدرها وناغاه جنح الليل في افقه البدر
والقت اليه الريح فضل عنانها واحنى عليها لا تبل له عذر
ولو كان كالنسرين هان ارتقاؤه ولكنه قد حظ من دونه النسر
علا نهر ريحا والمجرة فوقه فمن فوقه نهر ومن تحته نهر.»[٣٠]

طرابلس

«قال ابن فضل الله: ولها نهر يحكم دورها وطبقاتها بحيث يجري الماء في الاماكن العالية من الدور التي يرقى اليها بالدرج. وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذات اشجار وكروم ومروج واغنام وبقر. ويجتمع فيها الجوز واللوز وقصب السكر والثلج. ويعمل بها السكر. وتأتيها وفود البحر وترسي بها مراكبهم وهي موضع زرع وضرع. وهي الان مدينة كثيرة الرخام بها مارستانان ومساجد ومدارس وزوايا وحمامات حسان موصوفة واسواق جليلة وجميع بنيانها بالحجر والكلس مبيضة ظاهراً وباطناً. بها غوطة ويحوط بغوطتها مواضع من مزدرعاتها»[٣١].

مختارات من صبح الأعشى

تونس

«قال البكري: ودور هذه البحيرة نحو أربعة وعشرين ميلاً. قال في «العزيزي»: وهي مدينة جليلة، لها مياه ضعيفة جارية يزرع عليها، وفيها الخصب وكثرة الغلات وهي في وطأة من الأرض في سفح جبل يعرف بأم عمرو يستدير بها خندق وسور حصين، ولها ثلاثة ارباض كبيرة من جهاتها، وأرضها سبخة، وجميع بنائها بالحجر والآجر، وابنيتها مسقفة بالأخشاب، ودور اكابرها مفروشة بالرخام. وذم في «الروض المعطار» بيوتها فقال هي كما يقال: ظاهرها رخام، وباطنها سخام. وشرب اهلها من الأبار، وبيوتها صهاريج يجمع فيها ماء المطر لغسل القماش ونحوه، وبها الحمّامات والأسواق الجليلة، وبها ثلاث مدارس وهي: الشماعية والفرضية، ومدرسة الهواء، وبها البساتين البعيدة والقريبة منها، والبساتين محيطة ببحيرتها المقدم ذكرها من جنوبيها.

«قال في «مسالك الأبصار»: ومذ خلا الأندلس من اهله، واووا الى جناح ملوكها، مصروا اقليمها، ونوّعوا بها الغراس، فكثرت مستنزهاتها، وامتد بسيط بساتينها. قال: وبها يعمل القماش الافريقي: وهو ثياب رفاع من القطن والكتان معاً ومن الكتان وحده، وهو امتع من النّصافي البغدادي واحسن، ومنه جلّ كساوى اهل المغرب. وللسلطان بها قلعة جليلة يسكنها، يعبرون عنها بالقصبة كما هو مصطلح المغاربة في تسمية القلعة بالقصبة، وللسلطان بها بستانان: احدهما ملاصق ارباض البلد يسمى براس الطابية، والثاني بعيد من البساتين يسمى بأبي فهر، بينه وبين البلد نحو ثلاثة أميال، والماء منساق اليهما من ساقية بجبل يعرف بجبل زغوان»[٣٢].

سجلماسة

«وهي مدينة عظيمة اسلامية، وبينها وبين البحر الرومي خمس عشرة مرحلة، وليس قبليّها ولا غربيها عمران، وبينها وبين غانة من بلاد السودان مسيرة شهرين في رمال وجبال قليلة المياه، لا يدخلها الا الابل المصبرة على العطش اختطها يزيد بن الأسود من موالي العرب، وقيل: مدرار بن عبد الله. وكان من أهل الحديث، يقال انه

لقي عكرمة مولى ابن عباس بافريقية وسمع منه. وكان صاحب ماشية، وكان ينتجع موضع سجلماسة بالصحراء ليرعى به ماشيته، فكان يجتمع اليه أهل تلك الصحراء من مكناسة والبربر، وكانوا يدينون بدين الصفرية من الخوارج، فاجتمع عليه جماعة منهم فلما بلغوا أربعين رجلاً قدموا عليهم يزيد بن الأسود وخلعوا طاعة الخلفاء، واختطوا هذه المدينة سنة أربعين ومائة من الهجرة. ولها اثنا عشر باباً، وهي كثيرة العمارة، كثيرة البساتين، رائقة البقاع، ذات قصور ومنازل رفيعة وعمارات متصلة، على نهر كثير الماء يأتي من جهة المشرق من الصحراء، يزيد في الصيف كزيادة النيل، ويزرع على مائه كما يزرع على ماء النيل، والزرع عليه كثير الاصابة، والمطر عندهم قليل: فإذا كانت السنة كثيرة الامطار، نبت لهم ما حصدوه في العام السابق من غير بذر، وربما حصدوه عند تناهيه وتركوا اصوله فتنبت ثانياً. ويقال: يزرع بها عاماً ويحصد ثلاثة أعوام، وذلك أن أرضها مشقة، وهي بلدة شديدة الحرّ فإذا يبس الزرع تناثر عند الحصاد ودخل في الشقوق، فإذا كان العام الثاني وعلاه ماء النهر وخرج عنه حرثوه بلا بذر فينبت ما في الشقوق، ويبقى كذلك ثلاث سنين» (٣٣).

مدينة مرّاكش

«بفتح الميم وتشديد الراء المهملة وفتحها وألف ساكنة ثم كاف ثم شين معجمة. وهي مدينة واقعة في أول الاقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد: حيث الطول احدى عشرة درجة، والعرض تسع وعشرون درجة. بناها أمير المسلمين «يوسف ابن تاشفين» ملك المرابطين في أرض صحراوية، وجلب اليها المياه. قال ابن سعيد: وأول ما بنى بها القصر المعروف (بقصر الحجر) ثم بنى الناس حوله، ثم زادها يعقوب بن عبد المؤمن، وكبّرها ومصّرها، وفخّمها وضخّمها، وجلب اليها المياه والغراس. قال في «تقويم البلدان»: ودورها سبعة أميال، ولها سبعة عشر بابا، قال في «الروض المعطار»: وبنى سورها علي بن يوسف بن تاشفين في سنة ست وعشرين وخمسمائة، وقيل سنة أربع عشرة وخمسمائة. قال: وطولها مائة وعشرون ميلاً، وعرضها قريب من ذلك، وهي في وطأة من الأرض ليس حولها جبال الا جبل صغير منه قطع الحجر الذي بنى منه علي بن يوسف بن تاشفين قصره، عامة بنائها بالطين والطوب.

«قال ابن سعيد: وهي مما سكنت بها وعرفتها ظاهراً وباطناً، ولا أرى عبارة تفي بما تحتوي عليه، ويكفي أن كل قصر من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلات والمياه، وغير ذلك حتى ان الرئيس منهم يغلق بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج إليه، ولا يخرج من بابه الى خارج داره لحاجة يحتاجها، ولا يشتري شيئاً من السوق لمأكل، ولا يقرىء أولاده في مكتب، ويخرج من بابه راكباً فلا تقع عليه

العين راجلاً. قال: ولا أدري كيف أصل الى غاية من الوصف اصف بها ترتيب هذه المدينة المحدثة، فانها من عجائب همّات السلاطين، ذات اسوار ضخمة وابواب عالية.

«وبظاهرها مدينة اختطها المنصور «يعقوب بن عبد المؤمن» له ولخواصه تعرف بتا مرّاكش، وبها قصر الخلافة الذي بناه به دور عظيمة، وبها بستان يعرف بالبحيرة طوله اثنا عشر ميلاً، به بركة عظيمة لم يعمل مثلها قال العقيلي: طولها ثلثمائة وثمانون باعا، على جانبها الواحد اربعمائة شجرة نارنج، بين كل اثنتين منها ليمونة أو ريحانة. وهي أكثر بلاد الغرب بساتين، وشجرها أكثر منها، وبساتينها تسقى بالبئار وبئارها قريبة الرشاء على نحو قامتين من وجه الأرض، وهي كثيرة الزرع والضرع، وبها دار الضيافة المعروفة بدار الكرامة. وفيها يقول محمد بن محمد البربريّ من أبيات يمدحهم ويصفها:

خير قوم دعوا الى خير دار، هي للملك نضرة وكمامه
عالم السبعة الأقاليم فيها وهم في فنائها كالقلامه

«وبمراكش جامع جليل يعرف بالكتبيين، طوله مائة وعشر أذرع، وعلى بابه ساعات مرتفعة في الهواء خمسين ذراعاً، كان يرمي فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زنتها مائة درهم، تتحرك لنزولها اجراس تسمع على بعد، تسمى عندهم بالبحّانة. قال في «تقويم البلدان»: الا ان الناس اكثروا فيها البساتين فكثر وخمها. قال في «الروض المعطار»: وقد هجاها أبو القاسم بن أبي عبد الله محمد بن ايوب بن نوح الغافقي من اهل بلنسية بأبيات أبلغ في ذمها فقال:

مرّاكش ان سألت عنها، فانها في البلاد عار!
هواؤها في الشتاء ثلج، وحرها في المصيف نار!
وكل ما ثم وهو خير من أهلها عقرب وفار!
فان أكن قد مكثت فيها، فان مكثي بها اضطرار!» (٢٤)

المقصد الثاني (بلاد الغرب الأقصى)

(في ذكر زروعها، وحبوبها، وفواكهها، وبقولها، ورياحينها، ومواشيها، ومعاملاتها، وصفات أهلها. وفيه خمس جمل)

الجملة الأولى

(في ذكر زروعها، وحبوبها، وفواكهها، وبقولها، ورياحينها)

«أما زرعها فعلى المطر كما تقدم في افريقية.

«وأما حبوبها، ففيها من أنواع الحبوب: القمح، والشعير، والفول، والحمص،

والعدس، والدّخن، والسلت وغير ذلك. أما الأرز فانه عندهم قليل، بعضه يزرع في بعض الأماكن من بر العدوة، وأكثره مجلوب اليهم من بلاد الفرنج. على انهم لا نهمة لهم في أكله ولا عناية به. وبها السمسم على قلة، ولا يعتصر منه بالمغرب شيرج لاستغنائهم عنه بالزيت حتى مزورات الضعفاء وكذلك يعملون الحلوى بالعسل والزيت، وانما يستعمل الشيرج عندهم في الأمور الطبية.

«وأما فواكهها فبها أنواع الفواكه المستطابة اللذيذة المختلفة الأنواع: بين النخل، والعنب، والتين، والرمان، والزيتون، والسفرجل، والتفاح على أصناف، وكذلك الكمثرى، وتسمى عندهم الانجاص كما بدمشق، وبها المشمش والتين، والبرقوق، والقراصيا، والخوخ، وغالب ذلك على عدة أنواع، والتوت على قلة، والجوز، واللوز. ولا يوجد بها الفستق والبندق الا مجلوباً. وبها الاترج، والليمون، والليم، والنارنج، والزنبوع، وهو المسمى بمصر والشام الكبّاد. وبها البطيخ الأصفر والأخضر واسمه عندهم الدلاع كما في سائر بلاد المغرب على قلة، والموجود منه غير مستطاب. وبها الخيار، والقثاء، واللفت، والباذنجان، والقرع، والجزر، واللوبيا، والكرنب، والشمار، والصعتر وسائر البقول. والموز موجود بها في بعض المواضع نادراً، والقلقاس لا يزرع عندهم الا للتفرج على عروقه لا لأن يؤكل، وبها قصب السكر بجزائر بني مزغنّان وبسلا كثير، ويعصر ثم يعمل منه القند ومن القند السكر على أنواع لا سيما بمراكش، فانه يقال ان بها أربعين معصرة للسكر، وان حمل حمار من القصب يساوي درهماً من دراهمهم: وهو ثلث درهم من الدراهم المصرية، ويعمل منه المكرر الفائق، ومع ذلك فليس لهم به اهتمام لاكتفائهم عنه بعسل النحل مع كثرته عندهم، وميلهم اليه اكثر من السكر، حتى يقال انه لا يستعمل السكر عندهم الا الغرباء أو المرضى.

«وأما رياحينها، فبها الورد، والبنفسج، والياسمين، والآس، والنرجس، والسوسن، والبهار، وغير ذلك.» (٣٥)

الهوامش

(١) الادفوي، كمال الدين ابو الفضل: «الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد»، القاهرة، المطبعة الجمالية، ١٩٢٤، ص ٤٦.

(٢) النويري، شهاب الدين احمد «نهاية الارب في فنون العرب»، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٣، ج١ ص ٢ ـ ٢٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين: «الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة»، حيدر اباد، مجلس دائرة المعارف ١٩٢٩، ج١ ص ٣٣١ ـ ٣٣٣.

(٤) العمري، احمد بن يحيى ابن فضل الله: «مسالك الابصار في ممالك الامصار»، القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٢٤، ص ٢ ـ ٦.

(٥) القلقشندي، ابو العباس احمد: «صبح الاعشى». القاهرة، المطبعة الأميرية ١٩١٣، ج١، ص ٧.

(٦) نفس المكان، ج١، ص ٨.
(٧) نفس المكان، ج١، ص ٨.
(٨) نفس المكان، ج١٤، ص ١٣ من المقدمة.
(٩) القلقشندي، ج٢، ص ٣٣٠.
(١٠) نفس المكان، ج٣، ص ٢٢٧.
(١١) نفس المكان، ج٣، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(١٢) نفس المكان، ج٣، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
(١٣) نفس المكان، ج٣، ص ٢٧٩.
(١٤) نفس المكان، ج١٤، ص ٣٧١.
(١٥) نفس المكان، ج١٤، ص ٣٩٠.
(١٦) نفس المكان، ج١٤، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.
(١٧) نفس المكان، ج١٤، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.
(١٨) نفس المكان، ج١٤، ص ٤٠٣.
(١٩) النويري، ج١ ص ٢٠٩ ـ ٢١٢.
(٢٠) نفس المكان، ج١ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.
(٢١) نفس المكان، ج١ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣.
(٢٢) نفس المكان، ج١ ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤.
(٢٣) نفس المكان، ج١ ص ٣٨٤.
(٢٤) نفس المكان، ج١١ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.
(٢٥) نفس المكان، ج١١ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢.
(٢٦) العمري، «مسالك الابصار» ج١ ص ٦٧ ـ ٧١.
(٢٧) نفس المكان، ص ٧٤ ـ ٧٧.
(٢٨) نفس المكان، ص ٢٨٠.
(٢٩) نفس المكان، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤.
(٣٠) نفس المكان، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.
(٣١) العمري عن ابن الشحنة، «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب»، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٩، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.
(٣٢) القلقشندي، ج٥، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.
(٣٣) نفس المكان، ج٥، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٣٤) نفس المكان، ج٥، ص ١٦١ ـ ١٦٣.
(٣٥) نفس المكان، ج٥، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

٦ ـ تونس وجغرافيّو العرب

إذا فحصنا مؤلفات الجغرافيين العرب لوجدنا انهم بعد ان يتناولوا الارض بشكل عام، يأخذون بالتحدث عن البحار والانهار وتشابه الأقاليم وما إلى ذلك. ثم ينتقلون إلى الأجزاء نفسها فيعالجونها قطراً قطرًا أو مملكة مملكة. فهذا المقدسي مثلاً يبدأ حديثه عن المغرب بقوله «هذا اقليم بهي، كبير سري، كثير المدن والقرى، عجيب الخصائص والرخا. به ثغور جليلة وحصون كثيرة ورياض نزهة» [١]. ويختم كلامه عنه بقوله «هو اقليم جليل، كبير طويل، يوجد فيه أكثر ما يوجد في سائر الأقاليم مع الرخص، كثير النخيل والزيتون، به مواضع الحر ومعادن البرد... جيد الهواء والماء. فأما الحر فإنك تجده من مصر إلى السويس الأقصى، إلا في مواضع فإن بها جبالاً وبلداناً باردة» [٢].

والمغرب في عرف الجغرافيين العرب هو المنطقة الممتدة من مصر إلى المحيط الاطلسي، وكثيراً ما يدخلون الاندلس فيه. وسنقتصر في هذا الفصل على ما كتبه ابن حوقل في كتابه «صورة الارض» عن مدن القطر التونسي. يقول ابن حوقل:

«وقابس مدينة منها على ست مراحل إلى جهة القيروان وجادة الطريق، ذات مياه جارية، واشجار متهدلة وفواكه رخيصة. وبها من البربر الكثير ولهم من الزروع والضياع ما ليس مثله لمن جاورهم، إلى زيتون وزيت وغلات. وعليها سور يحيط به خندق. ولها أسواق في ربضها وجهاز من الصوف كثير. ويعمل بها الحرير الكثير الغزير، وبها جلود تدبغ بالقرظ وتعم أكثر المغرب فتأتي من طيب الرائحة ونعمة اللمس بمثل حال الاديم الجرشي. وبها صدقات وزكوات وضرائب وجوال على اليهود، وسائمة كثيرة. ولها عامل بنفسه، وهي خصبة في أكثر أوقاتها... وفي باديتهم شر شمر... وذلك انهم لا يخلون من الشراية والقول بالوعد والوعيد مع الغيلة لبني السبيل والاعتراض على أموالهم في الكثير والقليل. والويل لمن نام بينهم، والحرب على من جاورهم واستجار بهم، مخالفين أكثر أيامهم لسلطانهم، مواربين في الحقوق عليهم. ولم تزل هذه العادة بهم إلى أن سار منهم الكثير إلى قابس فأحرقوا ربضها وجاصروها واستباحوا أموال تجارها وأهل الذمة منها وأمكن الله تعالى منهم فأهلك جميع من رصدها ثم سار عليهم زعيم صنهاجة فجعل عشرة منهم في كساء.

«ومدينة سفاقس مدينة جل غلاتها الزيتون والزيت، وبها منه ما ليس بغيرها

مثله. وكان سعره عندهم فيما سلف من الزمان بحال غيّرته الفتن. في وقتنا هذا ربما بلغ من ستين قفيزا بدينار إلى مائة قفيز بدينار على حسب السنة وريعها. وزيت مصر في وقتنا هذا فمن ناحيتها يجلب لقلته بالشام. وهي ناحية على نحر البحر ولها مرسى ميت الماء. وعليها سور من حجارة وأبواب حديد منيعة، وفيها محارس مبنية للرباط بها. وأسواقها عامرة وهي قليلة الكروم وفاكهتها من قابس تسد حاجة أهلها وشرب أهلها من مواجن بها ومواجنها صالحة الطعوم حافظة لما استودعت. ولهم من صيود السمك ما يكثر ويعظم تصاد بحظائر قد زربت وعملت في الماء فتؤخذ بأيسر سعي. وبناؤها بالحجارة والجير وبينها وبين المهدية مرحلتان ولها عامل عليها للسلطان بذاته» (٣).

«والمهدية مدينة صغيرة استحدثها المهدي القائم بالمغرب وسماها بهذا الاسم وهي في نحر البحر وتحول إليها [من رقادة القيروان] في سنة ثمان وثلثمائة، وهي من القيروان على مرحلتين. فرضة لما والاها من البلاد كثيرة التجارة، حسنة السور والعمارة منيعة، ولها سور من حجارة وله بابان ليس لهما فيما رأيته من الارض شبيه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرافقة، وعلى مثالها عملاً ومثل شكلهما اتخذا. كثيرة القصور نظيفة المنازل والدور حسنة الحمامات والخانات خصبة رفهة الفواكه والغلات طيبة الداخل نزهة الخارج بهية المنظر. أدركتها سنة ست وثلثين وملوكها كماة وجيوشها حماة وتجارها طراة. وقد اختلت أحوالها والتاثت أعمالها وانتقل عنها رجالها بانتقال ملوكها عنها وبعدهم منها. وكان أول نحس أظللها أبو يزيد مخلد بن كيداد وخروجه بالمغرب على أهلها. وانثالت المناحس عليها إلى الآن وقد بقي بها بعض رمق» (٤).

«وأما سوسة فمدينة بين الجزيرة والمهدية طيبة رفهة خصبة على نحر البحر، ولها سور حصين، وماؤها معين، وبها مواجن قليلة، وأعمال صالحة نبيلة، وفي أهلها دهقنة والغالب عليهم السلامة، وهي إحدى فرض البحر. ولها أسواق حسنة وفنادق وحمامات طيبة. وهي من القيروان على مرحلة. وكانت لها ضياع جمة ووجوه من الجباية غزيرة وغلات واسعة ورباطات كثيرة. وبين المهدية وسوسة رباط يسكنه امة من الناس على مر الأيام والساعات يعرف بالمنستير ويقصده أهل افريقية لوقت من السنة فيقيمون به أياماً معلومة ويحضر بفاخر الأطعمة ونفيس المآكل. ويقيم جمعهم به مدة ثم يتفرقون إلى اوطانهم وهو على نحر البحر» (٥).

«مدينة تونس وهي قديمة ازلية ذات مياه جارية قليلة والانتفاع بها كثير والعائدة إلى اربابها صالحة. وهي خصبة في ذاتها متسع بغلاتها ويعمل بها غضار حسن الصباغ وخزف حسن كالعراقي المجلوب. وكان اسمها في قديم الزمان ترشيش فلما أحدث فيها المسلمون البنيان واستحدثوا البساتين والحيطان سميت تونس. وهي مصاقبة

لقرطاجنة المشهور أمرها بالطيب وكثرة الفواكه وحسنها وجودة الثمار وصحة الهواء واتساع الغلات. ومن غلاتها القطن ويحمل إلى القيروان فيظهر الانتفاع به وكذلك القنب والكرويا والعُصفُر والعسل والسمن والحبوب والزيت، وكثير من الماشية مختصة بها» (٦).

«وبنزرت مدينة على البحر خصبة اصغر من سوسة في ذاتها وعامل المعونة ينزل من أعمالها في بنزرت فيها ثمار كثيرة، وأنهار سطفورة واسعة غزيرة والارتفاع بها والجدي على السلطان قليل. والحيتان بها وبتونس ما يزيد على الكثرة ولا يدانيه ما باطرابلس من الرخص والسعة. (ولها واد عجيب يخرج فيه في كل شهر نوع من السمك. واذا أهل الهلال لا تجد من ذلك النوع واحدة ويظهر غيره). وأهل هذا الاقليم جلد وناسه ذوو بأس في البر والبحر صبر على الشقاء والكد مع قلة الخور والضجر، وان كان بلدهم في هذا الوقت قد خلا وجلا» (٧).

«وطبرقة قرية وهي عدوة لأهل الاندلس إليها ينتهون ومنها إلى الاندلس يركبون. (وهي قرية وبئة وبها عقارب قاتلة نحو عقارب عسكر مكرم في وحاء القتل وسرعته) ومضاء الميتة وقربها. ومن أراد طبرقة من تونس على الجادّة اجتاز على مدينة باجه وهي مدينة قديمة أزلية كثيرة القمح والشعير ولها من الغلات والزروع ما ليس بجميع المغرب، كهو عندي كثرة وجوده ونقاء إلى جوهر في نفس حبوبها. وهي صحيحة الهواء كثيرة الرخاء واسعة الفضاء غزيرة الدخل على السلطان وافرة الارباح على تجارها والمزارعين بها وطبرقة المذكورة مع صغر مقدارها وتفه منزلتها فإنما اشتهرت لكثرة ورود المراكب بالاندلسيين والتجار عليها ونزولهم فيها. وتعشيرهم كان في سالف الزمان بها وهي تجاه أوائل الاندلس من المكان الذي هي به وتحاذي أيضاً بعض بلاد افرنجه» (٨).

الهوامش

(١) المقدسي، ص ٢١٥.
(٢) نفس المكان، ص ٢٣٦.
(٣) نفس المكان، ص ٧٠ ـ ٧١.
(٤) نفس المكان، ص ٧١.
(٥) نفس المكان، ص ٧٢ ـ ٧٣.
(٦) نفس المكان، ص ٧٣ ـ ٧٤.
(٧) نفس المكان، ص ٧٤.
(٨) نفس المكان، ص ٧٤ ـ ٧٥.

٧ ـ السند وجغرافيو العرب

في القرن العاشر للميلاد (الرابع للهجرة) بلغت العناية بالجغرافية والاقاليم درجة كبيرة بين المواضيع التي طرقها المؤلفون العرب. وقد نبغ في هذا العصر عدد من الجغرافيين يمكن اعتبارهم اعلاماً في بحوثهم ودراساتهم. ومن حسن الحظ ان الكثير من آثارهم قد وصل إلينا. ومن الاسماء اللامعة في تلك الفترة، ابن رستة (الاعلاق النفيسة) والاصطخري (مسالك الممالك) وابن حوقل (كتاب صورة الارض) والمقدسي (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم). يضاف إلى هؤلاء الجغرافيين بالمعنى الدقيق رحالون وعلماء من نوع آخر. فمن بين هؤلاء بزرك بن شهريار (كتاب عجائب الهند). هذه بعض الاسماء اللامعة التي ترجع إلى ذلك القرن فقط.

وبعد، فما الذي يقدمه لنا هؤلاء الناس عن بلاد السند وهي القسم الأكبر من الباكستان الغربية؟ ولنذكر قبل كل شيء ان السند، في الوقت الذي نتحدث عنه، أي في القرن الرابع للهجرة، كانت أقصى قطر في المملكة الاسلامية شرقاً. هذا ما يؤكد عليه كل الذين كتبوا عن السند في ذلك الوقت. ولنذكر ثانية انه لم يكن بين هؤلاء الجغرافيين ما يمكن أن يسموا اليوم علماء اجتماع أو علماء في السلائل البشرية. لذلك فالملاحظات حول هذه الأمور قليلة. ومع ذلك ففي اخبارهم أمور كثيرة تمت إلى الاقتصاد والاجتماع والتاريخ والسياسة بصلة كبيرة، وتزود الباحث الصبور بأخبار أقل ما يقال عنها انها نافعة، إذ يمكن الافادة منها في اتمام الصورة التي يتوخاها الدارسون.

والذي ننوي أن نفعله في هذا الفصل هو أن نخرج من آثار هؤلاء الجغرافيين صورة لبحر الهند، أو كما نسميه اليوم المحيط الهندي، وصورة أخرى لبلاد السند نفسها. ونود أن نشير إلى أن بعض الروايات كانت لا تخلو من أخطاء، لكن المهم هو أن نرى مقدار ما أدرك هؤلاء الناس وعرفوا، وقد عاشوا قبل أيامنا بألف سنة!

أما بحر الهند وما فيه فنعتمد في رسم صورته على ابن رسته والمسعودي وبزرك. فالأول عالج البحر علماً ووصفاً، والثاني سافر فيه، والثالث جمع أخبار ربابنته أو ناخوذاه كما يسمي الفرس الربان. وبعد ان يعدد ابن رسته البحار العظام ومنها: بحر الهند وبحر الروم (البحر الابيض المتوسط) وبحر نبطس (البحر الاسود)، ينتقل إلى التخصيص فيقول: «فأما البحر الهندي فإنه يمد طوله من المغرب إلى

المشرق وذلك من أقصى الحبش أو أقصى الهند يكون ذلك مقدار ثمانية آلاف ميل في الفين وسبع مائة ميل، ويجاوز جزيرة استواء الليل والنهار بألف وتسع مائة ميل. يخرج منه خليج عند أرض الحبش يمر إلى ناحية البربر يسمى الخليج البربري يكون طوله مقدار خمس مائة ميل وعرض طرفه مائة ميل. ويخرج منه خليج آخر نحو أيلة طوله ألف وأربع مائة ميل وعرضه في الاصل سبع مائة ميل ومنتهاه، اعني طرفه الأدنى الذي يسمى البحر الأحمر مقدار مائتي ميل. ويخرج منه خليج إلى ناحية فارس يسمى الخليج الفارسي طوله ألف وأربع مائة ميل وعرضه في الاصل خمس مائة ميل وطوله خمسون ومائة ميل. وبين هذين الخليجين، خليج ايلة وخليج فارس، ارض الحجاز واليمن وسائر بلاد العرب ألف وخمس مائة ميل. ويخرج منه خليج آخر إلى أقصى الهند عند تمامه يسمى الخليج الأخضر وطوله الف وخمس مائة ميل. وفي البحر الهندي هذا من الجزائر العامرة وغير العامرة ألف وثلاثمائة وسبعون جزيرة منها جزيرة ضخمة في أقصى الهند مقابل أرض الهند من ناحية أرض المشرق يسمى طبروباني يحيط بها ثلاثة آلاف ميل فيها جبال عظام وأنهار كثيرة ومنها يخرج الياقوت الاحمر ولون السماء وحوالي هذه الجزيرة تسع عشرة جزيرة عامرة فيها مدائن وقرى كثيرة» (١).

ويتم المسعودي الصورة بقوله: «فهذا بحر الصين والهند وفارس وعمان والبصرة والبحرين واليمن والحبشة والحجاز والقلزم والزنج والسند، ومن في جزائره، ومن قد أحاط به من الامم الكثيرة التي لا يعلم وصفهم وعددهم إلا من خلقهم. ولكل قطعة منهم اسم يفرده من غيره والماء واحد متصل غير منفصل. وفي هذا البحر مغاصات الدر واللؤلؤ، ومنه معادن ذهب وفضة نحو بلاد كله وسريره، وحوله معادن حديد مما يلي بلاد كرمان، ونحاس بأرض عمان، وفيه أنواع الطيب والافاويه والعنبر وأنواع الادوية والعقاقير والساج والخشب المعروف بالدارزنجي والقنا والخيزران...

«ولكل من يركب هذا البحر من الناس رياح يعرفونها في أوقات تكون منها مهابها، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها في ابان هيجانه، وأحوال ركوده وثورانه. هذا فيما سمينا من البحر الحبشي» (٢).

أما بزرك الذي تقصى أخبار الملاحين في هذا البحر فنكتفي بنقل إحدى قصصه قال: «ومن مصائب البحر المشهورة التي أثرت إلى يومنا هذا ما حدّثني به بعض التجار قال: خرجت في مركب من سيراف في سنة ٣٠٦ اريد صيمور وكان معنا مركب عبد الله بن الجنيد ومركب سبا. وكانت هذه الثلاثة مراكب في نهاية الكبر والمراكب الموصوفة في البحر، ونواخذتها مشهورون لهم قدر ومنزلة في البحر. وكان في المراكب ١٣٠٠ رجل من التجار والنواخذة والبانانية وغيرهم من صنوف الناس.

وفيها من الاموال والامتعة ما لا يعرف قدره لكثرته فلما سرنا ١١ يوماً رأينا أثر الجبال ولوائح أرض سندان وتانة وصيمور وما سار هذا السير السريع قبلهم احد فيما سمعنا فاستبشرنا وسررنا وبشّر بعضنا بعضاً بالسلامة وأخذنا في الاستعداد لأنا قدّرنا انا نصبح من غد الارض. ثم جاءتنا الريح من الجبال فلم نضبط الشرع وأخذنا الخبّ والمطر والرعد والبرق. فقال الربانية والبانانية: نطرح الامتعة فمنعهم أحمد وقال لا أطرح إلا بعد ان يخرج الامر عن يدي واعلم اني هالك. ونزل الرجال ينزفون الجمّة من الجانبين والمركبان على مثل حالنا كل واحد منهما ينتظر صاحبه ما يفعل من طرح أو غيره فيفعل مثله. وضج التجار وقالوا: له اطرح الامتعة وانت في الحل فإنا نهلك. فقال لا اطرح البتة ولم يزل الامر يتزايد إلى أن مضت ستة أيام. فلما كان في اليوم السادس وكاد المركب أن يغوص في البحر قال اطرحوا الحمولة فلم يمكن طرح شيء لأن الخوابي والاعدال ثقلت بالمطر وكان ما فيه خمس مائة من قد صار فيه الف وخمس مائة منّ بالمطر وعاجلهم الامر وطرحوا القارب إلى الماء ونزل فيه ثلاثة وثلثون رجلاً وقيل لأحمد قم فانزل في القارب فقال لا ابرح من مركبي فإنه أرجا في السلامة من القارب وان تلفت معه فلا حظّ لي في الرجوع بعد تلف مالي... وهلك جميع أهل المراكب الثلاثة فلم يسلم منهم أحد إلا نفر من الذين كانوا في القارب وكان في جملتهم ربان المركب أحمد. وكان اسمه بقي. وكان قد زاد تلف هذه المراكب وما فيها من المعايش في اختلال سيراف وصيمور لعظم ما كان فيها من الاموال ووجوه النواخذة والربان والتجار» [٣].

فإذا هالتنا صورة البحر بما فيه من موج يحمل السفن كالريش في مهب الرياح، وانتقلنا إلى البر لنضع أقدامنا على شيء ثابت، وجدنا بغيتنا عند ثلاثة من جغرافيي القرن العاشر (الرابع) هم الاصطخري وابن حوقل والمقدسي.

فالمقدسي يقدم إلينا اقليم السند بقوله «هذا اقليم الذهب والتجارات، والعقاقير والآلات، والفانيذ والخيرات، والارزاز والموز والاعجوبات، به رخص وسعة ونخيل وتمرات، وعدل وانصاف وسياسات. وبه خصائص وفوائد وبضاعات، ومنافع ومفاخر ومتاجر وصناعات، ومصر جليل ومدن سرية وقصبات، وسلامة وعافية وثم امانات. قد جاور البحر، وشقة النهر، وحوى النخل، وله سهل وزرع على البعل. مصر ظريف، ونهر شريف، وامره طريف، غير ان ذمته مشركون والعلماء به قليلون ولا تصل إليه إلا بعد أخطار البر وأهوال البحر، بعد الشقّ وضيق الصدر وهذا مثاله وشكله...

«واعلم اني قد درت على تخوم هذا الاقليم وبلغت سواحله كلها ورأيت وسمعت ما سأذكره واكثرت السؤال عن اساميه وتفحصت عن أخباره وعرفت مدنه ومع هذا فلا أضمن من وصفه ما أضمن من غيره، ولا أصف إلا امصاره ولا استقصي في شرحه لما روى كفى بالمرء الكذب ان يحدث بكلما يسمع ولقوله صلعم ليس الخبر كالمعاينة.

ولولا خشية ان يختلّ هذا الاصل ويبقى من الاسلام صدر لاعرضنا من الكلام فيه» (٤).

ويتحدث هؤلاء بعد ذلك عن أجزاء السند المتاخمة للهند على قولهم، «الغالب على هذه الناحية الكفر وفيها مسلمون ولا يلي عليهم من قبل بلهرا الذي في زماننا هذا إلا مسلم يستخلفه عليهم كذلك العادة وجدتها في كثير من بلدان الاطراف، التي يغلب عليها املاك الكفر كالخزر والسرير واللان وغانه وكوغه. والمسلمون لا يقبلون ان يحكم عليهم إلا مسلم منهم ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة إلا من في دعوتهم وان قلّ عددهم في بعض الممالك قبلوا من أهل الممالك المشار إليه في العفة فإن جرحه الخصم وزكاه المسلمون أمضيت شهادته واخذ الحق بقوله من المسلمين. وببلاد بلهرا المساجد تجمع فيها الجمعات ويقام بسائرها الصلوات بالآذان في المنار والاعلان بالتكبير والتهليل» (٥).

والمدن الرئيسية التي كانت في السند في تلك الأزمنة هي المنصورة والملتان ويسفد والديبل والبيرون والرور.

«فالمنصورة مدينة مقدارها في الطول والعرض نحو ميل في مثله ويحيط بها خليج من نهر مهران وهي في شبيه بالجزيرة واهلها مسلمون. ملكها من قريش من ولد هبار بن الاسود وقد تغلب عليها اجداده وساسوهم سياسة اوجبت رغبة الرعية فيهم وايثارهم على من سواهم، غير ان الخطبة لبني العباس. وهي مدينة جرومية حارة بها نخيل وليس بها عنب ولا تفاح ولا جوز (ولا كمثرى)، ولهم قصب سكر يعقد منه القند الغزير الكثير. وبارضهم ثمرة على قدر التفاح تسمى الليمونة حامضة شديدة الحموضة ولهم فاكهة تشبه الخوخ يسمونها الانبج تقارب طعم الخوخ، واسعارهم رخيصة وبها خصب» (٦).

«والمنصورة هي قصبة السند ومصر الاقليم تكون مثل دمشق. بناؤهم خشب وطين والجامع من حجر وآجر كبير مثل جامع عُمان على سواري ساج. لها اربعة أبواب باب البحر باب طوران باب سندان باب الملتان ولهم نهر يحوط بالبلد. أهل لباقة ولهم مروّة وللاسلام عندهم طراوة والعلم واهله كثير والتجارات ثمّ مفيدة ولهم ذكاء وفطنة ومعروف وصدقة. والهواء ليّن والشتاء هيّن والامطار كثيرة والاضداد مجتمعة، ولهم خصائص غريبة. وثم جواميس عظيمة شربهم من نهر مهران والجامع وسط الاسواق والرسوم تقارب العراق مع وطآء وحسن اخلاق إلا انه شديد الحر» (٧).

«والملتان مدينة نحو نصف المنصورة في الكبر وتسمى فرج بيت الذهب وبها الصنم الاعظم للهند تحج إليه من اقاصي بلدانها وسائر اصقاعها وتعظمه. ويتقرب إلى هذا الصنم في كل سنة بمال عظيم فينفق على بيت الصنم وعلى سدنته والمعتكفين عليه منهم. وسميت الملتان باسم الصنم، والصنم اسمه الملتان. ومكان هذا الصنم في قصر مبني في اعمر موضع بسوق الملتان بين سوق العاجيين وصف

الصفارين. وفي وسط هذا القصر قبة والصنم فيها ومن حوالي القبة بيوت يسكنها خدم هذا الصنم ومن اعتكف عليه. وليس بالملتان من الهند والسند الذين يعبدون الاوثان غير هؤلاء السدنة الذين يحوزهم هذا القصر مع هذا الصنم. وهذا الصنم صورة على خلقة الانسان مربع على كرسي من جص وآجر، وقد البس الصنم جلداً يشبه السختيان احمر فلا يتبين من جسده شيء إلا عيناه. فمنهم من يزعم ان بدنه خشب ومنهم من يدفع ذلك غير انه لا يترك بدنه ينكشف، وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه اكليل من ذهب مرتفع على ذلك الكرسي وقد مد ذراعيه على ركبتيه. وقد اصابع يديه كمن يحسب اربعة، وعامة ما يحمل إلى هذا الصنم من المال يأخذه القرشي الهباري امير الملتان وينفق على السدنة منه كفافهم، وقد قصدهم الهند غير وقت للتغلب على الملتان في انتزاع الصنم منهم فيظاهرون المتغلبين عليهم القاصدين لهم بكسره واحراقه فيرجعون عنهم ولولا ذلك لخرّبوا الملتان، وعلى الملتان حصن وبها منعة وهي خصبة رخيصة الاسعار غير ان المنصور اخصب واعمر منها وسميت الملتان بفرج بيت الذهب لأنها فتحت في أول الاسلام وكان بالمسلمين ضاقة وقحط فوجدوا فيها ذهباً كثيراً فاتسعوا فيها بما وجدوه، وفي اهلها رغبة في القرآن وعلمه والاخذ بالمقارىء السبعة والفقه وطلبة الادب والعلم... وبخارج الملتان على نصف فرسخ منها ابنية كثيرة تعرف بالجندرور وهي معسكر الامير ولا يدخل الامير منها إلى الملتان إلا في يوم الجمعة عند ركوبه الفيل ويدخل فيصلي الجمعة بأهلها ويعود على الفيل إلى دار امارته وهو من ولد سامة ابن لؤي بن غالب وليس هو في طاعة احد وخطبته لبني العباس» [٨].

«والملتان تكون مثل المنصورة غير انها اعمر ليست بكثيرة الثمار غير انها رخيصة الاسعار... دورها حسنة تشاكل دور سيراف من خشب الساج طبقات. ليس عندهم زنا ولا شرب خمر ومن ظفروا به يفعل ذلك قتلوه أو حدّوه ولا يكذبون في بيع ولا يبخسون في كيل ولا يخسرون في وزن يحبون الغرباء واكثرهم عرب. شربهم من نهر غزير والخير بها كثير والتجارات حسنة والنعم ظاهرة والسلاطين عادلة لا ترى في الاسواق امرأة متجملة ولا أحد يحدثها علانية. ماء مري وعيش هني وظرف ومروّة وفارسية مفهومة وتجارات مفيدة وأجسام صحيحة» [٩].

«وأما بسفد فمدينة صغيرة وهي والملتان دون الجندور عن شرقي نهر الملتان وهو نهر مهران وبين كل واحدة منهما وبين النهر نحو نصف فرسخ، وشربهم من الآبار. وبسفد هذه خصبة وتكتب بالباء والفاء. ومدينة الرور تقارب الملتان في الكبر وعليها سوران وهي على شط نهر مهران أيضاً وهي من حد المنصورة، خصبة رفهة كثيرة التجارة، والديبل من غربي نهر مهران على البحر وهي متجر عظيم وتجارتها من وجوه كثيرة وهي فرضة هذه البلاد وغيرها وزروعهم مباخس وليس لهم كثير شجر ولا نخيل

وهو بلد قشف وانما مقامهم للتجارة» (١٠).

فإذا انتهينا من وصف المدن الرئيسية في السند، دون التعرض للجوار شرقاً أو غرباً، عدنا إلى المقدسي لنأخذ منه بعض اجماله لشؤون الاقليم كله.

«هو اقليم حار به نخيل ونارجيل وموز فيه مواضع معتدلة الهواء جامعة الاضداد مثل ويهند ونواحي المنصورة والبحر يمد على اكثره. ولا اعرف ان به بحيرة وبه انهار عدة وذمته عبدة الاوثان وليس للمذكرين به صيت ولا لهم رسوم تذكر. مذاهبهم اكثرهم اصحاب حديث ورأيت القاضي ابا محمد المنصوري داودياً اماماً في مذهبه وله تدريس وتصانيف قد صنّف كتباً عدة حسنة. واهل الملتان شيعة يهوعلون في الاذان ويثنون الاقامة ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب ابني حنيفة (رحه). وليس به مالكية ولا معتزلة ولا عمل للحنابلة. انهم على طريقة مستقيمة ومذاهب محمودة وصلاح وعفة قد اراحهم الله من الغلو والعصبية والهرج والفتنة.

«ويحمل من طوران الفانيذ اجود من ماسكان ومن سندان الارز الكثير وثياب ويعمل بسائر الاقليم من البسط وما يجري مجراها ما يعمل بقهستان خراسان ويحمل منه نارجيل وثياب حسنة ومن المنصورة النعال الكنباتية النفيسة ومنه تحمل الفيلة والعاج والاشياء الرفيعة والعقاقير النافعة» (١١).

ويتحدث الجغرافيون عن انهار المنطقة، فيتفق الثلاثة على القول بشأنها: «واما انهارهم فاعظمها نهر مهران ومخرجه من ظهر جبل يخرج منه بعض انهار جيحون وتمده انهار كثيرة وعيون غزيرة، ويظهر على توافره بناحية الملتان فيجري على حد بسفد ويمر بالرور ثم على المنصورة حتى يقع في البحر شرقي الديبل وهو نهر كبير عذب جداً. وفيه التماسيح كتماسيح النيل وهو كالنيل في الكبر وجريه كجريه بماء الامطار الصيفية ويرتفع على وجه الارض ثم ينضب فيزرع عليه حسبما يزرع بأرض مصر، والسندروذ من الملتان على نحو ثلثة مراحل وهو نهر كبير عذب يفرغ إلى مهران قبل بسفد وبعد الملتان، ونهر الجندرور نهر أيضاً كبير عذب طيب وعليه الجندرور ويفرغ إلى مهران دون السندروذ إلى نواحي المنصورة» (١٢).

الهوامش

(١) ابن رستة، ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) المسعودي، ابو الحسن علي، «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، باريس، المطبعة الامبراطورية، ١٨٦١ ج١، ص ١٠٤ ـ ١٠٧.

(٣) بلاشير، منتخبات، ص ١٠٤ ـ ١٠٧.

(٤) المقدسي، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥.

(٥) ابن حوقل، ج٢، ص ٣٢٠.

(٦) نفس المكان، ج٢، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.
(٧) المقدسي، ص ٤٧٩.
(٨) المسعودي، ج١، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٩؛ ابن حوقل، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.
(٩) المقدسي، ص ٤٨٠.
(١٠) ابن حوقل، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣.
(١١) المقدسي، ص ٤٨١.
(١٢) المسعودي، ج١ ص ٣٧٨؛ المقدسي، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣؛ ابن حوقل، ص ٣٢٨.

القسم الثاني
أدب الرحلة عند العرب

طلائع الرحّالين

جاء في القرآن الكريم ان قبيلة قريش كانت لها رحلتان: رحلة الشتاء ورحلة الصيف. والباحثون مجمعون على ان هاتين الرحلتين كانتا للتجارة. ذلك ان اهل مكة كانوا تجاراً من الدرجة الأولى، وكانت قوافلهم تنقل المتاجر من اليمن إلى الشام، وتحمل البضائع من الشام إلى اليمن. هذه تجارتهم ايام الجاهلية. فماذا حدث بعد الاسلام؟

قد تكون تجارة مكة بالذات تدنت كثيراً، ولكن الفتوح العربية الاسلامية جاءت بالجديد بالنسبة إلى رقاع أخرى. امتدت الفتوح حتى ضمت وادي السند وما وراء النهر شرقاً والاندلس غرباً، وما بين هذا وذاك من شمال افريقية. واستتبع ذلك ان اصبحت رقعة الاتجار وتبادل السلع والمتاجر تشمل هذه المنطقة الواسعة. والتاجر النشيط صار بإمكانه أن يتنقل بين قطر وآخر ومدينة وأخرى يشتري ويبيع دون أن يعيقه عائق. وبذلك انفتحت أمام العربي والمسلم مجالات واسعة كانت من قبل مقفلة. ومعنى هذا ان الرحلة في سبيل التجارة اتسعت آفاقها وزادت امكانياتها. وما كان هؤلاء التجار ممن يمر بالبلد دون أن يتعرف إلى أهله ويخبر احوالهم. وكانت هذه المعرفة تنتقل رواية واخباراً حتى يقيض الله لها من يدونها وتصبح جزءاً من التراث الادبي للرحلة.

وبعد ان استقر الاسلام في رقاع امبراطوريته، ونشأت مراكز للعلم في الاجزاء العربية وغير العربية منه، رحل الناس في طلب العلم من مكان إلى آخر. فهذا بغدادي يشد الرحال إلى دمشق، وهذا دمشقي يقصد بخارى، وهذا تونسي يرحل إلى القاهرة، وهذا قاهري يطلب العلم في فاس، وهكذا دواليك. وهذه الرحلة في طلب العلم كانت أحرى بأن تدون اخبارها، وتبقى آثارها، من اخبار تنقل التجار واصحاب الاعمال. وعلى كل فمن هذه وتلك وصلت الينا اخبار واخبار هي من مفاخر التراث العربي.

والاسلام فرض الحج على المؤمنين، ولو انه جعل الاستطاعة شرطاً. والذين استطاعوا إلى الحج سبيلاً في هذا التاريخ الطويل كثر. ولم يكن جميعهم ممن يدون اخبار اسفاره، ولكن حركة التنقل هذه حفزت الكثيرين من أهل العلم إلى تدوين مشاهداتهم. فخرج من ذلك أيضاً تراث في أدب الرحلة كبير.

وإلى جانب التاجر وطالب العلم والحاج يقوم الرحالة المحترف أو الهاوي، أي الذي يرحل من أجل الرحلة.

فالذي نستغربه بالنسبة إلى تعدد بواعث الرحلة ودوافعها في الاسلام ليس كثرة ما وصل إلينا، ولكن قلته. فأدب الرحلة تعرض إلى ما تعرضت له نواحي الانتاج العلمي الاخرى في هذه الرقعة الواسعة وهذه القرون الطويلة، فضاع منه الكثير. لكن ثمة أمل بأن يكون في خزانات الكتب المنتشرة في اصقاع العالم العربي، والتي تكشف خفاياها يوماً بعد يوم، كثير مما لم نعرف.

طلائع الرحالين وصلتنا بعض اخبارهم نقلاً عن الرواة، ومن هؤلاء سليمان السيرافي وابن فضلان والبعض دون اخباره مفصلة كالمسعودي. والاول من أهل القرن التاسع (الثالث) أما الآخرون فمن رحالي القرن العاشر (الرابع). والظاهر ان تجار العرب من عمان وسيراف والبصرة في القرن التاسع كانوا يصلون الصين، كما كان تجار الصين يصلون الموانىء القائمة على الخليج العربي. لكن اخبار القرن العاشر لا تشير إلى هذا، بل بالعكس، فقد روى المسعودي اخبار تاجر من سمرقند خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى إلى العراق، فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة وركب البحر حتى وصل إلى عُمان وركب إلى بلاد «كلاه» [١]، وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك، «واليها تنتهي مراكب الاسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت، فيجتمعون مع من يرد من ارض الصين في مراكبهم. وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك. وذلك ان مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والابلة والبصرة» [٢]. ويعزو المسعودي هذا التغير في الاسفار إلى انعدام العدل وفساد النيات، فلم يعد الفريق الواحد يصل إلى ميناء الآخر، وانما يلتقي الفريقان في «كلاه» هذه[٣].

ليس غريباً ان تتحدر الينا قصة ابن وهب القرشي الذي غادر البصرة في رحلة حملته من سيراف إلى خانفو (كنتون)، اليوم ثم عاصمة المملكة الصينية نفسها، أو ان تحفظ لنا وصف سياحة سليمان السيرافي إلى الهند والصين في القرن التاسع (الثالث). وقد زاد في الفوائد التي نحصل عليها من رحلة سليمان ان مواطناً له يسمى أبو زيد، من أهل القرن العاشر (الرابع) اضاف إليها ذيلاً فيه معلومات اضافية كثيرة. وليس من شك في أن الاصل والذيل يعطياننا اقدم وصف وصفه عربي لاقاليم الهند والصين وعادات الاقوام. وفضلاً عن ذلك فنحن نعرف منهما ان الجاليات الاسلامية في المدن الصينية كانت لها امتيازات خاصة إذ كان لها قاضيها وامامها وشيخها ومساجدها. وقد قال الدكتور حسين فوزي عنها انها «تعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن التاسع. وربما كانت الاثر العربي الوحيد الذي يتحدث عن سواحل البحر الشرقي الكبير والطريق الملاحي إليها على أساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه إلى أحاديث تاريخية وغيرها، مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب. وإذا رأينا

فيما بعد ابن خرداذبه وابن الفقيه والاصطخري وابن حوقل والمسعودي يتكلمون على أساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التي يتذكرونها، فإنهم أيضاً ينقلون الكثير عن ذلك الاثر العربي الأول بلفظه ومعناه في بعض الأحيان، وبما يكاد يكون لفظه ومعناه في البعض الآخر» [٤]. ويذكرنا المرحوم الدكتور زكي محمد حسن بأن الوصف الذي وصفه سليمان والذيل الذي اضافه أبو زيد يمتازان بقلة الخرافات والاساطير التي تكثر في أحاديث البحارة [٥].

قال سليمان يصف بعض جزائر البحار الشرقية، وهي بعد جزيرة سيلان «... جزائر تدعى لنجبالوس، وفيها خلق كثير عراة، الرجال منهم والنساء غير ان عورة المرأة ورقا من ورق الشجر. فإذا مرت بهم المراكب جاؤوا إليها بالقوارب الصغار والكبار وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد. ولا يحتاجون إلى كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد. ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال له اندمان، واهليهما يأكلون الناس أحياء... وهم عراة ليس لهم قوارب» [٦].

ووصف سليمان الاعصار المحلي، فقال: «وربما رؤي في هذا البحر سحاب ابيض يظل المراكب، ينشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر فيعلى له ماء البحر مثل الزوبعة فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته. ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطراً فيه قذى البحر، فلا أدري ايستقي السحاب من البحر أم كيف هذا» [٧].

ومن أهل القرن العاشر (الرابع) ابن فضلان الذي اشرنا إليه قبلاً... وابن فضلان هذا ذهب إلى ملك البلغار في بعثة أرسلها إليه الخليفة العباسي المقتدر بالله. ذلك ان ملك البلغار، وكان قد اعتنق الاسلام قبيل ذلك بقليل، طلب من الخليفة أن يبعث إليه من يعلّمه الاسلام ويعرّفه بشرائعه ويعينه في توضيح أحكامه واقامة مساجده. فاستجاب الخليفة إلى طلبه، فقامت البعثة من بغداد برئاسة موفد خاص من الخليفة، وكان من رجالها ابن فضلان ليقوم بوظيفة رجل الدين. بدأت السفر في صيف ٩٢١م/ ٣٠٩ هـ وقضت في الطريق ما يقرب من احد عشر شهراً. وكانت طريق البعثة من بغداد إلى بخارى فخوارزم إلى بلاد البلغار وهي إلى الشرق من نهر الفولغا. ولما عاد ابن فضلان، كتب تقريباً عن تلك البلاد كان عمدة المؤلفين والجغرافيين من العرب (امثال الاصطخري والمسعودي وياقوت) وغيرهم مدة طويلة. ويؤخذ مما كتبه ابن فضلان ان البلغار كانوا آخذين بأسباب الحضارة الحديثة التي كانت قد وصلتهم، وان علاقتهم بالملك تقوم على نوع من الابوة، وان الادب كان خصلة قوية فيهم [٨]. وهكذا فإن اخبار ابن فضلان عن هؤلاء القوم وعن الروس الذين جاؤوا يتاجرون مع البلغار غنية بالفوائد. وقد عادت على المعرفة الجغرافية بالخير الكثير لمدة طويلة.

الهوامش

(١) المسعودي، ج١، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.
(٢) نفس المكان، ج١، ص ٣٠٨.
(٣) نفس المكان، ج١، ص ٣٠٨.
(٤) فوزي، حسين: «حديث السندباد القديم»، (القاهرة)، ص ٢٢.
(٥) حسن، زكي محمد: «الرحالة المسلمون في العصور الوسطى»، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٢٤.
(٦) السيرافي، سليمان عن فوزي، حسين، نفس المكان، ص ٢٤ ـ ٢٥.
(٧) نفس المكان، ص ٢٥.
(٨) ابن فضلان، احمد: «رسالة ابن فضلان»، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٩، ص ١٣١.

المسعودي[1]

يعتبر المسعودي علماً من اعلام الفكر العربي الاسلامي في عصر نضجه أي في القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد). فهو واحد من اولئك الذين احاطوا بالمعرفة احاطة وافية، وتمثلها تمثلاً صحيحاً، ثم دوّن نتيجة تلك الاحاطة وهذا التمثيل تدوينا شيقاً أنيقاً رتيباً بأسلوب سهل ممتع. وليست هذه الامور كلها لتتاح لغير عبقري. والمسعودي واحد من عباقرة الفكر في ذلك الوقت.

هو علي بن الحسين بن علي، ويتصل نسبه بعبد الله بن مسعود، ومن هنا جاءت النسبة. ويقول ابن النديم صاحب الفهرست ان المسعودي من أهل المغرب [2]، بينما يضعه ابن شاكر الكتبي في عداد البغداديين[3]. ويتضح من تتبع هذه القضية ان اسرة المسعودي جاءت من المغرب، واستقرت ببغداد. ولكن لم يتضح بعد فيما إذا كان هو نفسه ولد في بغداد أم جاءها طفلاً. وعلى كل فمترجموه متفقون على انه نشأ في بغداد، وهي في ذلك الوقت، مركز من مراكز العلم الكبرى، على ان الرجل لم يرد ان يقتصر تعلمه وتوصله إلى المعرفة على ما عند البغداديين. لذلك نراه يجوب الآفاق فيزور فارس والهند (الملتان) وسرنديب (سيلان، سيريلانكا) والصين ومدغشقر وعمان وديار الشام ومصر حيث استقر بالفسطاط سنة ٣٤٥ وتوفي فيها في السنة التالية ٣٤٦ (٩٥٧ ـ ٩٥٨).

كان المسعودي يسير في البلاد مفتّح العين والاذن، طلعة العقل والفكر كثير التسآل. وبذلك اتيح له ان يدرك من احوال هذه الدنيا وتطور شعوبها وشيعها ما لم يتح لكثيرين من معاصريه.

ونحن إذا أردنا أن نصنفه على نحو ما يصنف أهل العلم والفكر، لحرنا في امره. فهو ليس رحّالة ولا مؤرخاً ولا جغرافياً ولا فلكياً ولا طبيباً ولا محدّثاً ولا فقيهاً ـ ولكن كل هذه مجموعة معاً، مصقولة في بوتقة الاختبار، بعد ان اضفت عليها الرحلة وسعة الافق وسعة الصدر الكثير من العمق في التفكير والدقة في التعبير.

كتب المسعودي عشرات من الكتب، لا تتسع هذه العجالة إلى الاحاطة بها كلها، حتى ولا عداً. ولذلك فإننا نجتزىء الآن بذكر الاهم منها.

١ ـ كتاب «اخبار الزمان ومن اباده الحدثان من الامم الماضية والاجيال الخالية والممالك الداثرة»، وضعه المسعودي في ثلاثين مجلداً. والكتاب مفقود الآن. وليس

منه سوى جزء واحد، هو الجزء الأول، موجود في مكتبة فيينا. والظاهر من حجم الكتاب ومن اشارات المسعودي الكثيرة إليه في «مروج الذهب» و«التنبيه والاشراف»، انه كان تاريخاً مفصلاً. ولا شك ان فقدان هذا الكتاب خسارة كبيرة.

٢ ـ «الكتاب الاوسط» وهو اصغر من الكتاب السابق ذكره، ولعله مختصر له، وليس من اتفاق بعد بين الباحثين على مدى ما ضاع من هذا الكتاب، إذ انه يوجد في المكتبة البودلية باكسفورد مخطوطة يظن انها هذا الكتاب. وروي ان بعض المنقبين وجد اجزاء منه في مكاتب دمشق. لكن هذه القضية لم تحل بعد. ونحن بانتظار الدراسات الجديدة حول الموضوع.

٣ ـ «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وهذا كتاب في قسمين: اولهما وصف فيه المسعودي الخليقة وروى قصص الانبياء باختصار، ثم انتقل إلى وصف الارض والبحار والعجائب والغرائب وتاريخ الامم القديمة وما كان لها من الاديان والعادات والمذاهب، وعرض للأيام والشهور والتقاويم وكل ما يتعلق بذلك من جزئيات وكليات. وخص القسم الثاني بتاريخ الاسلام من اواخر عهد الراشدين إلى اوائل خلافة المطيع لله العباسي. وهذا الكتاب كثير الفوائد التي قد لا توجد في سواه. وقد نقله المستشرق باربيه دي مينار إلى الفرنسية وطبع في باريس في تسعة مجلدات سنة ١٨٧٢، ونقله إلى الانكليزية سبرنغر لكن طبع من هذه الترجمة جزء واحد فقط (لندن ١٨٤١).

٤ ـ «التنبيه والاشراف» وهو المطبوع بليدن سنة ١٨٩٣. وهذا الكتاب وصفه المسعودي نفسه بقوله «... رأينا ان نتبع ذلك بكتاب سابع مختصر نترجمه بكتاب التنبيه والاشراف... نودعه لمعاً من ذكر الافلاك وهيئاتها، والنجوم وتأثيراتها، والعناصر وتراكيبها، وكيفية افعالها، والبيان عن قسمة الازمنة، وفصول السنة، وما لكل فصل من المنازل والتنازع في المبتدأ به منها... والرياح ومهابها وافعالها وتأثيراتها، والارض وشكلها وما قيل في مدار مساحتها وعامرها وغامرها، والنواحي والآفاق وما يغلب عليها» [٤].

والمسعودي يعلل السبب الذي حمله على وضع كل من كتبه، ويبين عادة الغاية الاصلية من الكتاب. فتراه في مستهل «مروج الذهب» يعنون باباً بإسم باب ذكر جوامع اغراض هذا الكتاب، يقول فيه «اما بعد فانا صنفنا كتابنا في اخبار الزمان وقدمنا القول فيه في هيئة الارض ومدنها وعجائبها وبحارها واغوارها وجبالها وانهارها... ثم تبعنا ذلك باخبار الملوك الغابرة والامم الداثرة والقرون الخالية والطوائف البائدة... ثم اتبعناه بكتابنا الاوسط في الاخبار على التاريخ... رأينا اجمال ما بسطناه، واختصار ما وسطناه، في كتاب لطيف نودعه لمع ما في ذينك الكتابين مما ضمناهما، وغير ذلك من أنواع العلوم واخبار الامم الماضية والاعصار الخالية مما لم يتقدم ذكره فيهما» [٥].

وفي مدخل كتابه «التنبيه والاشراف» يتحدث عن الغرض من هذا الكتاب، فيبدأ

بذكر مؤلفاته إلى حين وضع التنبيه، ويحدد ما في كل منهما من ابحاث وفوائد ومواضيع، ثم يبين ما في الكتاب نفسه على نحو ما نقلناه قبلاً. ولولا خشية الاطالة لنقلنا ذلك كله، تبياناً لاسلوب المسعودي، وتوضيحاً لدقته في تحديد أبحاث مؤلفاته.

والمسعودي، مثل الكثيرين ممن تعلموا والفوا وحدثوا وهم يتنقلون من مكان إلى آخر في العالم الاسلامي وخارجه، يرجو القارىء ان يعذره. فتراه يقول في مدخل مروج الذهب «على انا نعتذر من تقصير ان كان، أو نتصل من اغفال ان عرض لما قد شاب خواطرنا وعمر قلوبنا، من تقاذف الاسفار وقطع القفار، تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر، مستعلمين بدائع الامم بالمشاهدة، عارفين خواص الاقاليم بالمعاينة، كقطعنا بلاد السند والزنج والصين، وتقحمنا الشرق والغرب. فتارة بأقصى خراسان وتارة بوسائط ارمينية واذربيجان... وطوراً بالعراق وطوراً بالشام» [٦].

ويتحدث المسعودي عن المؤرخين السابقين له في مدخل «مروج الذهب»، ثم ينتقي منهم البعض فيثني عليه مثل ابن قتيبة والطبري ونفطويه والصولي وقدامة بن جعفر [٧]. ولكنه لا يمتنع عن نقد الآخرين مثل الجرجاني إذ رأى في كتابه انه «خرج إلى اخبار زعم انها صحت عنده ولم يشاهدها... ثم ترقى إلى خليفة في التصنيف مضادة لرسم الاخبار والتواريخ وخروجاً عن جملة أهل التأليف. وهو وان احسن فيه ولم يخرجه عن معانيه، فإنه عيب لأنه خرج عن صناعته، وتكلف ما ليس من مهنته»[٨].

لا شك في أن المسعودي كان قد تعرف إلى الادب الجغرافي المعروف في ايامه، ومن هنا تأتي اشارته إلى مؤلفات في الجغرافية هي الآن مفقودة. ولكن مما لا ريب فيه ان المسعودي فتح آفاقاً جديدة لنفسه، على ما يبدو لمن يدرس «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وهو الذي وضع فيه خلاصة اختباراته وتجاربه في الاسفار والرحلات. والكتاب يجمع بين دفتيه خلاصة وافية للمعرفة العلمية في عصره. ولعل المسعودي الوحيد الذي تحدث عن الشعوب والبلاد المجاورة لعالم الاسلام في تلك العصور. وقد عالج اكثر اموره معالجة صاحب البصيرة النيرة والملاحظة النقادة، لكنه لم يستطع أن يقصي عنه جميع الأساطير. فقد ضمن كتابه الكثير منها. فمروج الذهب كتاب سياحة ومعرفة جغرافية وعمران وعلم وملاحظة واخبار واساطير، وهو يمثل اصدق تمثيل الحياة العقلية النشيطة المتطلعة إلى الوصول إلى الحقيقة والتي لم تتحرر تماماً من كل شيء غير حقيقي فقبلت ـ أو على الاقل لم تنف ـ بعض ما يبدو بعيداً عن المنطق.

يصف المسعودي الصعاب التي كان يلقاها في تنقلاته وصفاً دقيقاً. فقد قال: «وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين وبحر الروم والخزر والقلزم واليمن، واصابتني فيها من الاهوال ما لا احصيه كثرة. فلم أشاهد من بحر الزنج (المحيط

الهندي شرقي افريقية) وفيه السمك المعروف بالاوال، طول السمكة نحو من اربعمائة ذراع إلى الخمسماية ذراع بالذراع العمري، وهو ذراع أهل ذلك البحر. والاغلب من هذا السمك أن طوله ماية ذراع. وربما يظهر بهذا البحر فيظهر طرف من جناحيه فيكون كالقلاع العظيم وهو الشراع. وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء في الماء، فيذهب الماء في الجو أكثر من ممر السهم. والمراكب تفزع منه بالليل والنهار تضرب له بالخشب والدبادب لتنفر من ذلك» (٩).

الهوامش

(1) Ziadeh, N.A., Deyar al- Sham According to al- Masudi in *al- Masudi Milenary Commerative Volume*, Calcuta, 1960, PP 20 - 25

(٢) ابن النديم: «الفهرست» القاهرة، المطبعة الرحمانية، ١٩٢٩، ص ٢١٩.
(٣) الكتبي، ابن شاكر: «فوات الوفيات»، القاهرة، بولاق، ١٨٨٥، ص ٥٥.
(٤) المسعودي، «التنبيه والاشراف»، ليدن، بريل ١٨٩٣، ص ٥.
(٥) المسعودي: «مروج الذهب» ج١، ص ٢ ـ ٥.
(٦) نفس المكان، ج١، ص ٥.
(٧) نفس المكان، ج١، ص ١٥ ـ ١٨.
(٨) نفس المكان، ج١، ص ١٩ ـ ٢٠.
(٩) نفس المكان، ج١، ص ٢٣٤.

رحالون من المشرق

ليس من الممكن ان يعرض الكاتب في مثل هذا الفصل إلى الرحّالة جميعهم. ولذلك يترتب عليه ان يختار، وحري به أن يكون اختياره على أساس نماذج الرحالين. لذلك نريد أن نتحدث هنا عن اثنين من الرحّالة المشارقة هما ناصري خسرو والهروي. ومع اننا نعنى في هذه الدراسات بالرحالة العرب أصلاً، فإننا لا نرى مندوحة عن التحدث عن ناصري خسرو، بسبب وصفه الدقيق للبلاد التي زارها والاضواء التي يلقيها على الحياة الاجتماعية في المناطق التي زارها.

ناصري خسرو فارسي الاصل والنشأة والثقافة. ولد بالقرب من بلخ سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م وتأدب وشارك في علوم عصره ونال حظاً وافراً من معارفه، وزار الهند وعمل في بلاط الغزنويين. ثم عاد إلى فارس وشغل منصباً كبيراً عند السلاجقة، إذ كتب لجعفر (او جفري بك)، وهو اخ لطغرل بك. وكان منغمساً في الملاهي والملذات حتى تراءى له ليلة رجل في الحلم نهاه عن المعاصي، وأسر إليه ان زيارة البيت الحرام هي سبيل التوبة النصوح[1] . فكان لهذا الحلم أثر بالغ في نفسه، أدى إلى تغيير حياته، فأقلع عما كان فيه حالاً وسار للحج في العام التالي.

بدأ من مرو، فمر بنيسابور والري وتبريز وميافارقين وآمد وحران ودخل سورية بطريق منبج. وزار في بلاد الشام امهات مدنها في طريقه، إذ مر بحلب وحماة والمعرة. ثم اتجه إلى الشاطىء فزار طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكاء. ومن هنا عرّج على طبرية، ثم عاد إلى عكاء ومنها اتجه إلى الرملة بطريق قيسارية وكفر سابا. ومن الرملة قصد القدس فوصلها سنة ٤٣٨هـ وقضى فيها أربعة أشهر ثم حج وعاد إلى القدس بطريق دمشق وسافر إلى مصر براً عن طريق عسقلان فوصل في ٧ صفر سنة ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧. وأقام هناك ثمانية أشهر ثم حج ثانية وعاد، وظل يتنقل في بلاط الخليفة المستنصر سنتين إلى ان غادر عاصمة الفاطميين نهائياً في ١٤ ذي الحجة سنة ٤٤١ هـ/ نيسان (ابريل) سنة ١٠٥٠م بطريق عيذاب إلى جدة. وبعد ان حج للمرة الاخيرة عاد إلى بلاده، بعد ان اجتاز الطريق من مكة إلى الحسا براً وزار البصرة، فوصل مرو في ١٥ حزيران (يونيو) سنة ١٠٥٢.

كان ناصري خسرو اسماعيلياً شديد التعصب لمذهبه، وفي اثناء اقامته في القاهرة تدرج في مناصب الدعاة الاسماعيليين وقابل الخليفة نفسه، وكان يرى ان

القاهرة المركز الديني لمذهبه وان الخليفة هو الامام الحق[٢]. ولما عاد إلى بلاده كان في مقدمة الدعاة. وقد نقل براون عن جامع التواريخ ان ناصري خسرو قضى سنوات طويلة متخفياً في جبال خراسان، لما اشتد السلاجقة في طلبه. وبقي في منفاه هذا إلى أن توفي سنة ٥٤٢هـ/١٠٦٠م.

كان ناصري خسرو دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصي الاخبار وروايتها، فجاءت رحلته، المعروفة باسم «سفرنامه»، غنية بالصور، مليئة بالمعلومات عن البلاد التي زارها. وتلقي رحلته نوراً على الكثير من الشؤون الاجتماعية والاقتصادية قبيل مجيء الصليبيين إلى سورية.

فوصف ناصري خسرو للحرم الشريف بالقدس من أدق ما وصل إلينا من المعلومات عن هذا المسجد المبارك. ولعله أول من ضبط ابعاد المسجد الاقصى وقياساته. ويلاحظ هذا السائح ابواب المدن واتجاهها وميناء عكاء وصناعات صور وصيدا. ويعنى بمصادر المياه في كل بلد، وتسترعي نظره كثرة الرخام في الرملة، ولعل من أدق ملاحظاته ما ذكره من ان قرى القدس تقوم على رؤوس الجبال أو سفوحها[٣]. ثم هو لا يغفل عن زهر النرجس الذي يكسو بقعة من الارض إلى الغرب من حماة[٤] أو عن الوردتين الجميلتين اللتين رآهما في جبيل بيد صبي في شهر شباط (فبراير)[٥] او الاشجار التي تكسو الطريق حول كفر سابا في فلسطين. والمدن الداخلية السورية التي نالها حظ الوصف في رحلته هي حلب وحماة وطبرية وبيت المقدس. اما باقي ما كتبه عن سورية فهو عن مدن الساحل، فهو يذكر ان حلب تتمتع بيسار ورخاء اذ تلتقي عندها طرق التجارة الشامية والرومية والعراقية والمصرية[٦]. ويحدثنا عن ابي العلاء عند مروره بالمعرة، فقد كان لا يزال حياً[٧]. ويصف طرابلس بقوله «ارباض المدينة تملأها البساتين... وقصب السكر ينمو هنا بكثرة... ومثله البرتقال والليمون والتمر... وقد كانوا ايام وصولنا يستخرجون عصير قصب السكر... وفنادق المدينة تتألف من اربع طبقات أو خمس وقد تصل إلى ست... وبيوتها واسواقها حسنة البناء نظيفة.

«وفي المدينة مكاتب لفرض الضريبة الجمركية على السفن القادمة إلى المدينة من بلاد الروم او الغرب أو غيرهما... وللسلطان ــ امير المدينة ــ سفن تحمل تجارته إلى بيزنطية وصقلية والغرب، واهل طرابلس كلهم شيعة». ولما وصل ناصري خسرو صيدا بهره ثراؤها وزينتها، فقال «واسواق المدينة بهية الزينة حتى ظننت انها زينت لمناسبة قدوم السلطان او لأمر آخر سار. فلما استقصيت عرفت ان ذلك أمر عادي»[٨].

وقد كانت صور في الوقت الذي زارها فيه ناصري خسرو، من أكبر مراكز التجارة البحرية. يدلنا على ذلك فنادقها التي كانت ذات خمس طبقات أو ست،

وشوارعها. فقد كانت نظيفة تدل على الثروة الهائلة. «وصور معروفة بغناها وقوتها بين المدن الشامية الساحلية واكثر سكانها شيعة لكن قاضيها سني» [٩].

ويتنقل في مدن ساحل فلسطين من المدينة إلى الأخرى حتى يمر بقيسارية ثم يتجه إلى الرملة. وبعد ان يصف هذه المدينة الكبيرة وبيوتها المبنية من الرخام الذي يكثر وجوده فيها، يذكر طريقة تقطيعه اعمدة أو ألواحاً بمنشار غير مسنن» [١٠].

وفي القدس يعنى ناصري خسرو بزيارة الأماكن المقدسة كلها ويلاحظ ان شوارع المدينة مبلطة. ويعطينا عدد السكان على انه عشرون ألفاً [١١]. ثم يقول «والأرض في نواحي القدس مستغلة استغلالاً طيباً. والزيتون هناك كثير. ويبلغ الدخل السنوي لبعض كبار الموسرين هناك نحواً من خمسين ألف مد» [١٢] (يقابل ٤٢٠٠ تنكة). ويقول ناصري خسرو «ان القار المجموع من مياه البحر الميت يستعمل في طلاء الاجزاء السفلى من الأشجار لحفظها من الديدان. ويستعملها الصيادلة للمحافظة على العقاقير من الحشرات» [١٣].

ووصف ناصري خسرو لمصر من خير ما وصل إلينا. وقد تناول البلاط الفاطمي والعاصمة والادارة الحكومية في زمن المستنصر بالتفصيل. ولم يكن هذا بغريب على رجل اقام في القاهرة مدة طويلة وعاشر المقدمين من أهلها، وحظي بمقابلة الخليفة نفسه. فتراه يتحدث عن قاعة المآدب في القصر والاحتفال بولادة ابن الخليفة وعن جبر الخليج، ويقسّم القاهرة إلى حاراتها العشر ويعطينا اسماءها مثل برجوان وزويلة. وتعجبه فاكهة مصر واثمارها فيذكرها، وينبئنا ان البلسم مغربي الأصل جاء به اجداد الخليفة المستنصر لما فتحوا مصر. وإذ يذكر جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون، يروي ان احفاد هذين الرجلين أرادوا بيع كل من الجامعين في زمن الحاكم بأمر الله. فابتاعهما الخليفة نفسه» [١٤].

ولما عاد ناصري خسرو من مصر إلى بلاده بطريق الحجاز والحسا، ذكر ملاحظات قيمة عن المدن التي مر بها. منها صنع القماش في اسيوط واستخراج الأفيون فيها. واجرة الجمل الذي استأجره منها إلى عيذاب كانت ديناراً ونصف الدينار[١٥]. وتعرف ناصري في اسوان إلى رجل اسمه الفلجي وتآخيا، فلما وصل إلى عيذاب أخذ نقوداً بناء على توصية كان حمله اياها صاحبه الاسواني. وانتقل إلى جدة فوصفها وذكر ان سكانها لا يتجاوزون الخمسة آلاف من الذكور، كما انه قال عن سكان مكة الاصليين انهم لا يتجاوزون الالفين من الذكور وبها نحو خمسمائة مجاور، واشار إلى القحط الذي أصاب الحجاز سنتي ٣٤٩ و٤٤٠هـ [١٦].

خص ناصري خسرو مكة المكرمة ومناسك الحج ومشاعره فيها بقسط كبير من جهده ووقته وكتابه، وليس ذلك بغريب. ونالت فلج والحسا والبصرة حظها من عناية ناصري خسرو إذ اجتاز بلاد العرب من الغرب إلى الشرق. وكانت البصرة أيام زارها

خربة والاجزاء المسكونة منها متباعدة. ومع ذلك فقد كانت فيها تجارة رائجة وكان من عادة اهلها انه إذا هبطها التاجر اودع امواله عند صراف واخذ بها رقاعاً، فإذا اشترى شيئاً دفع الرقاع إلى البائع وهذا يستبدلها بالنقد من عند الصراف (١٧).

ورغب ناصري خسرو واخوه في دخول الحمام، لكن ثيابهما الوضيعة حملت المشرف على الحمام على اقصائهما.

ومما يدل على دقة ناصري خسرو، ذكره المد والجزر في الخليج العربي وعلاقة ذلك بالفيضان في شط العرب. ومن البصرة عاد ناصري خسرو إلى مرو.

أما الهروي فأصل اسرته من هراة لكنه ولد في الموصل وطاف في سورية وفلسطين ولبنان والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم وجزر البحر المتوسط حتى صقلية، وتنقل في مزاراتها ومساجدها وخالط اهلها، وكانت له نزعة صوفية وفيه فضيلة وله معرفة بعلم السيما. دخل القسطنطينية في زمن عمانؤيل كومنينوس سنة ١١٤٣ ــ ١١٨٠م وهبط الاسكندرية سنة ٥٧٠/ ١١٧٤ وسمع فيها لابن الرحال المحدث. وحمّله القائد ابو القسم بن حمود رسائل إلى صلاح الدين يطلب فيها تجهيز حملة ضد صقلية. وكان في القافلة التي نهبها ريكاردوس في جنوب فلسطين سنة ٥٨٨/ ١١٩٢ على ماء الخويلفة في مقاطعة الداروم ففقد فيها كتبه. وطلب ريكاردوس الهروي ليقابله فلم يمكن ذلك. ولما جاء رسول ابن النافذ وزير الخليفة العباسي الناصر لدين الله إلى صلاح الدين ليوثق العلاقات بين السلطان والبلاط العباسي، ومر بدمشق، كان الهروي فيها، وكان اجتماعه به سبباً في تأليف «الاشارات إلى معرفة الزيارات».

قضى الهروي ايامه الاخيرة في حلب في ظل الملك الظاهر بن صلاح الدين الذي قرّبه لمعرفته بالسيما، فشمله برعايته وبنى له مدرسة بظاهر حلب. وقد دفن في قبة بناحية من هذه المدرسة، على ما رآه ابن خلكان، وكانت المدرسة لا تزال قائمة في عهده. والكتاب الذي بين ايدينا هو الاشارات، وقد قدم المؤلف نفسه وكتابه لقرائه بقوله: «اما بعد فإنه سألني بعض الاخوان الصالحين والخلان الناصحين ان اذكر له [لهم] ما زرته من الزيارات، وما شاهدته من العجائب والابنية والعمارات، وما رأيته من الاصنام والآثار والطلسمات، في الربع المسكون والقطر المعمور. ووقع الامتناع إلى ان حصل لي الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيز شرفه الله وعظمه وتبركنا بزيارته واستسعدنا برؤيته، إذ كان قدومه من دار السلام وقبة الاسلام وذكر الشيخ الرسول زيارات... فوقع ابتداء ذكر الزيارات من مدينة حلب...

«وقد اختصرت ما حضرني على سبيل الايجاز، وانا استعيذ بالله من شر حاسد ونكد معاند يقف على ذكر بعض الصحابة والتابعين وآل الرسول ــ صلوات الله عليهم

اجمعين ـ وعلى ذكر بعض الآثار، فيقول قرأنا في التاريخ الفلاني ضد ذلك، وذكر فلان غير ذلك. وانا مما لا أشك في قوله ولا أطعن في حديثه إلا انني ذكرت ما شاع خبره وذاع ذكره بطريق الاستفاضة والله أعلم بصحته. وقد ذكر بعض أصحاب التواريخ جماعة من آل الرسول عليهم الصلاة والسلام ومن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم قتلوا او ماتوا ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزائر البحر، ولم أر في أكثر هذه الأماكن ما ذكروه. ولا شك ان قبورهم اندرست وآثارهم طمست وذهبت آثارها وبقيت أخبارها. والزائر له صدق نيته وصحة عقيدته. وقد ذكروا أيضاً بلاداً أخر وأماكن وطرقات لا تعرف الآن لتقادم العهد وتغير الزمان. وان جرى فيما اذكره شيء بطريق السهو والغلط ولا بطريق القصد، فاسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح عن ذلك واصلاح الخطأ وايضاح الحق. فإن كتبي اخذها الانكتار ملك الفرنج ورغب في وصولي إليه فلم يمكن ذلك، ومنها ما غرق في البحر. وقد زرت أماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة وقد نسيت أكثر ما رأيته وشذ عني أكثر ما عاينته. وهذا مقام لا يدركه أحد من السائحين والزهاد ولا يصل إليه أكثر المسافرين والعباد إلا رجل جال الارض بقدمه واثبت ما ذكرته بقلبه وقلمه» [١٨].

على ان للهروي كتباً اخرى غير هذا. فقد قال هو ان ما ذكره من الابنية والآثار والعجائب والأصنام له كتاب مفرد [١٩]، واشار في موضع آخر إلى كتاب «منازل الارض ذات الطول والعرض». وروى ابن خلكان ان له كتاباً اسمه «الخطب الهروية» [٢٠].

وجاء في «الاشارات» ذكر لمئات من الاماكن الدينية وهي المقصودة بالذات من التأليف، لكن الهروي يضيف بين آن وآخر فوائد تاريخية وملاحظات عامة، كوصفه لدمشق، واشارته لرأس الحسين ونقله من عسقلان، وتحدثه عن مقياس النيل في جزيرة الروضة، والذي رواه من أن الصليبيين حاولوا أن يبنوا كنيسة على عين البقر بظاهر عكاء لكن ذلك لم يتم لهم. ومما رواه ان الافرنج لم تغير «ما على ابواب المسجد الاقصى من آيات القرآن العزيز وأسامي الخلفاء رضي الله عنهم» [٢١].

ولعل من الطف ما جاء من ملاحظاته العامة وصفه لزهور مصر ونباتها، قال: «فإن ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا. ورأيت بها في آن واحد مجتمع ورد ثلاثة ألوان، وياسميناً لونين، ونيلوفرا لونين، وآساً ونسريناً، وريحاناً، وخبزياً، وبنفسجاً، ومنوراً، ونبقاً، واترنجاً، وليموناً مراكباً، وطلعاً، وموزاً، وجميزاً، وحصرماً، وعنباً، وتيناً اخضر، ولوزاً، وقثى، وفقوساً، وبطيخاً، وباذنجان، وباقلا اخضر، ويقطيناً، وحمصاً اخضر، وخساً، والبقول، والرمان، وهليوناً، وقصب السكر» [٢٢]. وذكر بيوت الاسكندرية فقال عنها انها ثلاث طبقات وعمارة المدينة على هيئة رقعة الشطرنج. وأشار إلى السمك الرعاد فيها»[٢٣].

وكان السائح الهروي مغرماً بكتابة اسمه في الاماكن التي يزورها، مثل صنم

الاشمونين. وإلى ذلك اشار جعفر بن شمس الخلافة في بيتين قالهما في شخص يستجدي من الناس بأوراقه:

أوراق كـــديتـــه في بيت كل فـــتى على اتفـاق مـعـان واخـتـلاف روي
قـد طبق الارض من سـهل ومن جـبل كـــأنه خط ذلك الســـائح الهـــروي

الهوامش

(١) ناصري خسرو «سفر نامة»، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥، ص ١ ـ ٢.
(٢) نفس المكان، المقدمة بقلم يحيى الخشاب.
(٣) نفس المكان، ص ٢٠.
(٤) نفس المكان، ص ١٢.
(٥) نفس المكان، ص ١٤.
(٦) نفس المكان، ص ١٠.
(٧) نفس المكان، ص ١١.
(٨) نفس المكان، ص ١٣.
(٩) نفس المكان، ص ١٥.
(١٠) نفس المكان، ص ١٩.
(١١) نفس المكان، ص ٢٠.
(١٢) نفس المكان، ص ٢٠.
(١٣) نفس المكان، ص ٢١.
(١٤) نفس المكان، ص ٥٩.
(١٥) نفس المكان، ص ٧٠.
(١٦) نفس المكان، ص ٦٧.
(١٧) نفس المكان، ص ٩٥ ـ ٩٦.
(١٨) الهروي، ابو الحسن علي: «الاشارات الى معرفة الزيارات» دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٥٣، ص ١ ـ ٢.
(١٩) نفس المكان، ص ٣.
(٢٠) ابن خلكان: «وفيات الاعيان»، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٤٨، ج٣، ص ٣٢.
(٢١) الهروي، ص ٢٥.
(٢٢) نفس المكان، ص ٥٠ ـ ٥١.
(٢٣) نفس المكان، ص ٤٨.

رحالة من المغرب

رحلة المغاربة الى المشرق كانت، على وجه العموم، اكثر من رحلة المشارقة الى المغرب. فمركز الحج في المشرق، ومدن العلم الأولى فيه، فكان من الطبيعي ان يزور المغاربة الشرق اكثر من زيارة المشارقة لبلادهم. وعندنا ثلاثة من الرحالين نود ان نتحدث عنهم في هذا الفصل هم ابن جبير وابن سعيد والعبدري.

ولد ابن جبير في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ ـ ١١٤٥م. قرأ على أبيه وعلى ابن أبي العيش وعني بالأدب، وتقدم في صناعة القريض والكتابة.

كتب ابن جبير عن السيد ابي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة فاستدعاه لان يكتب عنه كتاباً وهو على شرابه. فمد يده اليه بكأس فاظهر الانقباض لانه لم يشرب قط، فأقسم السيد ليشربن منها سبعاً. ففعل مرغماً، فملئت له الكأس دنانير سبع مرات. فحمل المال الى منزله واضمر ان يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير. ولما اظهر ذلك للسيد اسعفه في قصده.

خرج من غرناطة يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٨٧/ ١١٨٣ ووصل الى الاسكندرية بعد ثلاثين يوماً قضاها على ظهر البحر بين سبتة وبينها. وكان سفره البحري في مركب للجنوبيين. وقد كان الطريق الطبيعي لابن جبير الى الحجاز هو السفر من الاسكندرية الى احد موانىء الشام ليرافق الحاج الشامي. لكن بسبب وجود الصليبيين هناك، اضطر رحّالتنا الى السير بالطريق المصري، فاتخذ سبيله الى القاهرة، ثم مر بقوص وعيذاب وجدة في طريقه الى مكة والمدينة. واجتاز بعد ذلك الطريق النجدي الى الكوفة وزار بغداد والموصل، وعاد بطريق سورية، فمر بحلب وحماة وحمص والنبك ودمشق ثم بعكاء. ومن هذه الاخيرة اقلع في مركب افرنجي الى صقلية ومر بصور. وعاد الى غرناطة فوصلها في الثامن من محرم سنة ٥٨١ هـ/ ١١٨٥م.

لم يكن ابن جبير وحيداً في رحلته هذه. فقد رافقه جده لامه القاضي ابن عطية وأبو جعفر الطيب.

رحل ابن جبير الى المشرق مرتين بعد ذلك، اولاهما بعد احتلال صلاح الدين لبيت المقدس والثانية بعد وفاة زوجته عاتكة ام المجد. وقضى أواخر حياته في الاسكندرية وهو يحدث ويؤخذ عنه حتى توفي سنة ٦١٤/ ١٢١٧.

تذكرة ابن جبير هي اخبار رحلته الأولى وقد دونها صاحبها على شبه مذكرات

يومية يستعمل فيها دائماً التاريخين القمري (مع السنة الهجرية) والشمسي (دون ذكر السنة). وقد عني كاتبها بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعية عناية فائقة. فمشاعر الحج كلها مدونة وصعوبات السفر ومواكب الأمراء وتجارة مكة كلها موصوفة وصفاً بارعاً دقيقاً. ورحلته فيها كثير من الصور التي توضح العلاقات بين اهل البلاد والصليبيين في الشام. ويشير غير مرة الى الحياة الاقتصادية من حيث المزروعات والسلع المتبادلة. وابن جبير شديد العناية بالبحث عن المدارس والمارستانات، وليس هذا بغريب على رجل عالم فقيه. وهو في كل هذا دقيق الملاحظة سهل العبارة واضح الاسلوب. وقد أثّر ابن جبير في كثير من الكتّاب الذين جاؤوا بعده، فنقلوا اجزاء كبيرة من رحلته. وليس ادل على ذلك من ان محرر رحلة ابن بطوطة نقل عنه وصف كل من حلب ودمشق وبغداد. على انه من المؤسف اننا لا نجد في رحلته شيئاً يدلنا على عدد السكان في أي من البلدان التي زارها. وقد تناول ابن جبير في الجزء الأخير من رحلته الى صقلية بوصف رائع وروى اخبارها بشكل يجعل هذا القسم مصدراً رئيساً من مصادر تاريخ صقلية في زمن وليم الثاني، وخاصة فيما يتعلق بعلاقة السكان المسلمين في الجزيرة بحكامها الاوروبيين[١].

ابن سعيد رحّالة اندلسي ولد بغرناطة ليلة الفطر سنة ٦١٠ هـ ـ ١٢١٤م في أسرة عريقة في الحسب والنسب، كان لافرادها صلة بالملوك، وكان أبوه من اهل الأدب والتأليف. والمترجم به متمم كتاب «المغرب في حلى المغرب». فقد بدأه جده وعمل فيه أبوه وأتمه هو.

عمل ابن سعيد لوزير الموحدين بافريقية ابن جامع، وكان للمترجم به ابن عم يعمل للموحدين ايضاً. فوقعت بين القريبين فرقة خشي ابن سعيد عاقبتها، فاستأذن في الرحيل الى المشرق برسم الحج. وصل الاسكندرية سنة ١٢٤١/٦٣٩، وكان والده قد رحل اليها واقام فيها، وكان متأخراً عن موعد الحج، فذهب الى القاهرة ولقي بها ايدمر التركي والبهاء زهير وابن يغمور وهو يومئذ رئيس الأمور بالديار المصرية. وقد استدعى سيف الدين ابن سابق ابن سعيد الى مجلس بضفة النيل مبسوط بالورد، وقد قامت حوله شمامات نرجس فقال ابن سعيد:

من فضل النرجس فهو الذي ... يرضى بحكم الورد اذ يرأس
اما ترى الورد غدا قاعداً ... وقام في خدمته النرجس

ووافق ذلك وقوف المماليك الترك في الخدمة، فطرب الحاضرون.

ترك لنا ابن سعيد وصفاً نفسياً لمصر والفسطاط، اعطانا فيه صورة حية لما كانت عليه الحالة يومئذ. فتناول شوارع المدينة وابنيتها وازقتها بالوصف، ثم تحدث عن نواح من الحياة في الاحياء المخصصة للهو والطرب، إذ قال عنها انه قد يرقص الواحد في وسط السوق وقد يسكر الناس من الحشيش[٢]. لكن المقريزي علق على

ذلك بقوله «وفيه تحامل كثير» [٣]. وكان قد جاء مصر كمال الدين ابن العديم رسولاً من الملك الناصر صاحب حلب الى صاحب مصر، فتعرف ابن سعيد اليه، فأكرمه، فاستجلبه وتلطف به وسأله عن قصده من رحلته، ولما عرفه وعده بالمساعدة قائلاً «نعينك بما عندنا من الخزائن ونوصلك الى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد وتصنف لنا» [٤]. ووهبه الناصر من الخلع والدنانير والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف. وتعرف ابن سعيد الى عدد كبير من رجال السيف والقلم كانوا يعملون في حاشية الناصر. ثم تحول الى دمشق ودخل مجلس السلطان المعظم ٦٣٧ ـ ١٢٣٩/٦٤٧ ـ ١٢٤٨ وحضر مجلس خلوته. ودخل الموصل وارتحل الى بغداد في عقب سنة ٦٤٨ هـ ثم رحل الى البصرة وحج وعاد الى المغرب فنزل في اقليبة بتونس سنة ٦٥٢ /١٢٥٤، واتصل بخدمة الأمير أبي عبد الله المستنصر. على ان ابن سعيد ارتحل من تونس الى المشرق ثانية في سنة ٦٦٦ هـ وذكر انه لما دخل الاسكندرية سأل عن الملك الناصر فأخبر بحاله وما جرى له من قتل التتار له. ويروي ابن سعيد ما وصل اليه علمه من اخبار هجوم هولاكو على حلب وما تركته حملته من آثار التخريب والتدمير.

تواليف ابن سعيد كثيرة منها المرقصات، والمطربات، والمقتطف من أزاهير الطرف، والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد (أي تاريخ بيته وبلده)، والموضوعان الغريبان المتعددا الاسفار، وهما «المغرب في حلى المغرب»، و«المشرق في حلى المشرق» و«عدة المستنجز وعقله المستوفز».

العبدري هو محمد بن محمد بن علي وينسب الى عبد الدار. واسم العبدري مرتبط ببلنسية من حيث اصل اسرته وبالصويرة (على مقربة من مغادور) بمراكش من حيث سكنى هذه الأسرة. ولعل ذلك كان في طفولة العبدري أو صباه. اما لما بدأ الرجل رحلته عبر شمال افريقية بقصد الحج فقد كان يقطن في حاحة في السوس الأقصى. بدأ الرحلة في ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٨٨ (١٢٨٩)، واجتاز شمال افريقية ماراً بالسوس الاوسط ثم هبط تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وتونس. ويسير العبدري بعد ذلك مجتازاً ليبيا حتى يصل الاسكندرية. ويتبع الطريق البري من الاسكندرية الى مكة. وبعد ان يتم الحج يعود ادراجه ماراً بفلسطين الى القاهرة براً. ويعود براً كما فعل في طريق الذهاب. وقد خلف لنا هذا الرحالة اخبار المغرب الغربي ومدنه وعلمائه، على طريقة معاصريه.

العبدري يصف مدن المغرب

«في اليوم الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٨ (١٢٨٩) بدأنا رحلتنا من حاحة واتجهت القافلة بنا نحو الجنوب...

«انس مدينة جميلة تتوسط سهلاً غنياً بالمراعي والماشية.. وارضها شديدة الخصب غزيرة المياه. والواحة تدور بها الحدائق ومنابت النخيل.. وهي بوقوعها في

اطراف السوس الأقصى وفي مكان مرتفع تتعلق بأسباب الجبال التي تشرف على المنطقة.

«واستمررنا في السير من انس عبر المنطقة الوسطى، وهي بلاداً اختفى العلم منها حتى ان اسمه زال. وقد فقد الناس عادة التعليم، وقلما يرتل القرآن في مساجدها.. ولكن الناس يكرمون رجال الدين ويولونهم ثقتهم التامة.. ويتمتعون بصفة هامة هي حماية الجار واحترامه والدفاع عنه.. واذا حدث ان نشبت بين جماعة واخرى حرب، فإن المقاتلين يلتقون في الميدان نهاراً ويتحاربون. فإذا جن الليل امتنعوا عن القتال وأووا الى بيوتهم حتى صباح اليوم التالي. واذا نشب الخصام بين اهل بلد واحد، فان المتخاصمين يخرجون الى ميدان فسيح بعيد عن السكان، ويقتتلون فيما بينهم هناك، حتى لا يصيب الاذى السكان الآمنين.

«... وقد كانت رعاية الله تكلأنا في اجتيازنا هذه المنطقة... التي لا يجتازها الناس عادة الا والسلاح مهيأ مشهور... حتى وصلنا تلمسان... وقد دخلها معنا ما يزيد عن الف حاج... وتلمسان مدينة كبيرة نصفها في السهل ونصفها الثاني في منعرج من الجبل... وفيها مسجد جامع فخم واسع، واسواقها حافلة... وفي مرتفع من الأرض تقوم العباد ـ وهي مقبرة اهل التقى والمرابطين، وافخم القبور هناك واجملها ضريح ابي مدين... وتحيط الكروم والبساتين بتلمسان بحيث تطوقها بنطاق دائم الخضرة... وفي داخلها الحمامات الحسان.

«ولم يبق للعلم من اثر في هذه الديار، وقد جفت سواقي المعرفة. وقد حضرت درساً في النحو فوجدت الجهل مطبقاً على الجميع.

«وقد طالت اقامتنا بتلسمان حتى ٢٥ ربيع الأول ثم خرجنا منها. واخيراً وصلنا مليانه البلدة الجميلة المكونة من مجموعة من الابنية ولا ينقصها شيء من ميزات المدن الكبيرة.

«واخيراً وصلنا الجزائر وهي مدينة لا يكف المرء عن الاعجاب بها اذ فيها ما يسحر اللب. تقوم على شاطىء البحر، مقتعدة نشزا من الأرض، بحيث تستمتع بكل ما يمكن ان يضفيه مثل هذا الموقع الخاص على بلدة ما، ويصبح البحر والسهل موردين لها.. جمال ابنيتها يأسر الرائي، وحصونها تتحدى الاعداء بمتانتها. لكنها خالية من العلم... وليس فيها من يمكن ان يعد من العلماء...

«وخرجنا من الجزائر الى بجاية وهي ميناء كبير ومدينة حصينة... وكم حاول الأعداء اخذها فباؤوا بالفشل. وفيها بيز مساجد الجهة كلها حسناً. وفيها جماعة من العلماء الاعلام.

«وجئنا قسنطينة... شفى الله جراحها ومتع سكانها بسبل انعاشها... انها بلدة جميلة وحصينة، لكن حدثان الدهر طغى عليها... بحيث اصبحت كالمرأة الجميلة

وكالكريم الخالي اليدين من المال... تكثر فيها بقايا الابنية القديمة... يحيط بها احاطة السوار بالمعصم نهر يجري في واد عميق يدور بها فيدفع عنها أذى العدوان... ولم أر في قسنطينة الا رجلاً واحداً يصح ان يشار اليه كعلم في المعرفة وهو الشيخ ابو علي حسن بن بلقاسم بن باديس» (٥).

العبدري ومدينة تونس

«ثم وصلنا الى مدينة تونس مطمح الآمال ومصب كل برق. ومحط الرحال من الغرب والشرق. وملتقى الركاب والفلك وناظمة فضائل البرين في سلك. فإن شئت اصحرت في موكب. وإن شئت ابحرت في مركب. كأنها ملك والأرباض لها اكليل. وارجاؤها روضة باكرتها ريح بليل. ان وردت مواردها نفعت غليلا. وان رددت فرائدها شفيت حشا عليلا. جليت بها عروس الغروس. وحليت بها على ممر الدهر الطروس... فاقت بحسن معانيها واتقان مغانيها غيرها من المدن وطالت. وسطت بنخوتها وانتخت بسطوتها على قواعد الشرق والغرب وصالت. وترجم حسنها البهيج. وعرفها الاريج. عن معناها ولو نطقت لقالت:

انا الغادة الحسناء فاق جمالها ... فئالت يميناً لا خطبت على وزج
اذا الغنيات ارتدن وصل بعولة ... فمالي ولا فخر الى الزوج من حوج
اعادي اذا ما شئت ظبياً بقفرة ... واطرق نوه اليم في ظلم الموج
وفيَّ لمكدود الحجيج استراحة ... فهم يردوني الدهر فوجاً على فوج
واني الى البيت العتيق كسلم ... به يرتقي من في الحضيض الى الاوج

«وما زالت مدينة تونس كلاها الله دار ملك وفخامة وهي الى الآن دار مملكة افريقية، على ضعف المملكة بها وانتهائها الى حد التلاشي ومع ذلك فقد اربت على البلاد في كل فضيلة...

«ثم وصلنا الى مدينة تونس حرسها الله تعالى وهي كما مر ذكرها واستقر عند المؤالف والمخالف شكرها وهي مؤنسة عند اسمها ومسعفة على مقتضى رسمها وما انصف من ذمها بالمحال. وتعسف عليها فقال:

لعمرك ما الفيت تونس كاسمها ... ولكنني الفيتها وهي توحش

تونس وارباضها

«وهذه المدينة كلاها الله من المدن العجيبة الغريبة، وهي في غاية الاتساع ونهاية الاتقان والرخام بها كثير واكثر ابواب ديارها معمول بها عضائد وعتب، وجل مبانيها من حجر منحوت محكم العمل، ولها ابواب عديدة وعند كل باب منها ربض متسع على قدر البلد المستقل. ولو اتفق ان كان بها ماء جار لكانت معدومة النظير

شرقاً وغرباً، ولكن ماؤها قليل وفي ديارها مصانع لماء المطر وهو المستعمل عندهم، واما الساقية المجلوبة من ناحية زغوان فقد استأثر بها قصر السلطان وجنانه الا رشحا يسيرا سرب الى سقاية جامع الزيتونة، يترشف منها في انابيب من رصاص ويستقي منها الغرباء ومن ليس له في داره ماء ويكثر عليها الازدحام».

الجامع الأعظم

«وهذا الجامع من احسن الجوامع واتقنها واكثرها اشراقاً ودائره مسقف ووسطه فضاء، قد نصبت فيه اعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجدر وشدت اليها حبال متينة في حلق من حديد مثبتة فيها وفي السقوف شداً محكماً، فإذا كان يوم الجمعة نشرت عليها شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تظلل جميع الفضاء، ذلك دأبهم فيها حتى ينصرم فصل الصيف».

ماء زغوان والحنايا

«وأما الساقية المذكورة فهي من جملة غرائب الدنيا وهي قديمة من عمل الروم مجلوبة من جبال بجنوبي تونس، على مسيرة يومين أو نحوهما، في اوعار واودية منقطعة وجبال وأكام، فإذا انتهوا بها الى جبل او تل خرقوه وسربوا الماء فيه وإذا انتهوا الى واد أو وهد بنوا لها قناطر بعضها فوق بعض، حتى يستوي مع مجرى الساقية بصخر منحوت اتقن ما يكون من البناء واغربه واوثقه، حتى ينسرب الماء منها في مستوى معتدل. واتصلت هذه الساقية بهذا العمل حتى دارت من وراء تونس الى الغرب وانتهت الى مدينة قرطاجنة وبينها وبين تونس نحو اثني عشر ميلاً، وهي (أي قرطاجنة) من اعجب مدن الأرض واغربها، لما يحكى عنها من فرط الاعتناء وغرابة الصنعة وحسبك ان هذه الساقية من جملة الاعتناء بها. واما الرخام فيجلب منها الى كل موضع بافريقية قديماً وحديثاً ولا يفنيه ذلك منها وهي الآن دائرة لا انيس بها، واهل تونس يخرجون اليها تفرجاً وتعبداً، والقناطر من تونس اليها معطلة. وهذه القنطرة تعرف عندهم بالحنايا، وهي مما يقصر عنها الوصف لفرط اتقانها وغرابتها. ويذكر ان الروم اقاموا في تدبيرها والنظر في وضعها أربعمائة سنة، وهذا بعيد. عبيد البكري فحكى ان عملها فرغ حتى استوى جري الماء في اربعين سنة، وقد كان بعض الامراء وهو أخو القائم بها الآن احتاج الى اصلاح بعض الحنايا بها مما يلي تونس، ليوصل الماء اليها إذ كانت معطلة قبله فأقام في عملها مجتهداً بأقصى ما يمكنه اعواماً عديدة، ولم يمكنه رد ذلك على ما كان عليه ولا ما يقرب منه، بل اقتنع بتسديده كيفما امكن من قلته وتفاهته بالاضافة الى غيره».

اهل تونس

«وما رأيت لاهلها نظيراً شرقاً وغرباً، شيماً فاضلة واخلاقاً حميدة. وقد كان الأخلق بمن شاهد اخلاقهم ان يطنب في وصفهم ويضرب عمن لم يمنحهم الوداد وينصفهم، إذ ذلك من بعض واجبهم واقل مراتبهم ولكن الزمان لا يعين على توفية الحقوق ولا يتعمد الفراغ (كذا) الا اهل العقوق. وناهيك ببلد لا يستوحش فيه غريب ولا يعدم فيه كل فاضل اريب يبدأون من طرأ عليهم بالمداخلة ويخطبون منه لفضل طباعهم المواصلة، فهو منهم بين اهل مشفق ورفيق مرفق، وقد كان بعض خيار طلبتها وحسبائهم لازمني مدة الاقامة بها وترك لأجلي مهمات أموره وعرفني بفضلائها، وكان لا ينفصل عني عامة النهار. وكثيراً ما كنت أمر بمن لا يعرفني من أهلها فأسأله عن الطريق الى ناحية منها، فيقوم من حانوته ماشياً بين يدي يسأل الناس عن الطريق ويدل بي، وهذا من اغرب ما يسمع من جميل الاخلاق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ولولا اني دخلتها لحكمت بأن الصلاح في أفق المغرب قد محي رسمه ونسي اسمه وضاع حظه وقسمه، ولكن قضى الله بأن الأرض لا تخلو من قائم له بحجة يرى سبيل الحق ويوضح المحجة»... ويقول مادحاً لأهل تونس ايضاً في معرض المقابلة بينهم وبين بعض من لم يؤتوا ما أوتوا من الفضل ما نصه:«فسبحان من خلقهم واهل تونس في طرفي نقيض اولئك في الأوج وأولاء في الحضيض»...

العلم بتونس

«لا تنشد بها (اي بتونس) ضالة للعلم الا وجدتها ولا تلتمس بها بغية معوزة الا استفدتها... وما من فن من فنون العلم الا وجدت بتونس به قائماً ولا مورداً من موارد المعارف الا رأيت بها حوله وارداً وحائماً»[٦]...

أهل العلم بتونس

«ولقيت بها الشيخ الأديب الحسب، الكاتب البليغ، ذا الفضائل المذكورة والمآثر المأثورة، شيخ الادباء واوحد البلغاء وزين الناظمين والشعراء ابا الحسن علي بن ابراهيم التجاني التونسي، له بيت عريق في العلم والأدب، قال لي بمسجد اقرائه: انا الثاني عشر مدرساً من آباءى على نسق كلهم قد قعدوا هنا للاقراء وبيتهم بالعلم شريف شهير وقل منهم ومن نسائهم من لا يقول الشعر. واما ابو الحسن فهو فيه آية الزمان اجادة معنى وتنقيح لفظ وسرعة بديهة، وكثيراً ما يمليه ارتجالاً فيجود ويتقن، وله مشاركة حسنة في العلم ورواية عن الشيوخ ورحلة الى المشرق وحج فيها وهو بالجملة من خواص اهل العلم واحادهم، جالسته كثيراً وسمعت كلامه في الادب وغيره... (قلت) اتماماً للفائدة انقل ما ذكره العلامة الوالد تغمده الله برحمته في شأن بيت التجاني الرفيع العماد في المجد والسؤدد، من كتابه عنوان الأريب ونصه: وكان

بيتهم (اي التجانيين) بحاضرة تونس مطلعاً لبدور العلماء والكتاب والشعراء، تناوبوا خطط الدولة الحفصية وتقدموا في كتابتها ودسوت رئاستها باستحقاق واضطلاع في العلم والأدب، وكان الأدب والشعر مستفيضاً في كبيرهم وصغيرهم وذكورهم واناثهم. فلقد نقل التاريخ ان صبيين من بيتهم خرجا يتفسحان فجلسا يستريحان عند حنايا ماء زغوان، فقال احدهما وقد رأى انهدام بعض الحنايا لكرور الأيام وتعاقب الاعوام وقيام بعضها على أصوله:

تمـــتع من بقـــايا الحنايا

فقال الآخر:

بابدع منظر تصـــبـــو اليـــه

فقال الأول:

تأمل صنع ارســمــهــا البــواقي

فقال الآخر:

وقـــد مـــد الفناء لهـــا يديه

فقال الأول:

كسطر بعض احـرفـه تمـحى

فقال الآخر:

وبعض لاح مـــضـــروباً عليـــه

علماء تونس وبث العلم

«فممن واظبته مدة الاقامة ولزمته لزوم الطوق للحمامة، الشيخ الفقيه الفاضل والحبر النزيه الكامل، قاضي القضاة وزين الحملة والرواة، ذو التواضع والانصاف والمعروف بوطأة الاكناف، مسند عصره والمرجوع اليه في مصره ابو العباس احمد ابن محمد بن حسن بن محمد بن الغماز الخزرجي وصل الله صيانته وأدام على الخيرات اعانته، فلقيت منه عالماً يأخذ بالاسماع والابصار وفاضلاً خلت عن مثله القرى والامصار»... الى ان يقول: «يدأب على الاسماع دؤوب من عد العلم أرفع صناعة ورأى الاشتغال به انفع بضاعة، لا يشغله عنه الا بقاء على اعضائه الواهية ولا يصده عنه ما تتحمله من المشقة نفسه السامية، ولم يؤثر في قوة اجتهاده ضعف قواه ولا هوى به الى استيطاء الراحة هواه، بل يستعذب في خدمة العلم ما يلاقي ويعده عدة ليوم التلاقي»...

شبان علماء تونس

«حكى العبدري عن بعض من لقيهم من العلماء بتونس ما نصه: «وممن لقيت بها فسرني لقاؤه، ووالية في ذات الله فنفعني ولاؤه، وحاضرني فأعجبني ذهنه وذكاؤه،

وصحبته فبهرني حياؤه وفضله وكرمه وسخاؤه وتواضعه ورجاؤه صاحبنا في الله ووليّنا وصديقنا في طاعته وصفينا ابو العباس احمد بن عمر بن ميمون الأشعري المانعي يعرف بابن السكان رأيته مجرياً الى غاية من كمل، ومبرزاً في حلبة العلم والعمل. عذبت اخلاقه وفاقت زلالاً، واستقامت احواله كالبان اعتدالاً، وفاضت انامله كالمزن انهمالاً، ادرك مزايا الشيوخ على فتاء سنه، فما تكلم في علم الا قلت هذا معظم فنه، قد الف الانقباض فما يبسط الا يده، وسحب قصر الأمل فما يؤمل غده.

فقل من الآمال اذ لا يضمها ولكنه من كل مأثرة مثري
سري غني النفس ما تستفزه زخارف دنياه بقل ولا كثر

«وله اعتناء بتصحيح الرواية، واعباء في تنقيح الدراية، سمع من الشيوخ واستجازهم واستجيزوا له فاتسعت لذلك روايته وله مجموعات تشوق، ومؤلفات تعجب وتروق، منها كتاب في اكمال التذييل لأبي بكر بن فتوح على كتاب الاستيعاب للحافظ ابي عمرو بن عبد البر قد اعتنى به اعتناء تاماً وهو الى الآن لم يكمل».

عدول تونس

وهذا العبدري يذكر ان ممن لقيهم من علماء تونس الفقيه الأفضل أبا عبد الله محمد بن ابي القاسم الأزدي ويعرف بالقسي ـ بضم القاف ـ قال: «وهو رجل فاضل وقور ذو سمت ومن عدول البلد رحل الى المشرق فلقي الناس وأخذ عنهم قرأت عليه جزءاً في فضيلة من اسمه محمد واحمد تخريج الشيخ الحافظ ابي عبد الله الحسين احمد بن عبد الله بن بكير البخاري».

مؤدبو تونس

وهذا العبدري يحدثنا ان ممن اجتمع بهم في تونس الشيخ الفقيه الصالح الفاضل ابا العباس احمد بن موسى بن عيسى بن ابي الفتح البطرني (نسبة الى بطرنة بفتح الطاء واسكان الراء) وهو مؤدب في بعض ارباض تونس ضرير البصر دين صالح معتن بالعلم وروايته مواظب على افعال الخير لقي جماعة من العلماء وسمع من ابي عمر ابن الشقر وقرأ عليه كثيراً وروى عنه وأجازه، قال: «وقد قرأت عليه الاربعين المسلسلات لأبي الحسن بن أبي الفضل المقدسي»... ثم يقول: «وكانت له مسموعات ومرويات لم يتسع الوقت لاخذها عنه والحمد لله على كل حال».

تجار تونس

لا ريب ان انتشار انوار العرفان في الامة حتى ينال حظه منها التاجر والصانع وغيرهما من اللفيف فهو عنوان تقدم الامة ورقيها وتجار تونس في عصر صاحب الرحلة قد اخذوا حظاً من العلم غير منزور فقد روى أن ممن لقيهم بتونس الشيخ

الفقيه الحاج المبارك الافضل معين الدين ابا محمد جابر بن محمد بن القاسم بن حسان، قال: «وكان من التجار رحل الى المشرق قديماً فلقي به الامام علم الدين السخاوي وسمع منه وأجازه وقرأ عليه قصيدتي الشيخ الامام ابي القاسم الشاطبي في القراآت وفي المرسوم وحدثه بهما عنه، قال: وقد قرأت عليه بعض الأولى وجميع الثانية وحدثني بهما معاً عن السخاوى عن ناظمهما المذكور وأجازة عامة وكتب لي بذلك خط يده وقرأت ارجوزة السخاوي في المتشابه من الفاظ القرآن وحدثني بها عنه قراءة ثم قال: وقرأت على الشيخ أبي محمد احاديث من احاديث المعمرين»[٧].

الهوامش

(١) ابن جبير، «رحلة ابن جبير»، ليدن، بريل، ١٩٠٧، ص ٣١٨ ـ ٣٢٠.
(٢) راجع للمؤلف، «رواد الشرق»، ص ٧٥.
(٣) نفس المكان.
(٤) ابن سعيد، «النفح»، ج١ ص ٤٥٢.
(٥) العبدري، راجع للمؤلف «الرحالة العرب»، ص ١١٧ ـ ١١٨.
(٦) ما ذكره العبدري عن تونس منقول عن «المجلة الزيتونية»، المجلد الثاني (١٩٣٧)، الجزء الثالث ص ١٢٢ ـ ١٢٥.
(٧) العبدري، منقول عن «المجلة الزيتونية»، المجلد الثاني (١٩٣٨)، الجزء التاسع، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٧.

رحالة عالم: البغدادي

عبد اللطيف البغدادي رحّالة عالم شملت معرفته الطب بالاضافة إلى النحو واللغة وعلم الكلام. واشتهر بصناعة الطب في كل مكان اقام فيه وخاصة في دمشق. وقد اخترناه لسببين: الأول هو الاتجاه العلمي الذي كان يغلب على تقييده مشاهداته، فتراه يشير إلى انه رأى وفحص ونقب، فضلاً عما يسمع. وإذا روي له امر وشك فيه اظهر ذلك في كتابته. والثاني لأنه خلّف لنا وصفاً لمصر في سنوات الضيق والقحط والوباء (٥٩٥ ـ ٥٩٨هـ). هذا بالاضافة إلى انه تناول اموراً في حياة مصر الاجتماعية والعمرانية بتفصيل العالم ودقته.

ولد عبد اللطيف في بغداد سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م، وانصرف شأن طلاب العلم في العالم الاسلامي في عصره، إلى سماع الحديث وحفظ القرآن واجادة الخط وحفظ الشعر والمقامات، واخذ لنفسه اجازات من شيوخ بغداد ثم من شيوخ خراسان فلما اطمأن إلى أنه أخذ عن شيوخه كل ما عندهم تحول إلى الموصل وحدث في مدرسة ابن مهاجر ودار الحديث. ولم يلق بالموصل سوى الكمال بن يونس وكان جيداً في الرياضيات.

كان صلاح الدين سيد سورية ومصر آنئذ، قد أحسن إلى عدد كبير من العلماء فأووا إلى دمشق. وجاءها عبد اللطيف يطلب علمهم فوقعت بينه وبينهم مناظرات انتصر فيها عليهم، فتوجه إلى القدس وجاء معسكر صلاح الدين بظاهر عكاء حيث لقي بهاء الدين شداد قاضي العسكر وعماد الدين الكاتب والقاضي والفاضل. والراجح ان الاخير اعجب بعبد اللطيف لأنه زوده برسالة توصية إلى وكيله في مصر ابن سناء الملك الذي احتفل به. وهناك تيسر له الاتصال بياسين السييائي وموسى بن ميمون وأبي القاسم الشارعي. وقد اعجبه الاخير من هؤلاء الثلاثة، فكانا يتفاوضان الحديث فتكون الغلبة لعبد اللطيف «بقوة الجدل وفضل اللسن»، ويتغلب الشارعي «بقوة الحجة وظهور المحجة»[1].

على ان اقامة عبد اللطيف بمصر هذه المرة لم تطل إذ رحل إلى القدس للقاء صلاح الدين بعد الهدنة، وتم له ذلك. وقد وصف مجلس السلطان بقوله: «... وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حفلاً بأهل العلم يتذاكرون في اصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك

ويأتي بكل معنى بديع» [٢] . ورتب صلاح الدين وأولاده لعبد اللطيف مائة دينار في الشهر، فدخل دمشق وأكب على الاشتغال بالعلم واقراء الناس بالجامع [٣].

لكن عبد اللطيف كان يمل الاستقرار في مكان واحد مدة طويلة، فرحل إلى مصر في ركاب العزيز سلطانها لما جاء لحصار الأفضل اخيه في دمشق في حملة فاشلة. وعاد في مصر إلى مصاحبة الشارعي حتى توفي [٤]. وكان يقرىء الناس بالأزهر صباحاً ومساءً ويقرىء الطب للكثيرين في وسط النهار. وفي هذه المدة وقع بمصر الغلاء العظيم والموت، وكتب عبد اللطيف كتاب «الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر» في وصف احوال مصر في وقته.

ثم دعاه حب السفر ثانية فانتقل إلى القدس ودرس في الجامع الأقصى ونزل دمشق حيث اشتهر بصناعة الطب ودرَّس في المدرسة العزيزية (٦٠٤هـ) وتنقل بعد ذلك بين حلب واذربيجان في بلاد الروم وارزن الروم وبغداد وتوفي بها[٥].

هذا هو عبد اللطيف الذي درس علوم عصره العقلية والنقلية وحدّث وعلّم الطب والف كتباً كثيرة فيه، وانتفع الناس بعلمه في دمشق والقاهرة والقدس وحلب وبغداد.

البغدادي في مصر

أبنية مصر ـ «واما ابنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية، حتى انهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً عن مصلحة. ودورهم افيح وغالب سكناهم في الأعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة، وقلما تجد منزلاً الا وتجد فيه باذاهنج. وباذاهنجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى انه يغرم على عمارة الواحد منها مائة دينار إلى خمسمائة، وان كانت باذاهنجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار. واسواقهم وشوارعهم واسعة وابنيتهم شاهقة. ويبنون الحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق.

«ويحكمون قنوات المراحيض حتى انه تخرب الدار والقناة قائمة، ويحفرون الكنف إلى المعين فيغير عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كسح. وإذا أرادوا بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوض إليه العمل فيعمد إلى العرصة، وهي تل تراب أو نحوه، فيقسمها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ثم يعمد إلى جزء جزء من تلك العرصة فيعمر ويكمله بحيث ينتفع به على انفراد ويسكن ثم يعمد إلى جزء آخر، ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الاجزاء من غير خلل ولا استدراك»[٦].

الترقيد في مصر ـ «من ذلك حضانة الفراريج بالزبل قلما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاجة وربما لم يعرفوه أيضاً. وانما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجر فيها ويكتسب منها. وتجد في كل بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك. ويسمى

الموضع معمل الفروج. وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التي يأتي ذكرها ما بين عشرة أبيات إلى عشرين بيتاً في كل بيت الفا بيضة ويسمى بيت الترقيد. وصفته ان يتخذ بيت مربع طوله ثمانية اشبار في عرض ستة في ارتفاع اربعة، ويجعل له باب في عرضه سعته شبران وعقد في مثله، وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر، ثم تسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب يعني نسيجاً منه وفوقه ساس وهو مشاقة الكتان وحطبه، ومن فوق ذلك الطين، ثم يرصص بالطوب ويطين سائر البيت ظاهره وباطنه واعلاه واسفله حتى لا يخرج منه بخار. وينبغي ان تتخذ في وسط السقف شباكاً سعته شبر في شبر فهذا السقف يحكي صدر الدجاجة. ثم تتخذ حوضين من الطين مخمر بساس طول الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة اصبع وحيطانه نحو أربع اصابع، ويكون هذا الحوض لوحاً واحداً تبسطه على ارض معتدلة. وهذا الحوض يسمى الطاجن فإذا جف الطاجنان ركبتهما على طرف السقف احدهما على وجه الباب والآخر قبالته على الطرف الآخر تركيباً محكماً واخذت وصولهما بالطين اخذاً متقناً. وينبغي ان يكون قعود الطاجنين على السقف بحيث يماسانه، وهذان الطاجنان تحاكى بهما جناحا الدجاجة ثم يفرش البيت بقفة تبن ويمهد، ويفرش فوقه خب اوديس يعني حصيرا برديا على مقداره سواء، ثم يرصف فوقه البيض رصفاً حسناً بحيث يتماس ولا يتراكب لتتواصل الحرارة فيه. ومقدار ما يسع هذا البيت المفروض الفا بيضة وهذا الفعل يسمى الترقيد.

«صفة الحضان تبتدىء وتسد الباب بأن ترسل عليه لبدا مهندماً ثم تسد الطاقة بساس والشباك أيضاً بساس وفوقه زبل حتى لا يبقى في البيت متنفس للبخار. وتلقى في الطاجنين من زبل البقر اليابس قفتين وذلك ثلاث وبيات وتقد فيه نار سراج من جميع جهاته وتمهله ريثما يرجع رماداً وانت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن تضعه على عينك، وتعتبر حرارته. وهذا الفعل يسمى الزواق. فإن وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقليبات في ثلاث دفعات، تجعل اسفله اعلاه واعلاه اسفله. وهذا يحاكي تقليب الدجاجة للبيض بمنقارها وتفقدها اياه بعينيها وهذا يسمى السماع الاول. فإذا صار الزبل رماداً ازلته وتركته بلا نار إلى نصف النهار ان كان ترقيده بكرة. وان كان ترقيده من اول الليل حرسته إلى ان تحمى وتسمع الناس كالسياقة المتقدمة، ثم تخلى الطاجنين من النار إلى بكرة، ثم تجعل في الطاجن الذي على باب البيت من الزبل ثلاثة اقداح وفي الطاجن الذي على صدر البيت قدحين ونصفاً. ومد الزبل بمرود غليظ واطرح في كل منهما النار في موضعين منه وكلما خرجت من البيت بعد تفقده فارخ الستر، واياك ان تغفل عنه ليلاً يخرج البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل.

«وإذا كان وقت العشاء وصار الزبل رماداً ونزل الدفء إلى البيض اسفل البيت، فغير الرماد من الطواجن بزبل جديد مثل الاول. وانت كل وقت تلمس البيض وتذوقه

بعينك فإن وجدت حرارته زائدة عن الاعتدال تلذع العين، فاجعل مكان الثلاثة الاكيال لطاجن الباب كيلين وربعاً وفي طاجن الصدر كيلين فقط. ولا تزال تواصل تغير الرماد وتجديد الزبل والايقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة أيام بمقدار ما تكمل الشخوص بمشيئة الله وقدرته، وذلك نصف عمر الحيوان. ثم تدخل البيت بالسراج وترفع البيض واحدة واحدة وتقيمها بينك وبين السراج، فالتي تراها سوداء ففيها الفرخ والتي تراها شبه شراب اصفر في زجاج لا عكر فيه فهي لاح بلا بزر، وتسمى الارملة فأخرجها فلا منفعة فيها. ثم عدل البيض في البيت بعد تنقيته وأخرج اللاح عنه وهذا الفعل يسمى التلويح، ثم تصبح بعد التلويح تنقص الزبل من العيار الاول ملء كفك من كل حوض بكرة ومثله عشية حتى يتصرم اليوم الرابع عشر ولم يبق من الزبل شيء، فحينئذ يكمل الحيوان ويسعر وينفخ، فاقطع إذا النار عنه فإن وجدته زائد الحرارة يحرق العين فافتح الطاقة التي على وجه الباب وخلها كذلك يومين ثم ذقه على عينك فإن وجدته غالب الحرارة فافتح نصف الشباك وانت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض الذي في الصدر إلى جهة الباب والبيض الذي في جهة الباب ترده إلى الصدر حتى يحمى البارد الذي كان في جهة الباب ويستريح الحار الذي في الصدر بشم الهواء فيصير في طريقة الاعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد، فيعتدل مزاجه. وهذا الفعل يسمى الحضانة كما يفعل الطير سواء. وتستمر على هذا التدبير دفعتين في النهار ودفعة في الليل إلى تمام تسعة عشر يوماً. فإن الحيوان ينطق في البيض بقدرة الله تعالى وفي يوم العشرين يطرح بعضه، يكسر القشر ويخرج وهذا يسمى التطريح. وعند تمام اثنين وعشرين يوماً يخرج جميعه، واحمد الأوقات عاقبة لعمله امشير وبرمهات وبرمودة وذلك في شباط وآذار ونيسان، لأن البيض في هذه المدة يكون غزير الماء كثير البزرة صحيح المزاج، والزمان معتدل صالح للنشأ والكوين وينبغي أن يكون البيض طرياً. وفي هذه الأشهر يكثر البيض أيضاً»(٧).

الهوامش

(١) البغدادي، عبد اللطيف: «الافادة والاعتبار»، القاهرة، مطبعة وادي النيل، ١٨٦٩، ص و.
(٢) نفس المكان، ص ز.
(٣) نفس المكان، ص ز.
(٤) نفس المكان، ص ز - ج.
(٥) نفس المكان، ص ي.
(٦) نفس المكان، ص ٣٨ - ٣٩.
(٧) نفس المكان، ص ١٧ - ١٩.

التجاني التونسي

في اواسط القرن الثالث عشر للميلاد، وفي سنة ١٢٣٦م على التحقيق، اقام الحفصيون دولتهم في تونس وغرب الجزائر، وكان ابو زكريا هو مؤسس هذه الدولة التي دامت الى اواخر القرن الخامس عشر للميلاد، الا ان ايامها لم تكن كلها هينة لينة. فقد تنازعت الدولة الأهواء، وتضاربت فيها المصالح، وتقسمتها الحروب الأهلية في فترة من تاريخها. وجاءت أول هذه الخصومات في أواخر القرن الثالث عشر الى اوائل القرن الرابع عشر (١٢٧٧ ـ ١٣١٨)، وهي الفترة التي تعنينا بشكل خاص إذ فيها كان صاحبنا ابو محمد عبد الله بن محمد بن احمد التجاني في فترة نضجه وازدهاره.

ولد عبد الله التجاني بين سنتي ٦٧٠ و٦٧٥هـ (١٢٧٢ ـ ١٢٧٦ للميلاد) في مدينة تونس، عاصمة الحفصيين ودار ملكهم. والظاهر ان أسرته هبطت المدينة مع جيش الموحدين في اواسط القرن السادس للهجرة. وكان أبوه وجده وابناء عمومته من اهل العلم والأدب والفقه. وإذن فقد نشأ ابو محمد في بيت عرف للعلم قيمته، ونشأ في اكناف ابيه الذي كان احد شيوخه. وكانت للاسرة مكتبة حافلة بأنواع العلوم من الفقه الى الأدب الى الشعر الى التاريخ وما الى ذلك. فضلاً عن ان تونس نفسها كانت موئل العلم والأدب، كما قال العبدري الرحالة الذي زارها في ايام صاحبنا عبد الله[١].

اذن فقد اتيح لعبد الله التجاني كل ما يحتاجه المرء للنبوغ من ظروف واحوال وفرص وهمة عالية وجهد لا يفتر ورغبة في العلم وصبر واناة كانا خليقين بان يبوآه المركز اللائق بسليل الأدباء والعلماء. وادرك أبو عصيدة، احد سلاطين بني حفص، في مستهل القرن الثامن، وكان على ادارة الدولة يومها شيخ الموحدين الأمير ابو يحيى ابن اللحياني، فاختص التجاني بعنايته واختاره كاتباً خاصاً. ثم اراد ابن اللحياني ان يتفقد شؤون الدولة، ولعله كان يريد الحج، وان لم يفصح عن ذلك مقدماً، فأخذ عبد الله معه وجعله المشرف على رسائله.

خرج ابن اللحياني من تونس في جمعه الكبير وبرفقته عبد الله المذكور في اواسط جمادى الأولى سنة ٧٠٦ هـ (اواخر ١٣٠٦م)[٢]. وبعد ان وصل الجمع الى طرابلس واقاموا فيها مدة استمر ابن اللحياني في اتجاهه شرقاً لاداء فريضة الحج،

وعاد التجاني الى تونس فوصلها في صفر سنة ٧٠٨[٣] أي انه غاب عن بلده سنتين وثمانية اشهر ويزيد.

وقبل ان نتحدث عن الرحلة ذاتها نسمح لأنفسنا ان نستبق الحوادث قليلاً لنضع الاطار التاريخي لما تبقى من حياة الرجلين ابن اللحياني والتجاني. ذلك ان ابن اللحياني عاد من الحج لكنه لم يرجع الى تونس بسبب ما كان قد عمها من الفوضى والاضطراب، بل استقر في طرابلس الغرب يرقب الأمور، فلما ادرك ان الفرصة اصبحت مواتية، هاجم تونس في رجب ٧١١هـ (١٣١١)، واحتل البلد، وبويع له بالسلطنة، وجلس على العرش الحفصي ٧١١ ـ ٧١٧هـ (١٣١١ ـ ١٣١٧م). فلما وجد انه لا يمكنه السير بالأمر الى نهايته ترك البلاد والسلطان، وارتحل الى الاسكندرية حيث مات سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٦).

ومع ان ابنه تولى الأمر بعده فإنه تعرض في السنة التالية لهجوم عنيف من ابي يحيى ابي بكر الذي انتزع السلطة والسلطان وحكم دولة الحفصيين من ٧١٨ ـ ٧٤٧ (١٣١٨ ـ ١٣٤٦) واعاد الى البلاد وحدتها.

لما تولى ابن اللحياني الملك ولى التجاني خطة العلامة الكبرى اي رياسة دواوين رسائله.

يقول العلامة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب:«ولا مراء في ان عبد الله التجاني باشر ما القي على عاتقه من المهمات احسن مباشرة طيلة اقامة هذا السلطان في الملك... ولم يزل صاحبنا يخدم بعمله وعلمه وقلمه البلاد ويؤلف بين الفينة والفينة التصانيف المفيدة، الى ان عقد مخدومه العزم على مغادرة تونس»[٤]. ويرى مؤرخنا الكبير ان التجاني وغيره من افراد اسرته لقوا حتفهم قتلاً على اثر انتصار ابي يحيى ابو بكر سنة ٧١٨ (١٣١٨).

وللتجاني مؤلفات عدة اكثرها مفقود وهي في الفقه والأدب والتاريخ والتراجم والحديث والمراسلات (مثل مراسلاته مع ابن شبرين) والعلامة وحتى في الأدب النسائي.

هذه المدة التي قضاها التجاني في صحبة ابن اللحياني في رحلته كانت خيراً وبركة على الأدب والتاريخ. فقد كان التجاني يقيد اخبارها ويدون آثارها ويسجل مشاهداته ويعبر عن انطباعه، بلغة انيقة وديباجة مشرقة واسلوب جلي وبيان طلي. وهو فضلاً عن ذلك، يهتم بالتاريخ، فإذا حدثنا عن المهدية استعرض تاريخها وتاريخ العبيديين فيها. وكان مغرماً بتراجم اهل الأدب، ولذلك فهو يتقصى اخبارهم وينبش عن آثارهم ويدون اشعارهم. بل ان الرجل فعل اكثر من ذلك فقد دون في «تقييده»، كما سمى اخبار رحلته، ما كان يرد عليه من الرسائل المنظوم منها والمنثور، وما يرد عليها به من نثر أو شعر. ولذلك فقد كان هذا التقييد ترجمة وتاريخاً ورحلة وادباً وانساباً للقبائل. انه سحر حلال.

اما طريق الرحلة فقد كانت على ما يلي: خرج الجمع من تونس الحاضرة الى سوسة، ثم اتخذ القوم طريقاً داخلية حملتهم الى الجم ثم الى سفاقس فقابس. ومن هذه زارت الجماعة توزر وعادت الى قابس فتجفت حيث عرجت على جزيرة جربة. ورجعت الى الداخل الى غمراسن فزاوارة فصبرة فطرابلس فمصراته. وكانت طريق العودة اقرب الى الساحل بحيث لم يعرج التجاني على اي من الأماكن الداخلية.

قلنا ان التجاني كان يدون ما يرد اليه من الرسائل وما يبعث به رداً لو بدءاً. ولعل القارىء الكريم يقبل منا مثلاً واحداً من هذه المساجلات والمخاطبات. فقد روى التجاني انه اثناء اقامته بتوزر وصلت اليه رسالة من ابن شبرين، بعضها شعر وبعضها نثر. وقد اورد نص الرسالة في «تقييده» ولكن بعد ان عرف قارئه بابن شبرين. قال: «وفي اثناء اقامتنا بتوزر وصلت إلي قصيدة من الفقيه الأجل الأديب ابي بكر محمد بن احمد بن شبرين الجذامي السبتي من مستقره غرناطة. وهذا الرجل من اعظم من رأيت تحقيقاً، واحسنه في النظم والنثر طريقاً. وقد كنت اجتمعت به بتونس ووصل الينا في الخامس لذي القعدة من عام ثلاثة وسبعمائة، وكان في نيته التوجه الى الحج، فلم يقض له ذلك، فأقام بتونس مدة ثم ارتحل عنها عائداً الى وطنه سبتة... فاتفق بعد وصوله الى بلاده من اخذ البلد ما اتفق، وطرق اهله من التشتيت بسبب ذلك ما طرق فكان... ممن انتقل الى غرناطة[٥]». ثم يروي القصيدة ومنها:

«يا نسمة سحبت فضول ذيولها ... ما بين ورد بالعذيب ونرجس
والورق قد صدحت على أفنانها ... والأرض قد لبست ثياب السندس
حطي رحال تحيتي في معهد ... بين الجوانح منه عهد ما نسي
والحي من تيجان فاشرح عندهم ... فرط اشتياقي نحو ذاك المجلس»[٦]

وكان مما جاء في قصيدة التجاني جواباً على ذلك قوله، وفيه تعزية عما حل به وبأهله وببلده:

«امر من الله لا مرد له ... لم يبق كهلاً منهم ولا يفعا
وخدعة تم امرها فمضت ... وكم سديد الآراء قد خدعا
هاك سلامي على البعاد ابا ... بكر فقلبي إليك قد نزعا
وثق بود ادين فيك به ... ملتزماً منه كل ما شرعا
ان حال خل عن المودة او ... اجاب داعي السلوّ حين دعا
فاعلم باني والصدق من شيمي ... ممن رأى حفظ عهده ورعا
وانني ما قطعت ذكرك بل ... ما زلت للشكر فيك منقطعا»[٧]

ولما كان عبد الله التجاني في قابس وصلت اليه كتب من ابيه، وقد صدَّر احدها بالأبيات التالية، التي تدل على صلة الود بين الابن والأب:

«حملتم القلب اذ جد الرحيل بكم ... من الصبابة ما لا تحمل الإبل
فلو سلكتم سبيل الحزم ما عجزت ... اذ ذاك مني على دفع النوى الحيل
لكن عراني ذهول يوم بينكم ... كما يكابد من احبابه رحلوا
فالله يجمع منا الشمل عن عجل ... فالخير اجمل ما في نيله العجل»[٨]

تقييد التجاني، كما يحب المؤلف ان يسمي رحلته، هي أدب وتاريخ وجغرافية ووصف المجتمع الذي رآه وخالطه. وقد صيغت، كما قلنا من قبل، باسلوب جميل وعبارة انيقة، بحيث انك تحس كأن الأشياء التي يتحدث عنها «تتقولب» امامك. ولعله من المؤسف ان التجاني لم يخلف لنا وصفاً لتونس، ولكن من الطبيعي ان يقيد الرحالة ما يمر به خارج منطقة عيشه وسكنه.

نالت صفاقس وصفاً لطيفاً اذ قال عنها «ووصلنا الى صفاقص ظهراً فرأيت مدينة حاضرة ذات سورين يمشي الراكب بينهما ويضرب البحر في الخارج منهما، وكانت بها قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها فافسدتها العرب فليس بخارجها الآن شجرة قائمة وفواكهها مجلوبة اليها من قابس وماؤها شراب لا يساغ وإنما يعتمدون في شربهم على ما يدخرونه من مياه الأمطار، ويصطاد بها من السمك أنواع تفوت الاحصاء وببحرها يوجد صوف البحر الذي يعمل منه الثياب الرفيعة الملوكية وربما وجد في بحرها صدف يشتمل على لؤلؤ صغير الحب ومرساها مرسى حسن ميت الماء والماء يمد به ويجزر عنه كل يوم، فإذا جزر استوت السفن على الحماة واذا مد عامت»[٩].

اما قابس فتنال من قلمه صورة لطيفة، يقول: «واصبحنا يوم الاثنين مرتحلين فأشرفنا على غابة قابس، ووصلنا اليها ضحى فرأينا بلداً قد استوفى المحاسن واستغرقها، واذكر بمنظره الانضر، وورقها الاخضر، جنة الخلد واستبرقها، وقد احدقت غابته من جميع جهاته، وبهذه الغابة من الجواسق، والنخل المتناسق، ما يستوقف الطرف، ويستوفي الحسن والظرف، ويحقق ما قيل ان قابس جنة الدنيا، وانها دمشق الصغرى، وهي مدينة بحرية صحراوية فإن الصحراء متصلة بها، والبحر على ثلاثة اميال منها»[١٠].

ولعل جزيرة جربة لم يصفها احد من رحّالي العصور الوسطى واوائل العصور الحديثة، بمثل الدقة التي وصفها بها التجاني. قال عنها: «وجزيرة جربة من اعظم الجزائر خطراً، واشهرها في سالف الزمن عمارة وذكرا، وطولها من المغرب الى المشرق ستون ميلاً... وأما عرضها فمختلف. فعرض الرأس الغربي منها عشرون ميلاً، وهو الطرف الواسع. ومن هذا الموضع الى جزيرة قرقفة في البحر ستون ميلاً؛ وعرض الرأس الشرقي منها خمسة عشر ميلاً وهو اضيق مكان بها، وهي ارض كريمة المزارع، عذبة المشارع، واكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين. وبها اصناف كثيرة من سائر الفواكه، الا ان هذه هي اكثر ثمرها وعليها مدار غلاتها، وغيرها من

كرائم الارضين لا يقاربها على الجملة في ثمارها او يساويها، وتفاحها لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير، لما يوجد بها منه صفاء وجفافاً وطيب مذاق وعطارة استشاق، ورائحته توجد من المسافة المديدة، والأميال العديدة، وكان من شجره بهذه الجزيرة قبل هذا كثير، ثم قل الآن بسبب ان النصارى يتحفون به ملوكهم وكبارهم دون تعويض لأربابه عنه، فرأى اهل الجزيرة ان غيره من الشجر اعود بالفائدة عليهم فقطعوا اكثره، واختصت هذه الجزيرة ايضاً دون غيرها من البلاد بحسن الأصواف المحمودة الأوصاف التي ليس بافريقية لما ينسج من اثوابها نظير، وذلك معلوم من امرها شهير.

«واكثر مساكن اهلها اخصاص من النخيل، يجعل كل واحد منهم في ارضه واحداً أو اثنين أو اكثر من ذلك ثم يسكنه بعياله، وليس بها بناء قائم الا دور قليلة»[١١].

وقد ذكرنا من قبل ان التجاني اوغل مع ابن اللحياني في داخل القطر التونسي. ونكتفي بنقل ما جاء في رحلته عن توزر. يقول الرحّالة: «توزر هي قاعدة البلاد الجريدية وليس في بلاد الجريد غابة اكبر منها ولا اكثر مياهاً، واصل مياهها من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في وادٍ متسع وتتشعب منه جداول كثيرة، وتتفرع عن كل جدول منها مذانب يقسمونها بينهم على املاك لهم مقررة مقاسم من المياه معروفة، ولهم على قسمها امناء من ذوي الصلاح فيهم يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم في ذلك معروف، وأمر مقرر مألوف، وعلى ذلك الماء أرحاء كثيرة منصوبة، ومن العجب ان هذا الوادي يحتمل ما يحتمل من غثاء أو غيره، فإذا انتهى الى المقسم افترق هنالك اجزاء بالسوية على عدد المسارب فمضى كل قسم منها الى مسرب منها، وهذا مما شاهدته فيها عياناً. وكثير من اهلها انما يسكنون بغابتها ولا مناسبة بين مباني الغابة ومباني داخل البلد فإن مباني الغابة اضخم واحسن. وبداخل البلد جامعان للخطبة وحمام واحد ومتفرجهم بموضع يعرفونه بباب المنشر، وهو من احسن المتفرجات لأن مجتمع الماء هنالك ومنه يتفرع كما تقدم، ويجتمع به القصارون فينشرون هنالك من الثياب الملونة والأمتعة الموشية ما يعمه على كبره فيخيل للناظر انه روض تفتحت ازهاره، واطردت انهاره، وليس بتوزر احسن من هذا الموضع وهو خارج عن غابتها، والغابة ملاصقة لسور المدينة فهي بذلك تمت حصانتها»[١٢].

قضى التجاني سنة ونصف السنة في طرابلس الغرب. فأتاح له ذلك الفرصة للتعرف الى المدينة واهلها وعلمائها ومباهجها. ولذلك فهو يتحدث عنها بشيء كثير من الحرارة والحب. وها نحن اولاً نسمح لأنفسنا بأن ننقل عنها اكثر مما نقلنا عن غيرها. فالمهم، بالنسبة الى القارىء، هو ان يتعرف الى الأماكن ويتذوقها تذوق الرحّالة نفسه.

وصل التجاني طرابلس فقال يصف اثر ذلك في نفسه: «ولما توجهنا الى طرابلس واشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشي الأبصار فعرفت صدق تسميتهم بها بالمدينة البيضاء. وخرج جميع اهلها مظهرين للاستبشار رافعين اصواتهم بالدعاء، وتخلى والي البلد اذ ذاك عن موضع سكناه وهو قصبة البلد فنزلنا بها، ورأيت آثار الضخامة بادية على هذه القصبة، غير ان الخراب قد تمكن منها، وقد باع الولاة اكثرها فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن انما استخرجت منها، ولها رحبتان متسعتان، وفي الخارج منها المسجد المعروف في القديم بمسجد العشرة لأن عشرة من اشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة فيدبرون أمر البلد وذلك قبل تملك الموحدين لها فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم، وزال عن المسجد ذلك الاسم»[١٣].

ودخل الحمام وجال في الشوارع واطل على البحر فقال في ذلك «ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة فرأيت حماماً صغير الساحة الا انه قد بلغ من الحسن غايته، وتجاوز من الظرف نهايته، وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها، وهو الآن محبس على بعض المساجد وبالبلد حمامان آخران غيره الا أنهما في الحسن دونه، ورأيت شوارعها فلم أرَ اكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعاً واستقامة، وذلك ان اكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من اولها الى آخرها على هيئة شطرنجية... ورأيت بسورها من الاعتناء واحتفال البناء، ما لم أره لمدينة سواها، وسبب ذلك ان لأهلها حظاً من مجباها، يصرفونه في رم سورها، وما تحتاج اليه من مهم أمورها، فهم لا يزالون ابداً يجددون البناء فيه ويتداركون تلاشيه بتلافيه[١٤].

«وبخارج باب البحر منها منظر من انزه المناظر مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة، وهو مرسى حسن متسع تقرب المراكب فيه من البر وتصطف هنالك اصطفاف الجياد في اواريها»[١٥].

تعرف التجاني الى مدارس طرابلس وعلمائها وشاركهم في مجالسهم. ونتج عن ذلك ان وضع كتابين هما «تقييد على صحيح مسلم» و«تقييد على المسند الصحيح للبخاري». وها نحن اولاً نقدم الى القارىء الكريم وصفه لأحدى المدارس وحديثه عن واحد من العلماء الاعلام: «وبداخل البلد مدارس كثيرة واحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه ابي محمد عبد الحميد بن ابي البركات بن ابي الدنيا رحمه الله تعالى وذلك فيما بين سنة خمس وخمسين الى سنة ثمان وخمسين، وهذه المدرسة من احسن المدارس وضعاً واظرفها صنعاً»[١٦].

اما العالم الذي يتحدث عنه فهو الامام الحافظ، يقول: «والقائم برسم العلم في هذه البلدة في وقتنا هذا شيخنا الامام الحافظ ابو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم ابن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبيد وهو رجل ليس من عمرو ولا زيد، ناهيك من رجل قد نال من المعارف ما اشتهى، وحاز فيما حاز من

العلوم الأصولية والفرعية الغاية والمنتهى، حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فرأيت رجلاً متضلعاً من العلم ذاكراً بالمذهب ذكراً لا يجاريه فيه احد، ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه، حسن العبارة، مشاركاً في علوم جمة، وله اعتناء بحفظ كلام القرويين في المذهب من تعليل أو تفسير أو تفريق أو تخريج. واعتماده في الاصول الدينية والفقهية على كلام الامام ابي المعالي، وكلام الشيخ ابي حامد الغزالي، وهو سبائي النسبة من ولد سبأ بن يسجب بن يعرب بن قحطان، واخبرني ان مولده بطرابلس عام تسع وثلاثين وستمائة، وأكثر استفادته على ما اخبرني على الفقيه القاضي ابي موسى عمران ابن موسى بن معمر الطرابلسي رحمه الله تعالى، وليس له رحلة عن بلده الا الى الحج، حج في عام ثلاثة وسبعمائة.

«ولما حضرت درسه تحققت مكانته المكنية في العلم، احببت القراءة عليه مدة اقامتنا هنالك، وطلب مخدومنا ان يكون ذلك بمحضر منه فلم يكن به من استدعاء الشيخ لموضع سكنانا فعقدنا مجلساً لذلك بالقصبة وفي مجلس الأمر منها، وطلب الحضور بذلك المجلس جماعة من اعيان الطلبة بالبلد فأذن لهم، ورأينا ان يكون المقروء حديث خير الانام، الذي هو الاصل لجميع الاحكام، فابتدأت القراءة بلفظي لصحيح مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري رحمه الله تعالى في غرة شهر شعبان من العام المذكور قراءة تفقه فيه، وتدقيق للبحث في الفاظه الكريمة ومعانيه، وقد كنت ابتدأت تقييد ما انتجته فيه بيننا المناظرة، وافادته المحاضرة، مما جاء كالاكمال، لكتاب «الاكمال»، ثم بعد ذلك في الشهر نفسه ابتدأت قراءة دولة اخرى من كتاب المسند الصحيح للامام الحافظ ابي عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري رحمه الله، وامتد في قراءتهما مدى، قرىء فيه منهما ما هو نور وهدى، الى ان دعا بنا داعي البين فاعجلت النقلة عن تمام الكتابين»[١٧].

هذا هو التجاني الرحّالة العالم الأديب، وهذه نماذج من رحلته اقتبسناها عن طبعة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب التي نشرت بتونس سنة ١٩٥٨ باسم «رحلة التجاني».

الهوامش

(١) راجع رحّالة من المغرب، ص ١١٧.
(٢) التجاني، ابو احمد عبد الله: «رحلة التجاني»، تونس، المطبعة الرسمية، ١٩٥٨، ص ٤.
(٣) نفس المكان، ص ٣٩٣.
(٤) نفس المكان، ص ٢٧م ـ ٢٨م.
(٥) نفس المكان، ص ١٦٤.
(٦) نفس المكان، ص ١٦٥.
(٧) نفس المكان، ص ١٧٠.

(٨) نفس المكان، ص ١١٧.
(٩) نفس المكان، ص ٦٨.
(١٠) نفس المكان، ص ٨٦ ـ ٨٧.
(١١) نفس المكان، ص ١٢١ ـ ١٢٣.
(١٢) نفس المكان، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.
(١٣) نفس المكان، ص ٢٣٧.
(١٤) نفس المكان، ص ٢٣٨.
(١٥) نفس المكان، ص ٢٤٦.
(١٦) نفس المكان، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.
(١٧) نفس المكان، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦.

شيخ الرحّالين: ابن بطوطة

ان الرجل الذي يقضي ثماني وعشرين سنة من حياته يتنقل في اجزاء العالم المعروف، فتحمله اسفاره من طنجة إلى مصر عبر شمال افريقية ثم إلى الشام وبعد ان يؤدي فريضة الحج يزور ايران وبلاد العرب وشرق افريقية ويدخل القرم وحوض الفولغا الادنى ويعرج على القسطنطينية، بعد هذا كله يمعن في الرحلة شرقاً إلى خوارزم وبخارى وكردستان وافغانستان والهند والصين وجزر الهند الشرقية وجزر الملديف، وبعد ان يعود إلى بلده يعاوده الحنين إلى السفر فيزور الاندلس والسودان، ويقطع في اسفاره ما لا يقل عن ١٢٠,٠٠٠ من الكيلومترات، ان رجلاً هذا شأنه يعتبر بحق شيخ الرحّالين العرب، وسيد الرحّالين اطلاقاً في عصره، أي في القرن الثامن هـ (الرابع عشر).

ابن بطوطة من مواليد طنجة، عروس المغرب، ولد فيها سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م وفيها درس العلوم الشرعية على ما عرف عن اسرته من اهتمام بها. فلما بدأ رحلاته كان قد اصبح ممن يشار إليهم بالبنان في هذه العلوم. وقد عرف الحجاج المغاربة رفاقه في السفر فضله وهم في الطريق إلى مصر فجعلوه قاضياً لهم، مع انه كان في الثانية والعشرين من سنه. وقد اجتاز ابن بطوطة المغرب والجزائر وتونس وليبيا إلى مصر وهبط الاسكندرية، فأعجبته فقال: «ثم وصلنا في أول جمادى الاولى إلى مدينة الاسكندرية (حرسها الله)، وهي الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشان، والاصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين. كرمت مغانيها، ولطف معانيها، وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها. فهي فريدة تجلى سناها، والخريدة تجلى في حلاها الزاهية بجمالها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة لها اجتلاؤها، وكل طرفة فإليها انهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا في عجائبها فأغربوا»[1].

وانتقل من الاسكندرية إلى القاهرة مجتازاً الدلتا، ولم يتمكن من الذهاب إلى الحجاز بحراً من عيذاب على النحو المألوف لأن سلطان البجاة قد خرق المراكب، فلم يكن ثمة سبيل إلى قطع البحر الأحمر، فاضطر إلى السير من القاهرة إلى الشام ومنها رافق الحاج الشامي إلى المدينة ومكة. وهنا ننقل جزءاً من وصفه للطريق من بدر إلى مكة. قال: «ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع البزواء. وهي برية

يضل بها الدليل، ويذهل عن خليله الخليل، مسيرة ثلاث، وفي منتهاها وادي رابع، يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زماناً طويلاً. ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة. وسرنا من رابغ ثلاثا إلى خليص، ومررنا بعقبة السويق، وهي على مسافة نصف يوم من خليص، كثيرة الرمل، والحجاج يقصدون شرب السويق بها، ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك، ويسقونه الناس مخلوطاً بالسكر. والامراء يملأون منه الاحواض ويسقونها الناس. ثم نزلنا بركة خليص وهي في بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل، لها حصن مشيد في قنة جبل. وفي البسيط حصن خرب، وبها عين فوارة، قد صنعت لها اخاديد في الارض وسربت إلى الضياع. وصاحب خليص شريف حسني النسب. وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقاً عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر والأدام»[٢].

وبعد تطواف دام سنين، منها ثمانية اعوام قضاها في الهند وغيرها في جنوب شرق آسية، عاد إلى مصر ومنها إلى طنجة ٧٥٠/ ١٣٤٩ وحط رحاله بعد ذلك في فاس في بلاط السلطان أبي عنان. ومن فاس خرج في رحلتين الواحدة إلى الاندلس والثانية إلى السودان الغربي (٧٥٢/ ١٣٥٢) وهذه دامت سنتين. وتوفي ابن بطوطة في المغرب سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨ ـ ١٣٦٩م.

وفي بلاط ابي عنان المريني تحدث ابن بطوطة عن اسفاره ـ قص اخباره على السلطان نفسه وعلى خواصه وعلى العلماء. فاعجب السلطان بها، ولذلك صدرت ارادته إلى الرحّالة بان «يملي ما شاهده في رحلته من الامصار، وما علق بحفظه من نوادر الاخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار وأوليائها الأبرار»[٣]، ووضع السلطان كاتبه ابن جزي تحت تصرف الرحالة. فكانت لنا من ذلك هذه المتعة الأدبية التي ننعم بقراءتها فنطلع على كنوز من المعرفة، فنذكر بالخير الرحالة والسلطان وابن جزي.

يجدر بنا ان نذكر ان ابن بطوطة كان قد فقد اوراقه وكتبه غير مرة، ولذلك فقد املى الرّحلة من الذاكرة. وهذه الاسفار التي قام بها، لم يكن من السهل تذكرها مرتبة منظمة، ومن ثم فقد بدا في الرحلة شيء من الاختلاط الذي اثار بعض الريب في نفوس معاصريه ومن جاء بعدهم، مثل ابن خلدون وفران. لكن اكثر الذين درسوا الرجل واسفاره مجمعون على انه كان صادقاً مخلصاً اميناً فيما نقل وشاهد وروى وتذكر. اما الخطأ أو السهو فسببه بعد الشقة وطول الزمن.

ولابن بطوطة، في رحلته، خصائص جديرة بعنايتنا. منها انه كان قليل الحفاوة بالأرض والمدن، ولكنه كان عظيم الاهتمام بالناس وخاصة بالعلماء والأولياء. ومن ثم فالرجل، بالاضافة الى كونه رحّالة من الطبقة الأولى، يمكن اعتباره مؤرخاً اجتماعياً للمسلمين في عصره.

وحري بنا ان نشير هنا الى ان ابن بطوطة عاش في عصر، كانت حضارة العرب والاسلام قد بدأت بالوقوف عن التقدم نتيجة لعوامل كثيرة، لعل اهمها التجميد الرسمي الذي فرضته الدولة على العقل ونشاطه فحصرت الجهد الفكري فيما من شأنه ان يقوي كيانها ـ مؤيداً بالدين ـ ويظهر زيغ خصومها. وهكذا فالحضارة العربية تبدو في صفحات ابن بطوطة قليلة الحركة والنشاط والتوثب وتطلع علينا وكأنها لا دينامية لها. ولعل القارىء رأى من بعض ما نقلناه قبلاً عن العبدري مثلاً ان بوادر مثل هذه الحال كانت قد طلعت من قبل. ولكن هذا الأمر يبدو واضحاً كل الوضوح في صفحات ابن بطوطة ـ في اختباراته وزياراته واتصالاته والرجال الذين قابلهم. وقد يقال ان ابن بطوطة بحكم تكوينه الفكري لم يتصل الا بفئة من اهل العلم توازيه وتسامته. لكن ابن بطوطة، كان يسير يقظ الذهن مفتوح العين، ويصف ما يرى ويسمع وتتطبع الصور في نفسه انطباعاً جيداً. فلو وقع على اختبارات حاسمة في ميادين الفكر الوثاب، او اتصل بأصحاب العقول التي تنفذ الى ابعد من المألوف لكان صرح أو لمح. ولكن لم يسعد الحال فلم يسعد النطق.

ولا يتسع المجال هنا لنقل الكثير من رحلة ابن بطوطة، ولذلك فإننا نجتزىء بالقليل القليل.

في الخليج العربي ـ «وأكلت في ذلك المركب نوعاً من الطعام لم آكله قبله ولا بعده، صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة، طبخها من غير طحن، وصب عليها عسل التمر وأكلناه. ثم وصلنا الى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب الذي كنا فيه، جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها الا من السمك، ولم ننزل اليها لبعد مرساها عن الساحل. وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة. وقمنا بها يوماً، وتوجه صاحب المركب فيه الى داره وعاد إلينا. ثم سرنا يوماً وليلة فوصلنا الى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور، ورأينا منها مدينة قلهات في سفح جبل، فخيل لنا انها قريبة، وكان وصولنا الى المرسى وقت الزوال او قبله فلما ظهرت لنا المدينة احببت المشي اليها والمبيت بها، وكنت قد كرهت صحبة اهل المركب، فسألت عن طريقها فأخبرت اني أصل اليها عند العصر، فاكتريت احد البحريين ليدلني على طريقها، وصحبني خضر الهندي، وتركت اصحابي مع ما كان لي بالمركب ليلحقوا بي في غد ذلك اليوم. واخذت اثواباً كانت لي فدفعتها لذلك الدليل ليكفيني مؤنة حملها، وحملت في يدي رمحاً، فإذا ذلك الدليل يحب ان يستولي على اثوابي، فأتى بنا الى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر. فاراد عبوره بالثياب فقلت له: اذا تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا، فإن قدرنا على الجواز جزنا والا صعدنا نطلب المجاز، فرجع. ثم رأينا رجالاً جازوه عوماً، فتحققنا انه كان قصده ان يغرقنا ويذهب بالثياب. فحينئذ اظهرت النشاط واخذت بالحزم، ثم خرجنا الى صحراء لا ماء بها، وعطشنا واشتد بنا

الأمر، فبعث الله لنا فارساً في جماعة من اصحابه وبيد احدهم ركوة ماء فسقاني وسقى صاحبي، وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا، وبيننا وبينها خنادق تمشي فيها الاميال الكثيرة. فلما كان من العشي اراد الدليل ان يميل بنا الى ناحية البحر، وهو لا طريق له لان ساحله حجارة، فأراد ان ننشب فيها ويذهب بالثياب، فقلت له: انما نمشي على هذه الطريق التي نحن عليها، وبينها وبين البحر نحو ميل. فلما اظلم الليل قال لنا: ان المدينة قريبة منا، فتعالوا نمشي حتى نبيت بخارجها الى الصباح، فخفت ان يتعرض لنا أحد في طريقنا، ولم احقق مقدار ما بقي اليها، فقلت له: انما الحق ان نخرج عن الطريق فإذا اصبحنا اتينا المدينة (ان شاء الله)»[٤].

وقال في المغرب (وطنه) وقد قابله بغيره: «ثم سافرت عن تازى فوصلت يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعماية الى حضرة فاس فمثلت بين يدي مولانا الاعظم، الامام الاكرم، أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، أبي عنان، وصل الله علوه، وكبت عدوه. فأنستني هيبته سلطان العراق، وحسنه حسن ملك الهند، وحسن اخلاقه حسن خلق ملك اليمن، وشجاعته شجاعة ملك الترك وحلمه حلم ملك الروم، وديانته ديانة ملك تركستان، وعلمه علم ملك الجاوة.

«وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة، والمآثر الكثيرة، ابو زيان بن ودرار. فسألني عن الديار المصرية، إذ كان قد وصل إليها، فأجبته عما سأل. وغمرني من احسان مولانا ايده الله تعالى ما اعجزني شكره، والله ولي مكافأته. والقيت عصا التسيار ببلاده الشريفة، بعد ان تحققت بفضل الانصاف انها احسن البلدان... لأن الفواكه بها متيسرة، والمياه والاقوات غير متعذرة. وقل اقليم يجمع ذلك كله. ولقد احسن من قال:

الغـــــرب احـــــسن ارض ولـي دلـيـل عـلـيـــــــــه
الـبـــــــــدر يـرقـب مـنـه والشـــمس تســـعى اليـــه

«ودراهم المغرب صغيرة، وفوائدها كثيرة. واذا تأملت اسعاره مع اسعار ديار مصر والشام، ظهر لك الحق في ذلك، ولاح فضل بلاد المغرب. فأقول: ان لحوم الاغنام بديار مصر تباع بحساب ثمان عشرة اوقية بدرهم نقرة. والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب. وبالمغرب يباع اللحم إذا غلا سعره، ثمان عشرة أوقية بدرهمين. وهما ثلث النقرة. وأما السمن فلا يوجد بمصر في أكثر الأوقات، والذي يستعمله أهل مصر من أنواع الادام لا يلتفت اليه بالمغرب، ولأن اكثر ذلك العدس والحمص، يطبخونه في قدور راسيات، ويجعلون عليه الشيرج والبسلا، وهو صنف من الجلبان، يطبخونه ويجعلون عليه الزيت. والقرع يطبخونه باللبن، والبقلة الحمقاء يطبخونها كذلك. واعين اغصان اللوز يطبخونها ويجعلون عليها اللبن. والقلقاس يطبخونه. وهذا كله متيسر بالمغرب. لكن اغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك.

«واما الخضر فهي اقل الاشياء ببلاد مصر. وأما الفواكه فأكثرها مجلوبة من الشام. واما العنب فإذا كان رخيصاً بيع عندهم ثلاثة ارطال من ارطالهم بدرهم نقرة، ورطلهم اثنتا عشرة اوقية. واما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة، الا انها ببلاد الغرب ارخص منها ثمناً. فان العنب يباع بها بحساب رطل من ارطالهم بدرهم نقرة. ورطلهم ثلاثة ارطال مغربية. واذا رخص ثمنه بيع بحساب رطلين بدرهم نقرة والاجاص يباع بحساب عشر اواقي بدرهم نقرة. وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منه بثمانية فلوس، وهي درهم من دراهم المغرب. واما الخضر فيباع بالدرهم منها اقل مما يباع في بلادنا بالدرهم الصغير. واما اللحم فيباع فيها الرطل منه من ارطالهم بدرهمين ونصف نقرة.

«فإذا تأملت ذلك كله، تبين لك ان بلاد المغرب ارخص البلاد اسعاراً، واكثرها خيرات، واعظمها مرافق وفوائد. ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفاً الى شرفها، وفضلاً الى فضلها، بامامة مولانا أمير المؤمنين، الذي مد ظلال الأمن في اقطارها واطلع شمس العدل في ارجائها، وافاض سحاب الاحسان في باديتها وحاضرتها، وطهرها من المفسدين، وقام بها رسوم الدنيا والدين. وانا اذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته، واشتغاله بالعلم وتفقهه وصدقته الجارية، ورفع المظالم» [٥].

من افعال السودان

«فمن افعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه. وسلطانهم لا يسامح احداً في شيء منه. ومنها شمول الامن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان القناطير المقنطرة، انما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه. ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. واذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد، لم يجد اين يصلي لكثرة الزحام. ومن عادتهم ان يبعث كل انسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب الى المسجد. وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له. ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة. ولو لم يكن لأحدهم الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة.

«ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود، إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد، وأولاده مقيدون، فقلت له: الا تسرحهم؟ فقال: لا افعل حتى يحفظوا القرآن. ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل، فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا، أقتل؟ ففهم عني الشاب وضحك. وقيل لي: انما قيد حتى يحفظ القرآن»[٦].

الهوامش

(١) ابن بطوطة، «تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار»، باريس، المطبعة الوطنية، ١٨٧٤ ج١، ص ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) نفس المكان، ج١، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨.
(٣) راجع للمؤلف، «الرحالة العرب»، ص ١٢٣.
(٤) ابن بطوطة، ج٢، ص ٢١٩ ـ ٢٢٣.
(٥) نفس المكان، ج٤، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٧.
(٦) نفس المكان، ج٤، ص ٤٢١ ـ ٤٢٣.

ابن فضلان في بلاد الصقالبة

نحن في بغداد، في خلافة أمير المؤمنين المقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) وبغداد طبقت شهرتها الآفاق، ودار الخلافة العباسية كعبة القصاد. فالوفود اليها تترى، والبعثات منها كثيرة. وهؤلاء هم الصقالبة، وعاصمتهم على مقربة من قازان، ينتدبون منهم من يقصد الى عاصمة الخلافة لينوب عن ملكهم في الطلب الى أمير المؤمنين ان يرسل اليهم بعثة تفقه الملك وقومه في الدين وتعرفهم شرائع الاسلام، وتنشىء لهم مسجداً وتبني لهم حصناً يتحصن فيه الملوك من مخالفيهم وهم ملوك الخزر.

وما كان في وسع الخليفة ان يرفض مثل هذا الطلب، وجاراه في ذلك وزيره حامد بن العباس. فرأى الاثنان في مثل هذا التحالف خيراً، فانتدبا وفداً للقيام بما طلبه ملك الصقالبة. وكان الوفد فيه أربعة رجال رسميين (غير الحاشية) وكان فيه احمد بن فضلان الذي عهد اليه برئاسة الوفد. وهو الذي يقول عن نفسه «فندبت انا لقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدي اليه والاشراف على الفقهاء والمعلمين»[١].

بدأ الوفد رحلته من بغداد في ١١ صفر ٣٠٩ هـ [٢] (٢١ حزيران ـ يونيو ٩٢١) وقضى احد عشر شهراً حتى وصل الى ديار الصقالبة على الفولغا في ١٢ محرم ٣١٠[٣] (١١ ايار ـ مايو ٩٢٢) وكانت الطريق من بغداد الى نيسابور فبخارى فخوارزم فالجرجانية على نهر جيحون ثم توغل الوفد في بلاد الصقالبة على الفولغا.

واذا كان الوفد قد لقي المصاعب الكثيرة من البرد والتعرض للكيد والنهب وما الى ذلك، واذا كان ملك الصقالبة قد نعم بصحبة افراد الوفد إذ هبطوا عليه فقدموا بين يديه الهدايا، وانالوه مراده مما طلب من الخليفة، فإننا ننعم نحن اليوم، وقد مر على الرحلة الف ويزيد من السنين، بوصف دقيق طريف باسلوب ممتع شائق، لهذا الاختبار الفريد يقوم به ابن فضلان ثم يدونه لنا لنفيد منه. فنحن «نرى ان الرجل قد صور الرحلة والعادات والتقاليد والحياة والاخلاق في ذلك العصر، في مختلف المناطق التي مر بها أو أقام فيها، فلم يغفل كثيراً مما يحتاج اليه ذلك الزمان، وكان دقيق الملاحظة، يسجل اكثر ما يرى السائح، وينقل اليه ما يدور خلال السياحة من حوار ودسائس ويصف الحكام والأمراء ورجال الشعب على حد سواء ويرسم الهيئات والوجوه على ايجاز الرسالة وقصرها[٤] على ما يقول الدكتور محمد سامي الدهان محقق رسالة ابن فضلان في المقدمة.

وقد حفظ لنا ياقوت في غير مكان من «معجم البلدان» مقتطفات من هذه الرحلة وعني المستشرقون بها كثيراً لأنها احد المصادر النادرة للتعريف بالحالة في تلك المنطقة المنعزلة عن العالم نسبياً يومها. لكن قراء العربية اصبح الآن بوسعهم ان يقرأوا النص محققاً ومطبوعاً بفضل الدكتور الدهان (دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٩).

ونحن نترك لابن فضلان التحدث عن بعض ما شاهد ورأى، فذلك خير من ان نلخص بعض ما قال فنسيء الى ادب الرجل.

في الجرجانية : «فأقمنا «بالجرجانية» اياماً، وجمد «نهر جيحون» من اوله الى آخره. وكان سمك الجمد سبعة عشر شبراً، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق. وهو ثابت لا يتخلخل. فأقام على ذلك ثلاثة اشهر. فرأينا بلداً ما ظننا الا ان بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج الا ومعه ريح عاصف شديدة. وإذا اتحف الرجل من اهله صاحبه، واراد بره قال له: تعال الي حتى نتحدث فان عندي ناراً طيبة»... ولقد رأيت لهواء بردها بان السوق بها والشوارع لتخلو حتى يطوف الانسان اكثر الشوارع والاسواق، فلا يجد احداً ولا يستقبله انسان. ولقد كنت اخرج من الحمام، فإذا دخلت الى البيت نظرت الى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت ادنيها الى النار. ولقد كنت انام في بيت جوف بيت، وفيه قبة لبود تركية وانا مدثر بالاكسية والفرى، فربما التصق خدي على المخدة»[٥].

بين الغزية: «فلما قطعناه (جبلاً عظيماً كثير الحجارة) افضينا الى قبيلة من الاتراك يعرفون بالغزية. وإذا هم بادية، لهم بيوت شعر، يحلون ويرتحلون، ترى منهم الأبيات في مكان، مثلها في مكان آخر، على عمل البادية وتنقلهم، وإذا هم في شقاء... وليس يعرفون الزنا. ومن ظهروا منه على شيء من فعله شقّوه بنصفين. وذلك انهم يجمعون بين اغصان شجرتين، ثم يشدونه بالأغصان، ويرسلون الشجرتين فينشق الذي شد اليهما... وإذا اراد الرجل منهم الرحيل وقد قام عليه شيء من جماله ودوابه او احتاج الى ترك ما قد قام عند صديقه التركي، واخذ من جماله ودوابه وماله حاجته، ورحل. فإذا عاد من الوجه الذي يقصده قضاه ماله، ورد اليه جماله ودوابه»[٦].

عند الصقالبة: بعد وصول الوفد الى ملك الصقالبة واراحتهم قليلاً وجه اليهم الدعوة فقال ابن فضلان يصف ذلك: «فلما كان بعد ساعة وجه الينا، فدخلنا اليه، وهو في قبته، والملوك عن يمينه. وامرنا ان نجلس عن يساره، وإذا اولاده جلوس بين يديه، وهو وحده على سرير مغشى بالديباج الرومي، فدعا بالمائدة فقدمت، وعليها اللحم المشوي وحده. فابتدأ هو فأخذ سكيناً وقطع لقمة وأكلها، وثانية، وثالثة، ثم احتز قطعة دفعها الى «سوسن» الرسول. فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجعلت بين

يديه. وكذلك الرسم، لا يمد احد يده الى الأكل حتى يناوله الملك لقمة، فساعة يتناولها قد جاءته مائدة. ثم ناولني فجاءتني مائدة (ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة. ثم ناولها الملك الثاني فجاءته مائدة). ثم ناول الملك الرابع فجاءته مائدة، ناول اولاده فجاءتهم الموائد. واكلنا كل واحد من مائدته لا يشركه فيها احد، ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً، فإذا فرغ من الطعام، حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته الى منزله»[٧].

ودوّن ابن فضلان بعض العجائب التي لفتت نظره في ديار الصقالبة. فمن ذلك وصفه لليل والنهار. قال «ورأيت النهار عندهم طويلاً جداً وإذا انه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار. فلما كانت الليلة الثانية جلست خارج القبة وراقبت السماء فلم أر من الكواكب الا عدداً يسيراً ظننت انه نحو الخمسة عشر كوكباً متفرقة. واذا الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب بتة. واذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من اكثر من غلوة سهم... ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شيء فيه من الأرض والجبال وكل شيء ينظر الانسان اليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى، فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء. وعرفني اهل البلد انه اذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار، وعاد النهار في قصر الليل»[٨].

وتحدث عن بعض مآكلهم فقال في ذلك «وليس لهم زيت، ولا شيرج، ولا دهن بتة، وانما يقيمون مقام هذه الادهان السمك، فكل شيء يستعملونه فيه يكون زفراً. ويعملون من الشعير حساء يحسونه الجواري والغلمان. وربما طبخوا الشعير باللحم، فأكل الموالي اللحم واطعموا الجواري الشعير الا ان يكون رأس تيس فيطعم من اللحم»[٩].

ووصف ابن فضلان ارض الروسية وبلاد الخزر وشعوبهما ورسوم الملوك. فمما قاله من معاملة الروسيين للمرضى «واذا مرض منهم الواحد (ضربوا له خيمة) ناحية عنهم، وطرحوه فيها، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء، ولا يقربونه ولا يكلمونه، (بل لا يتعاهدونه) في كل ايام مرضه لا سيما ان كان ضعيفاً او مملوكاً. فإن برىء وقام رجع اليهم، وان مات احرقوه، فإن كان مملوكاً تركوه على حالة تأكله الكلاب وجوارح الطير»[١٠].

وقال ابن فضلان عن احدى مدن ملك الخزر «ولملك الخزر مدينة عظيمة على «نهر اتل»، وهي جانبان: في احد الجانبين المسلمون، وفي الجانب الآخر الملك واصحابه. وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له خز، وهو مسلم. واحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين اليها في التجارات مردودة الى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في امورهم ولا يقضي بينهم غيره»[١١].

الهوامش

(١) ابن فضلان، احمد: «رسالة ابن فضلان»، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٩، ص ٦٩.
(٢) نفس المكان، ص ٧٣.
(٣) نفس المكان، ص ١١٣.
(٤) نفس المكان، المقدمة، ص ٣٠.
(٥) نفس المكان، ص ٨٣ ـ ٨٥.
(٦) نفس المكان، ص ٩١ ـ ٩٥.
(٧) نفس المكان، ص ١١٥ ـ ١١٦.
(٨) نفس المكان، ص ١٢٥ ـ ١٢٧.
(٩) نفس المكان، ص ١٣٠.
(١٠) نفس المكان، ص ١٥٤ ـ ١٥٥.
(١١) نفس المكان، ص ١٧٢.

القسم الثالث

تجارة الخليج العربي

طريق البخور وطريق الحرير[1]

طريق البخور

كانت مصر وبين النهرين لهما علاقات تجارية قوية مع بلاد العرب الجنوبية، وخاصة مع اليمن، منذ أزمنة متغلغلة في القدم. واليمن كانت نقطة الاتصال بين الهند ومصر مثلاً منذ حول القرن الخامس عشر ق.م، ان لم يكن قبل ذلك. والذي كان يجذب التجار المصريين وغيرهم الى اليمن نفسها هو البخور. ذلك ان البخور كان يستعمل في كل هيكل ومعبد في العالم القديم، فكان وجوده ضرورياً. وحضرموت هي البلاد الوحيدة في العالم القديم التي كانت تنتجه. فكان لزاماً على الناس ان يحصلوا عليه منها، وكانت اليمن مركز هذه التجارة. ومنها تنتقل اما بطريق البحر الأحمر أو بطريق الحجاز ومن ثم توزع في اقطار العالم القديم ـ مصر والعراق وسورية وآسية الصغرى والعالم اليوناني وايطالية وغيرها.

كانت ظفار (في حضرموت) المكان الذي تجمع فيه غلات البخور وتنقل عن طريق وادي حضرموت الى اليمن، واليمن هي التي توزعه. وعلى طريق البخور هذه قامت دول اليمن الكبيرة، واحدة بعد والاخرى: معين وسبأ وحمير، وعلى هذه الطريق ظهرت المدن الكبرى في الجنوب العربي لبلاد العرب.

ولنتمكن من تصور الثراء الذي جلبته تجارة البخور للعرب، يجب ان نعرف بعض الكميات التي كانت تنقل على هذه الطريق وتستهلك في معابد العالم القديم. فقد كان في هيكل القدس غرف مقدسة مخصصة لخزن البخور. ونعرف ان أمون ارسل اليه في سنة واحدة في القرن الثاني عشر ق. م. ما زنته ١٥٩، ٢ جرة و٠٩٣، ٣٠٤ مكيال من البخور. واحرق كهنة بعل في بابل عشرة آلاف وزنة من البخور في السنة الواحدة. ولما نظّم دارا الكبير امبراطوريته وعلاقاته مع التجار العرب كانت حصته في العام الواحد الف وزنة من البخور. وقد ارسل الاسكندر الكبير خمسمئة وزنة منه من غزة لما احتلها الى معلمه هدية! واذا اضفنا الى ذلك الجنازات وما كان يحرق فيها من هذا البخور العربي ادركنا مصدر هذه الثروة الكبيرة التي تمتعت اليمن بها.

على ان اليمن كانت، فضلاً عن انها مركز للاتجار بالبخور، مركز التجارة الهندية مع البحر الأبيض المتوسط، وقد تقلبت هذه العلاقات التجارية تبعاً للدول التي كان

من واجبها ان تشرف على البحر الأحمر وما اليه. فنحن نرى مثلاً انه لما استقر البطالسة في مصر ونظموا شؤونها وانشأوا لهم اسطولاً في البحر الأحمر، نشطت التجارة كثيراً، وامتدت المنشآت التجارية المصرية الى الشاطىء الافريقي الصومالي والى جزيرة سوفطري، ومن هناك كان يحمل الى مصر العاج والعبيد والصدف. وكم نقل الهلينيون من الفيلة التي كانت عدة جيوشهم في معاركهم! ولمثل هذه المتاجر وغيرها حفر البطالسة الترعة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر، واصلحوا الطريق بين قفط (على النيل) وميناء برنيسي (على البحر الأحمر). لكن لما ضعف شأن البطالسة افلتت تجارة البحر الأحمر من ايديهم، واقتصر نقل المتاجر على طريق الحجاز البرية الى بطرا ومنها الى بقية الاسواق السورية وغيرها.

واخيراً احتل الرومان مصر، واعاد اغسطس السلم الى العالم الروماني، وحافظ خلفاؤه عليه. وادرك اغسطس قيمة البحر الأحمر في التجارة الرومانية الشرقية، فارسل حملة الى بلاد العرب، بقصد احتلال اليمن، لكن الحملة فشلت. ذلك ان اغسطس أمر غالوس، القائد العام في مصر، بان يسير ومعه عشرة آلاف جندي، وطلب من الانباط ان يمدوه بالف جندي وان يرشدوه في سيره. وكذلك امر اغسطس هيرودس ملك القدس ان يساعد غالوس في حملته واستعداده. وقد تولى الوزير النبطي «سيلوس» مهمة التموين والارشاد.

قامت الحملة من ارزينوي، وهي قرب السويس الحديثة، ونقل الجنود الى «لوكي كومي» على مقربة من ينبع، اي عبر البحر الأحمر تقريباً. ومن هنا بدأوا سفراً برياً طويلاً الى مأرب، والمسافة تقرب من الفين وخمسمئة كيلومتر، في بلاد لا يُعرف عنها شيء. وقد بدأ الجيش السير من لوكي كومي في ربيع سنة ٢٤ ق.م. فلقي صعوبات كبيرة لقلة الماء، واخيراً وصل الى نجران فحاصرها واحتلها ودمرها انتقاماً لنفسه مما اصابه في الطريق. ثم التقى الرومان بجيش عربي الى الجنوب من نجران فانتصروا عليه. ويروي بعض من ارخ للحملة ان الرومان احتلوا مدينتين، لعلهما براقش والبيضاء الحديثتان. وترك غالوس هناك حاميته ثم سار الى مريما وحاصرها ستة ايام، لكن الرومان اضطروا اخيراً الى الانسحاب، فارتدوا على اعقابهم، ولم يبلغوا مأرب، ومريما تقع الى الجنوب الشرقي من مأرب. وهنا يبدو لنا ان نسأل انفسنا عن الخطة التي كان يتبعها غالوس لمهاجمة المدينة المقصودة. ولعل التفسير الوحيد لحركاته هو انه اراد ان يحيط باطراف اليمن قبل مهاجمة القلب. فكانت النتيجة الفشل بعد سفر دام ستة شهور.

والغريب ان غالوس عاد بنفس الطريق، ولعل السبب هو انه لم يكن لديه سفن تمكنه من العودة بحراً. وعند حدود المملكة النبطية نقل جنده عبر البحر الاحمر الى القصير ومنها الى قفط فالاسكندرية.

وقـد اتُهم سـيلوس الوزير النبطي بانه غـرر عـمـداً لتظل التجـارة بايدي العـرب، لذلك اعدم في رومة بعد الحملة بمدة.

على انه وان كان اغسطس فشل في امتلاك اليمن، فإن النظام الذي اعيد الى مصر ادى الى انتعاش التجارة، حتى اننا نجد ان سترابو يتحدث فيما بعد عن ميوس هرموس، على البحر، فيذكر ان مئة وعشرين سفينة سافرت منها في سنة واحدة الى الهند.

احتفظ العرب باحتكارهم لطريق التجارة الى اواسط القرن الأول للميلاد، لما اهتدى هبالوس الى سر الرياح الموسمية ومواعيد هبوبها، وعندئذ نفذ «الغربيون» الى مياه المحيط الهندي. لكن ذلك كان قليلاً. وظلت تجارة البخور، بأيدي العرب. واكتشاف سر الرياح الموسمية ادى الى تنظيم السفر مباشرة. ففي تموز كانت السفن تقلع من مصر، فتصل الى المحيط الهندي، والرياح الموسمية في اقوى هبوبها، فتحملها الى الهند فتصل في شهر ايلول، ويقضي التجار شهرين هناك لبيع البضائع وتجهيز السفن بالبضاعة الجديدة، ويبحرون في تشرين الثاني فتنقلهم الرياح الموسمية الشتوية الى عدن. وفي شهر شباط تكون المتاجر قد وصلت الى الاسكندرية.

ترتب على هذا كله ان ازدادت كميات المتاجر المتبادلة بين الهند والعالم الروماني، بحيث اصبح الكتّاب الرومان ينعون على قومهم افراطهم في الاستمتاع بهذه الكماليات الغريبة. واستمرت الزيادة الى اوائل القرن الثالث للميلاد، اذ اضطربت شؤون الامبراطورية الداخلية فاختلت تجارتها تبعاً لذلك.

اما الموانىء التي كانت السفن تبحر منها وتعود اليها فهي ارزينوي (عند رأس خليج السويس) وميوس هرموس (في منتصف الشاطىء المصري)، وتبعد سبعة ايام عن قفط (على النيل)، والثالثة برنيسي وهي في طرف الولاية المصرية الجنوبي. هذه موانىء مصر. اما الانباط فقد كان لهم ايلة (العقبة) ولوكي كومي. ومن هنا تنقل المتاجر الى بطرا. وقد كانت هذه الطريق تغص بالمسافرين، والقوافل التي تجتازها اقرب الى الجيوش، من حيث ضخامتها، منها الى التجار. والظاهر ان جماعة من الرومان كانوا يقيمون في بطرا. وبعد احتلال الرومان لدولة الانباط اقاموا في لوكي كومي موظفاً خاصاً يجمع الضرائب المدفوعة عن السفن التي تأتي الميناء.

هذه كلها موانىء الشمال، اما في الجنوب فقد كان على الشاطىء الافريقي مدينة ادونيس حيث تحفظ منتوجات الحبشة واهمها العاج والجلود والاصداف والعبيد. وهنا كانت هذه تبادل بما تحمله السفن من قماش مصر وزجاجها وزيوت سورية وخمورها وسيوف وادوات اخرى كثيرة تأتي من جهات مختلفة. واما الشاطىء العربي ففيه مخا ولعلها كانت اكبر الموانىء اهمية في هذه المنطقة، وهناك «أوكليس». اما خارج البحر الاحمر فقد كانت عدن اكبر الموانىء المعروفة حتى حضرموت.

اما جماع ما كان يتاجر به عن هذه الطريق، التي سميناها طريق البخور لاهمية هذه التجارة، فهو الزيوت والاقمشة واللآلىء والجواهر والارز والبهارات والعاج والخمور والطيوب والاصداف والفيلة. هناك كانت تتبادل السفن احمالها واثقالها.

وقد كان من الطبيعي ان يتصل الغرب بالصين بحراً عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندي لكن هذا جاء في اخريات القرن الثاني. واهم ما كان ينقل من الصين الى العالم الروماني هو الحرير، لكن هذا كانت له طريق برية.

طريق الحرير

كانت التجارة البرية بين البحر المتوسط وشرقي آسية رائجة في العصر الهليني، ولكنها تأخرت قليلاً في القرن الأول ق.م. على ان استقرار أمور الامبراطورية الرومانية في شرقي حوض البحر المتوسط اعاد الى التجارة سابق عزها. وقيام الدولة الفرثية والخصومة التي كانت بين ملوكها واباطرة رومة لم تمنع القوافل التجارية المحملة حريراً من الشرق ان تجتاز بلادها الواسعة لتبيع حمولتها في صور، وبيروت، بحيث زادت كمية التجارة الشرقية الرومانية في القرنين الأول والثاني للميلاد زيادة كبيرة عن تجارة العصر الهليني.

ويرجع الفضل الى تجار فرثية في فتح طريق الحرير عبر تركستان واحتكار التجارة في هذا الصنف. وقد كان هؤلاء التجار قديرين دقيقين منظمين، فبنوا طرقاً مكنتهم من نقل متاجرهم في مركبات بدل نقلها على ظهور الدواب!

والحرير كان المادة الصينية الرئيسية في الاتجار مع العالم الروماني، إذ كان تسعة اعشار ما يستورده هذا العالم من الصين. وكان الحرير الخام وخيوطه والقماش الحريري ينقله التجار الى موانىء سورية (بيروت وصيدا وصور وغزة) حيث يعالج هناك بالاصبغة المختلفة صالحاً للاستعمال. أما السلع الاخرى التي كانت تأتي من الصين فتشمل الفراء والحديد ونباتات عقارية.

اما العالم الروماني فكان يبعث بمنتوجاته هو الآخر، الى الصين والى الهند. وطريق الحرير هذه كانت نهايتها الغربية مدن سورية والعراق. وفي العراق كانت لها ثلاثة مراكز: سلوقية وكتسيفون (المدائن) وفولوغسياس في جنوب العراق. وطريق الحرير كانت تبدأ من سلوقية (على دجلة) او المدائن، وخاصة من هذه التي انشأها الملوك الفرثيون. والطريق كانت تمر، بعد المدائن، بجبال زغروس الى اكبتانا (همذان) ومرو وبكثرا (بلخ) وسمرقند وكشغر. ثم تجتاز الطريق بلاد سريس او سكاي وهم قبائل شبه بدوية، والبلاد هي التي تسمى اليوم تركستان، وهنا كان «سوق الحرير». لكن الطريق كانت تتجه بعد ذلك مارة بحوض تاريم ثم تخترق جنوباً في شرق حتى تصل «هسيان ـ فو» وهي بلاد الحرير.

الحد الفاصل في هذه الطريق الطويلة، اي المكان الذي يلتقي فيه التاجر

الصيني والتاجر الفرثي دون ان يحاول احدهما اجتيازه الى بلاد الآخر ـ هذا الحد الفاصل يقع عند مكان يسمى «برج الحجر» (وقد اتفق على انه طاشكرغان)، بين كاشغر وسمرقند. هناك كان التجار الصينيون ينتظرون الفرثيين، فيضعون ما معهم من حرير خام او غزولات او اقمشة على ضفة النهر ويأتي الآخرون يحملون الحجارة الكريمة والكهرمان والمرجان. ولم يتبادل التجار كلمة واحدة، ولكن يختار كلٌ ما يريد ويضع مقابله قيمته ثم ينسحب، حاملاً بضاعته الجديدة.

ورغم المحافظة الشديدة واليقظة التي كانت تبذل للاحتفاظ بهذه الطريق سراً للجماعات المعنية بها ـ كل في جهته، فقد تمكن رجلان من اجتياز الحدود المألوفة. الأول كان من الصين اسمه «كان ينغ» الذي انتدبه احد القواد الصينيين ليجمع له من المعلومات ما قد ييسر له افتتاح بلاد الفرثيين. فتمكن هذا من الحصول على معلومات دقيقة دونها في تقريره. فذكر مناطق البريد ومراكزه والمسافات والاجواء والمنتوجات والمعادن. ووصل سورية وقال عن اهلها انهم امينون في معاملتهم. ونقل ما وصل اليه عن السفر البحري الى الهند، بطريق البحر الأحمر. وقد قام بسياحته في اواخر القرن الأول للميلاد.

اما الثاني فهو «ميس تتيانوس» وهو تاجر ثري سوري، اراد ان يتعرف الى طريق الحرير هذه، فارسل، حول سنة ١٠٠م، بعثة من الرجال المدربين للتعرف الى الطريق من «برج الحجر» في البامير الى «هسيان ـ فو» في الصين. فقامت البعثة بذلك وقطعت المسافة في سبعة اشهر، ورسمت لها خريطة وتركت وصفاً مسهباً.

لكن طريق الحرير ظلت وقفاً على التجار الذين تملك دولتهم ايران. لذلك حافظ عليها الساسانيون بعد الفرثيين، وكانت محاولة الاستيلاء عليها سبب خصومة عنيفة بين البيزنطيين، خلفاء الرومان، والساسانيين، خلفاء الفرثيين.

على ان بعض الحرير الصيني كان ينقل الى الهند ومن هناك يحمل الى العالم الروماني بطريق البحر الأحمر او الخليج الفارسي.

هاتان هما الطريقان الرئيسيان بين البحر المتوسط والشرق. اما الطريق الشمالية من آسية الصغرى الى بحر قزوين فالصين، فقد كانت قليلة الاستعمال[1].

الهوامش

(١) راجع للمؤلف: «العالم القديم»، الجزء الثاني، يافا، ١٩٤٦ ج٢، ص ١٩٣ وما بعدها.

الخليج العربي وتجارته

للخليج العربي تاريخ في التجارة طويل، ولسنا نقصد ان نؤرخ له في هذا الفصل، وجل ما نرمي اليه هو ان نتحدث عنه في فترة من تاريخه ازدهرت تجارته فيها ازدهاراً كبيراً في العصور العربية الأولى.

يبدو من اشارات مقتضبة وردت هنا وهناك ان السفن الفارسية كانت، في القرن الرابع للميلاد، تنتقل من ميناء الأبلة الى الموانىء الصينية، وان بعض سفن الصين كانت تصل موانىء الخليج. وقد ورد في الطبري عن الأبلة انها كانت قديماً «فرج الهند»[1] . ومن الطريف ورود اشارة الى القراصنة الهنود في الخليج نفسه وفي خليج عمان في تلك الأزمنة. ومن الواضح ان اهل البحرين وعمان كانت لهم سفن تمخر عباب البحار المجاورة في ايام الرسول والخلفاء الراشدين.

على ان الازدهار الذي عرفه الخليج العربي في القرنين التاسع والعاشر للميلاد مدعاة للفخر والزهو. ولذلك اسباب كثيرة منها ان الدولة العباسية، التي قامت في اواسط القرن الثامن، كانت بطبيعة الحال تتجه شرقاً اكثر من اتجاه الدولة الأموية التي كانت تتطلع نحو البحر الأبيض المتوسط. ومنها، على ما قاله الدكتور جورج حوراني، في كتابه عن الأسفار البحرية العربية في المحيط الهندي[2]، من ان استتباب الأمن في الدولة الاسلامية من جهة ووجود دولة قوية في الصين، هي أسرة تانغ، واخرى في الاقطار الجنوبية المحاذية لها ـ كل هذا في القرون السابع والثامن والتاسع ـ قد ادى الى انتعاش في التبادل التجاري بين منطقتين كانت كل منهما بحاجة الى منتوجات الاخرى الطبيعية والصناعية.

ومن حسن الحظ ان المصادر التي بين ايدينا عن القرنين الثالث والرابع للهجرة/ التاسع والعاشر ميلادي كثيرة، بحيث يمكن رسم صورة تكاد تكون صحيحة لما كانت عليه الحال في الخليج العربي في تلك الفترة. فقد خلف لنا الجغرافيون العرب مكتبة قيِّمة وضعت بين سنتي ٨٥٠ و٩٨٥ للميلاد، وكان من الاسماء اللامعة فيها، على الترتيب الزمني، ابن خرداذبه واليعقوبي وابن الفقيه والاصطخري وابن حوقل والمسعودي والمقدسي. يضاف الى هؤلاء رحالون هم في الاصل تجار او قباطنة سفن خلفوا اخبارهم في مدونات هامة بين سنتي ٨٥٠ و٩٥٠، منهم السيرافي وبزرغ.

والذي يمكن ان يؤخذ من دراسات الذين عنوا بتقصي اخبار اولئك وهؤلاء ان الخليج كان مسرحاً لتجارة رابحة وحركة نشيطة[٣]. وان الموانىء على شواطئه كانت تنعم بالكثير من الخيرات. وها نحن نعرض على القراء بعض هذا الذي وصل اليه الباحثون، مستفيدين من دراستهم مع الرجوع الى المصادر الاصلية ناقلين عنها ما قد يلذ ويفيد.

اما الموانىء الرئيسية على الخليج وما يجاوره من خليج عمان فكانت سيراف وعمان والبصرة. والظاهر ان سيراف كانت في الفترة التي نتحدث عنها الميناء الذي تمر به متاجر فارس ـ صادراتها وارداتها. فيها يقول الاصطخري: «فهي الفرضة العظيمة لفارس، وهي مدينة عظيمة ليس بها سوى الابنية شيء... وليس بها ماء يجمد ولا زرع ولا ضرع، وهي اغنى بلاد فارس[٤] ... فأما اهل سيراف والسواحل فانهم يسيرون في البحر حتى ربما غاب احدهم عامة عمره في البحر. ولقد بلغني ان رجلاً من سيراف الف البحر حتى ذكر انه لم يخرج من السفينة نحو من اربعين سنة وكان اذا قارب البر اخرج صاحبه بقضاء حوائجه في كل مدينة يتجول من سفينته الى اخرى اذا انكسرت وتشعثت فاحتيج الى اصلاحها، وقد اعطوا من ذلك حظاً جزيلاً حتى ان احدهم يبلغ ملكه اربعة آلاف الف دينار وفي عصرنا قد بلغني ما هواكثر من ذلك فتراه في لباسه لا يتميز من اجيره»[٥].

والقول بأن سيراف هي بلدة غنية يشهد عليه، بالاضافة الى ما ذكر، ان ابنيتها ذات الطبقات العديدة كانت من خشب الساج الثمين. ويقول المقدسي انها كانت: «دهليز الصين... وعلى الجملة ما رأيت في الاسلام اعجب من دورها ولا احسن. وقد بنيت من خشب الساج الآخر، شاهقة تشتري الدار الواحدة بفوق المئة الف درهم»[٦].

والبصرة تقع على شط العرب، وتبعد عن البحر بعض الشيء. وعندما نذكر البصرة يجب ان نذكر معها الابلة وعبادان. فهذه الأماكن الثلاثة كانت تعين سير السفن في رأس الخليج. «فالابلة على دجلة... عامرة كبيرة ارفق من البصرة وارحب [٧]. وثمة بحر رقيق ويسمى هذا الموضع بالجرارة «وهي دخلة من البحر في البر بقرب من بلاد الابلة... ولهذه الجرارة اتخذت الخشبات في البحر مما يلي الابلة وعبادان، عليها اناس يوقدون النار بالليل على خشبات ثلاث كالكراسي في جوف البحر خوفاً على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرها فتعطب فلا يكون لها خلاص»[٨]. وقد تحدث الاصطخري عن هذه الجهة وعن الخشبات فقال: «ويرق الماء حتى يخاف على السفن الكبار ان سلكته ان تجلس على الارض الا في وقت المد. وبهذا الموضع خشبات منصوبة قد بني عليها مرقب يسكنه ناظور يوقد بالليل ليهتدى به ويعلم به المدخل الى دجلة»[٩]. والمكان الثالث عبادان، وهذه المدينة تقوم على جزيرة صغيرة وهي ذات حصن صغير وكان فيها «رباطات وعباد صالحون، واكثر اهلها يصنعون

الحصر من الحلفاء»[١٠] . والماء بها ضيق والبحر عليها مطبق. والظاهر ان عبادان كانت في وقت من الأوقات مقراً للقرصان او متلصصة البحر [١١]، كما سماهم العرب القدامى، ثم اصبحت مقراً لحامية تدفع اذاهم عن المسافرين.

وكانت عُمان احد المراكز الرئيسية التي تمر بها التجارة بين شرق افريقية والصين والخليج الى العراق وغيرها. وعُمان، على ما رواه ابن حوقل «ناحية ذات اقاليم مستقلة باهلها، فسحة كثيرة النخل والفواكه من الموز والرومان والنبق ونحو ذلك. وقصبتها صحار وهي على البحر، وبها من التجار والتجارة ما لا يحصى كثرة، وهي اعمر مدينة بعمان واكثرها مالاً، ولا يكاد يعرف على شط بحر فارس بجميع الاسلام مدينة اكثر عمارة ومالا من صحار»[١٢] . وجاء المقدسي في اواخر القرن العاشر للميلاد يتم الصورة فقال: «وصحار هي قصبة عمان وليس على بحر الصين اليوم بلد اجمل منه، عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات... اسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر. دورهم من الآجر والساج، شاهقة نفيسة... دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن» [١٣].

وهكذا فقد كانت الرحلة الى بحار الصين او الى شرق افريقية تبدأ من الابلة، في منطقة البصرة، وتجتاز عبادان، بارشاد الخشبات والناظور وما الى ذلك، مستفيدة من المد واوقاته. وفي سيراف كانت تجتمع السفن ايضاً. وقد تحمل المتاجر في صغار السفن من البصرة الى سيراف، حيث توضع في السفن الكبار، فإذا انحدرت السفن في الخليج كان عليها ان تتجنب متلصصة البحرين وقطر وسقطرى وحتى الهند. ولذلك فإن السفن كانت، في اغلب الحالات، تحمل النفاطين والمقاتلين. ويبدو ان اهل البصرة قاموا بحملة على القرصان في البحرين (٩١٢م) لكنهم اخفقوا.

وللسفن ان تختار، في سيرها نحو بحار الصين، واحداً من طريقين. فهي اما ان تعرج على صحار ومسقط، حيث تحمل البضائع وتتزود بالماء والمؤن، ثم تقصد كولام (كويلون) في مالابار. اما الطريق الآخر فكان السير فيه محاذياً لشواطىء فارس ثم شواطىء السند.

اما السير نحو شرق افريقية فكان اقصى ما تصل اليه مراكب المسلمين، من اهل البصرة وعمان وسيراف، هو مدغشقر. وكانت عدن المركز التجاري الكبير بين بلاد العرب وشرق افريقية.

وكانت الملاحة متيسرة في الخليج العربي، وهو بحر فارس عند جغرافيي العرب، في كل اوقات السنة. اما بحر الهند فلا يركبه الناس عند هيجانه وظلمته وصعوبة مركبه.

اما ما كان ينقل من المتاجر على هذه السفن في هذه الرحلات الطويلة التي

كانت تقتضي من الوقت سنة او ما الى ذلك، فإنه يشمل الاقمشة الحريرية والكافور والمسك والافاويه والعاج والحديد وقضبان النحاس.

هذه فترة كانت فيها التجارة ناجحة ومنتشرة، وكانت فيه السفن تتجه شرقاً وغرباً، وقد كانت سفن تصل موانىء الخليج (١٤). لكن اضطراب امر الصين فيما بعد اوقف سيرها على ما يظهر. وهذا المسعودي يقول: «بلاد كلة وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك واليها تنتهي مراكب اهل الاسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت فيجتمعون مع من ورد من ارض الصين في مراكبهم، وقد كان في بدء الزمان بخلاف ذلك، وذلك ان مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف وساحل فارس وساحل البحرين والابلة والبصرة وكذلك كانت المراكب تختلف من المواضع المذكورة الى هناك، فلما عدم العدل وفسدت النيات وكان من أمر الصين ما وصفنا التقى الفريقان جميعاً في هذا النصف، ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلّة في مراكب الصينيين الى مدينة خانفو» (١٥).

ويظهر ان المسعودي الذي ركب الكثير من البحار كبحر الصين والروم والخزر واليمن، والذي اصابته فيها من الاهوال ما لا يحصيه كثرة، لم يشاهد أهول من بحر الزنج، وهو البحر الذي يركبه المسافرون من عمان وغيرها الى شرق افريقية.

وقد قال المسعودي في وصفه: «وارباب المراكب من العمانيين يقطعون هذا البحر الى جزيرة قنبلو من بحر الزنج... والعمانيون... من ارباب المراكب يزعمون ان هذا الخليج المعروف بالبربري... وموجه عظيم كالجبال الشواهق وانه موج اعمى يريدون بذلك انه يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كاخفض ما يكون من الاودية، لا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد ككسر امواج سائر البحار، ويزعمون انه موج مجنون وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من اهل عمان عرب من الازد» (١٦).

الهوامش

(١) الطبري، ابو جعفر محمد: «تاريخ الرسل والملوك»، ليدن، بريل ١٨٧٩، ج٤، ص ٢٠١٦ ـ ٢٠٢١.

(٢) Hourani, George, *Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times,* Princeton Uneversity Press 1951, p. 61.

(٣) Cathay and the Way Thither, Haklyut Society, 2nd series, vol. 38, 1915, pp. 89-93.

(٤) الاصطخري، ص ٣٤.

(٥) نفس المكان، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٦) المقدسي، ص ٤٢٦.

(٧) المقدسي، ص ١١٨.

(٨) المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٩) الاصطخري، ص ٣٠، راجع ايضاً المسعودي، ج١، ص ٢٣١.

(١٠) المقدسي، ص ١١٨.
(١١) ابن حوقل، ص ٤٨.
(١٢) نفس المكان، ص ٣٨.
(١٣) المقدسي، ص ٩٢.
(١٤) Cathay, pp. 83-88.
(١٥) المسعودي، ج١، ص ٣٠٨.
(١٦) نفس المكان، ج١، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.

الخليج العربي ورحالو العصور الوسطى

ما اكثر ما شغل الخليج العربي الجغرافيين والرحالين والتجار، وقد وصلت الينا أخبار الكثيرين من هؤلاء مدونة تدويناً صحيحاً صادقاً دقيقاً. وكم كنا نود ان نتحدث عن جميع هؤلاء، وعن كل ما خلّفوه. ولكن نحن مضطرون الى الاجتزاء بالقليل من ذلك كله. والذي نأمله هو ان يكون في هذا الذي ننقله ونتحدث عنه فائدة ومتعة.

وسنكتفي الآن بالحديث عن بعض الرحالين الذين مروا بالخليج في العصور الوسطى وهم ناصري خسرو والمروزي وابن البلخي وبنيامين وياقوت وابن بطوطة. وقد امتدت الفترة التي زار فيها هؤلاء الرحالون الخليج والبلاد المحيطة به نحو ثلاثة قرون من ناصري خسرو في اواسط القرن الحادي عشر الى ابن بطوطة في اواسط القرن الرابع عشر للميلاد. وبعض هذه الصور التي خلفها لنا هؤلاء تنبض بالحياة، خاصة وان الرحالة انفسهم يمثلون اتجاهات ونزعات مختلفة. فناصري خسرو داعية والمروزي تغلب عليه النزعة الجغرافية والنظرة الاقتصادية من حيث الدور الذي كانت تقوم به دول جنوب شرق آسية، وابن البلخي وضع رسالة وصف فيها الجزء الجنوبي الغربي من ايران اسمها «فرس نامه» وقد اتمها في اوائل القرن الثاني عشر، وبنيامين رحالة تاجر. اما ياقوت فهو رحالة معجمي، وهو الذي وضع لنا هذا التراث الضخم المسمى معجم البلدان. وعندما نصل الى ابن بطوطة نجد العقل النشيط والقلم البليغ والوصف الانيق. وان كنا نأسف لشيء فإننا نأسف لان ابن جبير لم يزر تلك المناطق. ولذلك فلا مكان له في هذا الحديث.

قضى ناصري خسرو (اواسط القرن الحادي عشر) تسعة اشهر في الاحساء، واتصل بالحياة فيها اتصالاً وثيقاً على ما يؤكد، ولذلك يمكن القول بأن الصورة التي تركها لنا صورة ذات قيمة. فهو يقول: «ولحسا مدينة في الصحراء، ولبلوغها، عن اي طريق، ينبغي اجتياز صحراء واسعة. والبصرة اقرب البلاد الاسلامية التي بها سلطنة الى لحسا. وبينهما خمسون ومائة فرسخ. ولم يقصد سلطان من البصرة لحسا ابداً.

«ولحسا مدينة وسواد ايضاً وبها قلعة، ويحيط اربعة اسوار قوية متعاقبة من اللبن المحكم البناء بين كل اثنين منها ما يقرب من فرسخ. وفي المدينة عيون ماء عظيمة، تكفي كل منها لادارة خمس سواق، ويستهلك كل هذا الماء بها، فلا يخرج منها. ووسط

القلعة مدينة جميلة بها كل وسائل الحياة التي في المدن الكبيرة. وفيها اكثر من عشرين الف محارب [١].

«وكان لهم في ذلك الوقت ثلاثون الف عبد زنجي وحبشي، يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين وهم لا يأخذون عشوراً من الرعية، واذا افتقر انسان او استدان يتعهدونه حتى يتيسر عمله، واذا كان لأحدهم دين على آخر لا يطالبه بأكثر من رأس المال الذي له. وكل غريب ينزل هذه المدينة وله صناعة، يعطى ما يكفيه من المال حتى يشتري ما يلزم صناعته من عدد آلات ويرد (الى الحكام) ما اخذ حين يشاء. واذا تخرب بيت او طاحون احد الملاك، ولم تكن لديه القدرة على الاصلاح، أمروا جماعة من عبيدهم بأن يذهبوا اليه ويصلحوا المنزل او الطاحون. ولا يطلبون من الملك شيئاً. وفي لحسا مطاحن مملوكة للسلطان، تطحن الحبوب للرعية مجاناً، ويدفع فيها السلطان نفقات اصلاحها واجور الطحانين»[٢].

.... «وينسجون هناك فوطاً جميلة ويصدرونها للبصرة وغيرها»[٣]... «وفي لحسا تباع لحوم الحيوانات كلها، من... بقر وخراف وغيرها، وتوضع رأس الحيوان وجلده بقرب لحمه ليعرف المشتري ماذا يشتري...

«والبحر على مسيرة سبعة فراسخ من لحسا الى ناحية الشرق، فإذا اجتازه المسافر وجد البحرين، وهي جزيرة طولها خمسة عشر فرسخاً، والبحرين مدينة كبيرة أيضاً، بها نخل كثير. ويستخرجون من هذا البحر اللؤلؤ، ولسلاطين لحسا نصف ما يستخرجه الغواصون منه. واذا سافر المسافر جنوب لحسا يبلغ عمان، وهي في بلاد العرب. وثلاثة جوانب منها صحراء لا يمكن اجتيازها»...

«وفي لحسا تمر كثير حتى انهم يسمنون به المواشي، ويأتي وقت يباع فيه اكثر من الف مَنّ بدينار واحد. وحين يسير المسافر من لحسا الى الشمال سبعة فراسخ يبلغ جهة القطيف وهي مدينة كبيرة بها نخل كثير. وقد ذهب أمير عربي الى ابواب لحسا ورابط هناك سنة واستولى على سور من اسوارها الأربعة وشن عليها غارات كثيرة ولكنه لم ينل من اهلها شيئاً»[٤].

وانتقل من الاحساء الى الشواطىء الشمالية والشمالية الشرقية من الخليج فذكر اموراً لطيفة منها العناية الكبيرة التي كانت تبذل لارشاد الملاحين ليتجنبوا الارتطام بقاع الماء الضحل هناك. فيقول: «يتكون [المنار] من اربعة اعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجانيق. وهو مربع قاعدته متسعة وقمته ضيقة، ويرتفع عن سطح البحر اربعين ذراعاً، وعلى قمته حجارة وقرميد مقامة على عمد من خشب كأنها شقف ومن فوقها أربعة عقود يقف بها الحراس. ويقول البعض ان الذي بنى الخشاب هذا تاجر كبير، ويقول آخرون بل بناه احد الملوك. وكان الغرض منه شيئين: احدهما انه بني في جهة ضحلة يضيق البحر عندها، فإذا بلغتها سفينة كبيرة ارتطمت

بالأرض. ففي الليل يشعلون سراجاً في زجاجة بحيث لا تطفئه الرياح، وذلك حتى يراه الملاحون من بعيد فيحتاطون وينجون، والثاني ليعرف الملاحون الاتجاه، وليروا القرصان ان وجدوا فيتقونهم بتحويل اتجاه السفينة. ولما اجتزنا الخشاب، بحيث اصبح لا يرى، رأينا آخر مثله، ولكن ليس على سطح قبة لأنهم لم يستطيعوا اكماله».

ثم يحدثنا عن مدينة مهروبان التي كانت في ذلك الوقت مركزاً تجارياً ذا قيمة، «ومن هناك بلغنا مدينة مهروبان، وهي مدينة كبيرة على شاطىء البحر الشرقي، بها سوق كبير وجامع جميل، ولكن ماءها من المطر، وليس بها آبار او قنوات من الماء العذب، وقد اتخذ اهلها احواضاً ومصانع ليكون الماء متوفراً دائماً. وقد بني بها ثلاثة اربطة، كل منها كأنه حصن محكم ومرتفع... ومأكولات هذه المدينة تحمل اليها من المدن والولايات الأخرى، اذ ليس بها شيء سوى السمك. وفيها تحصل المكوس، فهي ميناء»[٥].

والمروزي من اهل القرن الثاني عشر وقد خلف لنا معلومات قيمة عن الصين والاتراك وغيرهم من شعوب المشرق. والفقرة التي تحدث فيها عن الخليج هي التي تشير إلى العلاقات التجارية بين خانفو (كنتون الحالية) في الصين ومدن الخليج قال: «فأما الطريق من الصين من جانب البحر فأول مرفأ من البحر اليه بلد يقال له لوقير ثم مدينة خانفو وهي اعظم من لوقير وهو مرفأ اعظم وبها نهر الماء عذب كبير يخترق البلد وعليه جسور وعلى احد جانبيه اسواق التجار الغرباء وعلى جانبه الآخر اسواق اهل المدينة واكثر من يقصدهم من التجار الفرس والعرب. والفرس يركبون المراكب اليهم من سيراف والعرب من البصرة وفي هذه المدينة صاحب عشر الملك يجمع امتعة التجار ويأخذ منهم العشر. ولاهل هذه المدينة وفاء وامانة وصدق لهجة. وهناك تتخذ العضائر الصينية والكواغذ الحسنة التي يكون احد وجهيها ابيض والوجه الآخر اصفر والحرير الصيني الجيد ولباس اهلها الخفاتين. ومن رسمهم ان كل واحد من اهل السوقين يخالط الآخر نهاراً ويتبايعون ويتعاملون فإذا غربت الشمس قرع الطبل في الجانبين فينصرف كل فريق الى مواضعهم فمن وجد بعد ذلك من الفريقين في سوق غيره ادّب وغرّم»[٦].

والذي يمكن ان نحصل عليه من اخبار ابن البلخي (القرن الثاني عشر) وياقوت (القرن الثالث عشر) انه كان ثمة تبدل في المركز التجاري الرئيسي في شمال شرق الخليج. ذلك ان سيراف فقدت شيئاً كثيراً مما كانت عليه، وانتقل مركز الثقل الى جزيرة قيس. فبنيامين يصف الجزيرة بقوله: «ارض هذه الجزيرة شحيحة الماء، ليس فيها غير عين واحدة. وأغلب شرب أهلها من ماء المطر. وهي مركز تجاري مهم، يقصدها التجار للبيع والشراء ومقايضة ضروب السلع كالحرير والكتان والقطن والقنب والماش والحنطة والشعير والدخن والرز وسائر انواع الحبوب والبقول ويأتيها

تجار الهند بالعطور والتوابل. وأغلب سكان الجزيرة دلالون ووسطاء بين هذا الحشد الغفير من التجار... وعلى مسيرة عشرة ايام منها بطريق البحر القطيف»[٧].

هذا التبدل يبدو جلياً في ما كتبه ابن البلخي. فقد اتم رسالته المسماة «فرس نامة» في اوائل القرن الثامن عشر الميلادي ووصف فيها ولاية فرس، وهي الجزء الجنوبي الغربي من ايران. فلما وصل الى سيراف قال عنها ما خلاصته: كانت سيراف من قبل مدينة كبيرة مزدحمة بالسكان كثيرة المتاجر، من الاخشاب والطيوب والافاويه والكافور والحرير. ولكن لما هاجمها حكام جزيرة قيس ووضعوها تحت سلطانهم، فقدت اهميتها وخلفتها الجزيرة اي قيس اذ اصبحت الميناء الرئيسي في تلك المنطقة. ولذلك فلا تجد اليوم من يقصد سيراف سواء لاصلاح سفينة أو للافادة من مينائها، ولا يأتيها احد من تجار كرمان أو مهروبان أو دورق أو البصرة، وليس في اسواقها من البضائع الا مصنوعات جلدية وخزف مما يحتاجه أهل شواطىء «فرس» فقط [٨].

واخبار ياقوت اوضح في الدلالة على هذا التبدل. وها نحن اولاً ننقل الى القارىء الكريم ما قاله صاحب «معجم البلدان» عن سيراف وقيس، ومنه يبدو أمر التغيير صريحاً. فهو يقول عن سيراف: «وهي مدينة جليلة على ساحل بحر فارس كانت قديماً فرضة الهند، وقد رأيتها، وبها آثار عمارة حسنة وجامع مليح على سواري ساج، وهي في لحف جبل عال جداً، وليس للمراكب فيها ميناء، فالمراكب اذا قدمت اليها كانت على خطر الى ان تقرب منها الى نحو من فرسخين موضع يسمى نابد هو خليج ضارب بين جبلين، وهو ميناء جيد غاية، واذا حصلت المراكب فيه أمنت من جميع انواع الرياح، وبين سيراف والبصرة اذا طاب الهواء سبعة ايام... فمنذ عمّر ابن عميرة جزيرة قيس صارت فرضة الهند واليها منقلب التجار، خربت سيراف وغيرها، ولقد رأيتها وليس بها قوم الا صعاليك ما أوجب لهم المقام بها الا حب الوطن» [٩].

اما قيس «فجزيرة وهي كيش في بحر عمان، دورها اربعة فراسخ، وهي مدينة مليحة المنظر ذات بساتين وعمارات جيدة وبها مسكن ملك ذلك البحر صاحب عمان وله ثلثا دخل البحرين، وهي مرفأ مراكب الهند وبر فارس وجبالها تظهر منها للناظر، ويزعمون ان بينهما اربعة فراسخ، رأيتها مراراً، وشربهم من آبار فيها، ولخواص الناس صهاريج كثيرة لمياه المطر، وفيها اسواق وخيرات، ولملكها هيبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه ودوانيجه، وهو فارسي، شكله ولبسه مثل الدّيلم وعنده الخيول العراب الكثيرة والنعمة الظاهرة، وفيها مغاص على اللؤلؤ وفي جزائر كثيرة حولها وكلها ملك صاحب كيش، ورأيت فيها جماعة من اهل الأدب والفقه والفضل، وكان بها رجل صنف كتاباً جليلاً فيما اتفق لفظه وافترق معناه ضخم رأيته بخطه في مجلدين ضخمين ولا اعرف اسمه الآن»[١٠].

ومع ان القرن الثالث عشر رأى قيس مزدهرة، فإن القرن الرابع عشر رأى انحطاط الجزيرة وانتقال التجارة منها الى هرمز على ما يحدثنا ابن بطوطة، وهو الذي عرف المناطق المحيطة بالخليج ودوّن اخبارها في اواسط القرن الرابع عشر. فنراه يقول عن هرمز: «وهي مدينة حسنة كبيرة لها اسواق حافلة وهي مرسى الهند والسند، ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان، وبهذه المدينة سكنى السلطان، والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم واكثرها سباخ وجبال ملح وهو الملح الداراني. ومنه يصنعون الاواني للزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها، وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان»(١١).

على ان ابن بطوطة عرف اجزاء اخرى من الخليج وشطآنه، وتنقل في انحائه كثيراً، وقطعه غير مرة. والواقع ان في بعض ما تركه لنا صوراً حية حرية بان تقرأ كلها. لكن المجال لا يتسع الا للقليل القليل منها. ولنكتف بوصفه لظفار الحموض والبحرين ولمغاص اللؤلؤ:

«مدينة ظفار الحموض ـ وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي، ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند. ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح، في شهر كامل. قد قطعته مرة من قالقوط من بلاد الهند الى ظفار في ثمانية وعشرين يوماً بالريح الطيبة، لم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار. وبين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء، وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوماً. وبينها وبين عمان عشرون يوماً. ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها. والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء، وهي من أقذر الاسواق واشدها نتناً، واكثرها ذباباً، لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك. واكثر سمكها النوع المعروف بالسردين، وهو بها في النهاية من السمن. ومن العجائب ان دوابها انما علفها من هذا السردين، وكذلك غنمهم، ولم أرَ ذلك في سواها. وأكثر باعتها الخدم وهن يلبسن السواد. وزرع اهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء. وكيفية سقيهم انهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالاً كثيرة، ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر، ويصبونها في صهريج يسقون منه. والارز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو اكثر طعامهم.

«ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق في سواها. وهم اهل تجارة لا عيش لهم الا منها. ومن عادتهم انه اذا وصل مركب من بلاد الهند او غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا في (صنبوق) الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله، وللربان وهو الرئيس، ولكاتب المركب... وهم يفعلون ذلك استجلاباً لأصحاب المراكب... وهم أهل تواضع وحسن اخلاق وفضيلة ومحبة

للغرباء. ولباسهم القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند. ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جداً» (١٢).

«مدينة البحرين ـ وهي مدينة كبيرة حسنة، ذات بساتين واشجار وانهار، وماؤها قريب المؤنة، يحفر عليه بالأيدي فيوجد. وبها حدائق النخل والرمان والاترج، ويزرع بها القطن. وهي شديدة الحر، كثيرة الرمال، وربما غلب الرمل على بعض منازلها. وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع، فلا يوصل من عمان اليها الا في البحر» (١٣).

«مغاص الجوهر ـ ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين، في خور راكد مثل الوادي العظيم. فإذا كان شهر ابريل وشهر مايو تأتي القوارب الكثيرة، فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف، ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد ان يغوص شيئاً يكسوه من عظم الغيلم، وهي السلحفاة، ويصنع من هذا العظم ايضاً شكلاً شبه المقراض يشده على أنفه، ثم يربط حبلاً في وسطه ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في الماء، فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك. فإذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتاً في الرمل، فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك، ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه. فإذا ضاق نفسه حرك الحبل، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل، فيرفعه الى القارب، فتؤخذ منه المخلاة. ويفتح الصدف، فيوجد في اجوافها قطع لحم تقطع بحديدة، فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر، فيجمع جميعها من صغير وكبير، فيأخذ السلطان خمسة، والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب، واكثرهم له الدين على الغواصين، فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه» (١٤).

الهوامش

(١) ناصر خسرو، «سفر نامة»، ص ٩٢.
(٢) نفس المكان، ص ٩٣.
(٣) نفس المكان، ص ٩٣.
(٤) نفس المكان، ص ٩٤.
(٥) نفس المكان، ص ١٠٠ ـ ١٠١.
(٦) المروزي، شرف الزمان طاهر: «ابواب الصين والترك والهند»، لندن، الجمعية الملكية الآسيوية، ١٩٤٢، ص ١٠.
(٧) التطيلي، بنيامين: «رحلة بنيامين» (ترجمة عزرا حداد) بغداد، المطبعة الشرقية، ١٩٤٥، ص ١٦٤.
(٨) البلخي، *Description of the Province of Fars in Persia at the beginning of the Fourtienth Century*, Translated by G. Le Strange, London, Royal Asiatic Society, 1912, pp. 41-43.
(٩) ياقوت، ج٣ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.
(١٠) نفس المكان، ج٤، ص ٤٢٢.

(١١) ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.
(١٢) نفس المكان، ج٢، ص ١٩٦ ـ ١٩٩.
(١٣) نفس المكان، ج٢، ص ٢٤٦.
(١٤) نفس المكان، ج٢، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦.

الخليج العربي والرحّالون الأوروبيون

في أواخر العصور الوسطى أخذت المجتمع الأوروبي يقظة ونهضة، تمثلت في غير ناحية واحدة من نواحي الحياة. ولعل أكثرها روعة وأكبرها مظهراً كانت العناية باكتشاف بلاد وطرق جديدة، بقطع النظر عن البواعث والدوافع. والرحالة ماركو بولو في طليعة الأوروبيين الذين زاروا الشرق وعاشوا في اجزائه. ورحلاته، ولا شك، فيها فائدة ومتعة وطرافة. وماركو بولو زار هرمز في اواخر القرن الثالث عشر، ولعله أول اوروبي وصلت الينا اخباره عنها مدونة. ويقول ماركو بولو عن هذه المدينة: «يأتيها التجار من الهند وسفنهم محملة بالافاويه والحجارة الثمينة واللؤلؤ والأقمشة الحريرية والمذهبة والعاج وغير ذلك من المتاجر. هذه كلها يبتاعها تجار هرمز، الذين يحملونها بدورهم الى اسواق الدنيا. انها في الواقع مدينة عظيمة المتجر، وثمة كثير من المدن والقرى التي تخضع لها، وهي العاصمة... المدينة حارة جداً»[1].

«ويصنع البعض هنا خمراً من التمر ويضيفون اليه بعض البهارات... يغلب على طعام الناس هنا التمر والسمك والبصل... يزرع القوم هنا القمح والشعير في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ويحصدون الغلال في شهر آذار (مارس)... وليس في هذه الجهات عشب أو حشائش الا القليل بسبب الجفاف»[2].

والراجح ان هرمز التي يتحدث عنها ماركو بولو هي هرمز الجديدة القائمة في جزيرة جيرون. اما هرمز القديمة فكانت على الشاطىء. فلما انتقل القوم الى الجزيرة اطلقوا عليها اسم بلدهم الأولى، فصارت هي الاخرى هرمز. وهذا الانتقال تم قبل مجيء ماركو بولو بمدة قصيرة. والذي نعرفه هو ان حكام هرمز هذه وسعوا سلطانهم بحيث شمل جزيرة قيس (المنافسة القديمة لهم) وما جاورهم من الشاطىء الفارسي، ثم البحرين وعمان ومسقط. والبحرين كانت في غالب الاحيان يقصد بها الجزر والشاطىء المجاور لها في شرق الجزيرة العربية.

استمرت هرمز مركزاً تجارياً هاماً اولاً وهي مستقلة ومسيطرة على هذه المنطقة الواسعة، وثانياً حتى بعد الاحتلال البرتغالي. ذلك ان البرتغاليين، بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، جاؤوا المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر فاتحين لانشاء امبراطورية عريضة، وتم لهم احتلال المناطق المصاقبة لخليج عمان وبعض الخليج العربي وخاصة هرمز في اوائل القرن السادس عشر. وظل هؤلاء

البرتغاليون اصحاب الأمر والنهي حتى بدأت محاولة الاتراك لاخراجهم في اواسط القرن نفسه، ثم جاء البريطانيون يزاحمونهم في مطلع القرن التالي.

وبسبب هذا الوجود الأوروبي في الخليج كثر المترددون عليه، وخاصة من البرتغاليين ومن جاورهم، وبين ايدينا الكثير الكثير مما كتبه هؤلاء عن اجزاء الخليج وبعض المعارك التي دارت فيه. وها نحن اولاً ننقل للقراء الكرام طرفاً مما اتصل بنا.

في اواسط القرن الرابع عشر زار الاب رينال هرمز، الذي وصف البلد وصفاً فيه بعض المبالغة. قال: «أصبحت هرمز عاصمة امبراطورية تشمل جزءاً كبيراً من بلاد العرب وجزءاً آخر من فارس. والمنظر الذي يجده الواحد عند وصول التجار الاجانب الى هرمز اجل ما يمكن ان تقع عليه العين في أي مدينة في الشرق. فالتجار من جميع انحاء العالم يتبادلون سلعهم ويرتبون اشغالهم بمنتهى الأدب واللياقة... كانت الشوارع مغطاة بالحصر وفي بعض الحالات بالبسط، كما ان الاغطية الكتانية المعلقة في السطوح، كانت تقي الناس حر الشمس الشديد. والبيوت تزينها خزائن ومزهريات من الهند والصين، فيها زهور نباتات عطرية. وفي الساحات العامة كانت الجمال المحملة بماء الشرب (جاهزة لمن يحتاج). وكانت خمور فارس وطيوبها وما يشتهى من المآكل والمشرب موجودة بكثرة» [٣].

لم يشهد القرن الخامس عشر عناية كثيرة بالمنطقة التي نعنى بها الساعة. ولعل انصراف الكثيرين من الاوروبيين للبحث عن طريق حول افريقية، عطل، بعض الوقت، الاتجاه المباشر نحو الشرق. حتى اذا اهلّ القرن السادس عشر عاد هؤلاء الرحالون، بكل ما في عملهم من تنوع واختلاف بواعث، الى الظهور بكثرة على المسارح الشرقية. ومن أول هؤلاء لودفيكو دي فارتما، وهو ايطالي، يمثل روح المغامرة والمجازفة في النهضة الأوروبية، كما يمثل الرغبة في التعرف على كل شيء واختبار كل شيء، كما يقول هو عن نفسه. فهو ايطالي من بولونيا هبط الاسكندرية سنة ١٥٠٣ واتجه بعدها نحو القاهرة. لكن المدينتين كانتا معروفتين لكثرة ما كتب عنهما. فلم تطب لفارتما الاقامة في مصر لانه كان يريد ان يتعرف الى شيء جديد. فرحل عن مصر الى بيروت حيث قضى بضعة ايام. ومع انه اعجب بثراء بيروت فإنه غادرها الى طرابلس فحلب فحماه فدمشق. ويحدثنا عن مركز حلب التجاري وقيمتها كنقطة تتبادل فيها القوافل الفارسية والتركية والسورية متاجرها. كما يلفت نظره قطن حماه. ويقيم في دمشق بضعة شهور محاولاً ان يتعلم اللغة العربية املاً ان يحقق حلمه في ان يسوح في بلاد العرب. وتواتيه الفرصة. فان قافلة الحجاج على وشك الرحيل من دمشق، وقد صادق كبير المماليك الذين سيرافقون القافلة. فينضم فارتما اليهم على انه مملوك مسلم ويرحل مع القافلة. ويقضي اربعين يوماً بين دمشق ومكة المكرمة. ويهم الحجاج بالعودة، لكن فارتما لا يريد ذلك، فيتخلص من المماليك بحيلة ويتخلف ثم يذهب الى

جدة. ومن هناك يركب سفينة الى عدن، حيث القي القبض عليه بتهمة التجسس وسجن. لكن الحظ ساعده فأفلت. ثم تجول في اليمن واخيراً هرب على سفينة متجهة نحو هرمز فارس. وقد حملت فارتما اسفاره بعد ذلك الى الحبشة والهند وعاد اخيراً الى ايطالية سنة ١٥٠٨ بعد غياب خمس سنوات.

زار فرتما هرمز سنة ١٥٠٣ او ١٥٠٤، اي قبيل وصول البرتغاليين بمدة قصيرة، فقال يصفها: «... وأخيراً وصلنا مدينة جميلة تسمى هرمز التي لا تضاهيها مدينة اخرى من حيث الموقع وكثرة اللؤلؤ. وهي تقع على جزيرة تبعد ١٢ ميلاً عن الشاطىء. ماؤها العذب نزر، وكذلك القمح. لذلك فان المؤن اللازمة لسكانها تحمل اليها من الجهات الأخرى... وقد ترى فيها ثلاثمئة سفينة من مختلف انواع المراكب، التي تأتيها من جهات عديدة وبلاد مختلفة... وفي المدينة ما لا يقل عن اربعمئة تاجر ووكيل يقيمون فيها بصورة دائمة للاهتمام بالسلع المختلفة التي تنقل اليها والتي تشمل الحرير واللؤلؤ والحجارة الكريمة والافاويه وما الى ذلك»[٤]. ويقول فارتما ان اهل هرمز يعتبرون الارز غذاء اساسياً، وانه لا يوجد عندهم قمح. وقد ذكر ماركو بولو ان اهل هرمز لا يستعملون الخبز في غذائهم الا في حالة المرض. ويبدو ان انعدام القمح هو السبب الرئيسي لذلك[٥].

في مطلع القرن السادس عشر اخذ البرتغاليون باحتلال مناطق خليج عمان والخليج العربي. ففي سنة ١٥٠٦ استولوا على مسقط وعمان وهرمز. وبذلك ثبتوا اقدامهم في الخليج لمدة قرن تقريباً، وان كانوا قد تعرضوا لثورات كثيرة (قلهات ومسقط ١٥٢٦) والقطيف (١٥٥٠)، كما ان الاتراك اخذوا منذ ١٥٥٠ يقاومون البرتغاليون في تلك الاصقاع بواسطة جماعة من كبار الرجال مثل بير بك الذي هاجم القطيف وهرمز.

وهذه الفترة التي شغلت الناس بالحروب كانت غنية أيضاً بالرحالين الذين خلفوا لنا الكثير من الفوائد عن البلاد واهلها. فهناك «التعليقات» التي كتبها القائد البرتغالي البوكيرك الذي قاد الاسطول لفتح هذه المنطقة واحتلالها. وهناك دوراتي بربوزا الذي حظيت البحار والاقطار الشرقية بزيارته والذي كتب وصفاً مفصلاً لجميع المناطق التي زارها في العقد الثاني من القرن السادس عشر. وهناك فريا سوسه الذي مر بالبلاد في اواسط القرن. واخيراً عندنا فتش الانكليزي الذي مر بالديار في أواخر القرن.

فالبوكيرك يحدثنا عن مسقط التي احتلها سنة ١٥٠٦ بقوله: «مسقط مدينة كبيرة كثيرة السكان، تحيط بها، من الجهة الداخلية، جبال مرتفعة، اما من جهة البحر فهي قريبة جداً من الماء... ميناؤها صغير يشبه نعل الفرس، وفي مأمن من الرياح. ومسقط السوق الرئيسية لمملكة هرمز، إذ يجب ان تمر بها جميع السفن لتتجنب

الشاطىء المقابل الصخري. وهي منذ القدم ميناء الخيول والتمر. مدينة جميلة بيوتها انيقة ويأتيها من داخل البلاد القمح والذرة والشعير والتمر»[٦].

اما دوراتي بربوزا فقد وصف عدداً كبيراً من مدن الخليجين ـ خليج عمان والخليج العربي ـ بادئاً من الشحر (او شحر) «الميناء الغني بمختلف انواع السلع... مثل الاقمشة القطنية... والارز والسكر والافاويه وغير ذلك من المتاجر... وهذه تبادلها الشحر مع القادمين اليها بالبخور والخيول الممتازة التي قد يبلغ ثمن الواحد منها في اسواق الهند نحو ٢٥٠ استرلينية. وبلاد الشحر كثيرة القمح واللحوم والتمر والاعناب»[٧].

ويعدد بربوزا الاماكن التابعة لمملكة هرمز وبينها قلهات والقريات ومسقط وصحار[٨]. ومسقط «واسعة المتجر كثيرة الاسماك التي تملح هناك وتجفف وتنقل الى كثير من البلدان لبيعها»[٩]. اما في الجهة المقابلة، اي على الشاطىء الفارسي، فالظاهر ان نفوذ هرمز كان ايضاً واسعاً إذ ان بربوزا يعد قرابة ١٥ مدينة وقرية، يضاف الى هذا ان الجزر الواقعة بين الشاطئين كانت ايضاً تابعة لهرمز «والبحرين مسكن عدد كبير من التجار والسكان المحترمين... وتكثر حول الجزيرة مغاصات اللؤلؤ. والتجار يربحون ارباحاً طائلة من الغوص عل اللؤلؤ، فضلاً عن أنهم يفيدون من تصديره»[١٠].

وتقع «البصرة في نهاية البحر الفارسي... وتأتي اليها سفن عديدة تحمل القطن والتوابل لتمتار من البصرة القمح والسمن والزيت والشعير»[١١].

وهرمز يسميها بربوزا المدينة الجميلة ويتحدث عنها حديثاً طويلاً يمكن تلخيصه فيما يلي: بيوت المدينة جميلة، اما هرمز فحارة جداً وجافة جداً. تجارها عرب وفرس وكلهم يتكلمون العربية (الفرس يتكلمون لغتهم ايضاً)، وجميعهم مسلمون. ولهم ولع بالموسيقى والغناء. وكثير من تجارها اغنياء جداً ويملكون سفناً عديدة، وفي مينائها واسواقها يتبادل الناس سلعاً من مختلف الانواع والبلدان. فالافاويه والتوابل ـ كالفلفل والزنجبيل وكبش القرنفل وحب الهال والزعفران ـ وخشب الصندل والنيلة والشمع والحديد والسكر والارز (بكميات كبيرة) وجوز الهند والحجارة الكريمة والفخار والبخور والأقمشة التي تنقل حتى من بلاد البنغال والنحاس والزئبق وماء الورد وقماش البروكاد والتفتا والحرير والمسك والصمغ والخيول والتمور والملح والكبريت. والاثرياء من السكان يلبسون الثياب الحريرية، اما الباقون فيكتفون بالثياب القطنية، وكلها يحتفظ بها نظيفة. وهم اهل آداب حضرية، وشديدو العناية بمآكلهم ويكثرون من استهلاك الثمار المجففة والطازجة كالمشمش والتين والتفاح والرمان والدراق واللوز والاعناب والبطيخ. وكل شيء في هرمز مرتفع الثمن لأن المؤن تحمل اليها من خارجها ـ من بلاد العرب وفارس وغيرهما، اما الجزيرة فليس فيها الا الملح. حتى الماء يحمل اليها من خارجها، تحمله طرادات اي سفن صغيرة.

والقوم يحافظون على الوزن والكيل، وكل من يخالف ذلك يعاقب بشدة، ومن عادتهم ان يبتاع اللحم مطهواً، اما مسلوقاً او مشوياً، وكثير من الناس يأكلون في الأسواق[١٢].

ولما اهتمت تركية بالخليج وما اليه[١٣]، وقام بير بك يزعج البرتغاليين بأسطوله ورجاله، ويحتل جهات ويثير الثورات في جهات اخرى، اضطربت الحياة بعض الاضطراب في اماكن كثيرة، ولكن المحاولة التركية لم تستمر بحيث تخرج البرتغاليين من المنطقة. وفي اثناء هذه الحوادث زار تلك الجهات فريا سوسه الذي كتب وصفاً لنشاط بير بك في جهات هرمز بعد معركة قرب مسقط كان النصر فيها حليفه ضد البرتغاليين (سنة ١٥٥٠). قال سوسه: «ظهر اسطول الاعداء (اي الاتراك) امام مسقط، التي قاومت نحو شهر لكنها اخيراً وقعت في أيدي المهاجمين، وعندها جعل بير بك الضابط وستين من الرجال يقومون بالتجذيف في سفنه، ولكن بعض هؤلاء افتدوا فيما بعد. ولما انتهى أمر مسقط اتجه بير بك نحو هرمز، حيث كان الفارو دو نورونه (قائد الموقع) يقيم في الحصن ومعه تسعمئة رجل.. وكان لديه من العتد ما يكفيه لحصار طويل، وكان في الميناء اربعون سفينة... وجاء التركي الى الجزيرة، فانزل المراسي، ونزل الجند وخيموا هناك ثم حفروا الخنادق واقاموا الطوابي ونصبوا المدافع واطلقوا نيرانها شهراً كاملاً دون توقف، فلما وجد ان هذا لم يجده نفعاً نهب ما استطاع من المدينة، ثم انتقل الى جزيرة كشم، حيث كان قد لجأ الكثيرون من سكان هرمز. هناك غنم كثيراً، ثم انسحب ليعد نفسه للمعركة من جديد[١٤].

في أواخر القرن السادس عشر جاء الشرق اربعة من الانكليز بينهم رالف فتش. وقد قطع هؤلاء البلاد من طرابلس في لبنان عبر سورية الى الفرات ثم الفلوجة وبغداد والبصرة ومنها ركبوا البحر الى هرمز، حيث القى البرتغاليون القبض عليهم على انهم جواسيس، ومنها ارسلوا الى غوا في الهند. وقد وصف فتش رحلته فقال عن الطريق من البصرة جنوباً ما يلي: «البصرة مدينة لها تجارة كبيرة في التوابل والعقاقير ومنها ذهبت... في سفينة مصنوعة من الخشب المربوطة ببعضها البعض بحبال مصنوعة من قشر جوز الهند او القنب ومن هنا كان الماء يدخلها كثيراً. وكانت فارس دوماً على يسارنا وشواطىء العربية على يميننا، ومررنا بكثير من الجزر اهمها جزيرة البحرين المشهورة والتي تصدر خير اللؤلؤ... (ووصلنا بعد ذلك) الى هرمز وهي انشف جزيرة في الدنيا، اذ لا ينبت فيها شيء الا الملح... وفي هذه المدينة تجار من جميع الأمم، مسلمين وغير مسلمين. وهنا اتجار في جميع انواع الافاويه والعقاقير والحرير والسجاد واللؤلؤ والخيول.. وملكهم مسلم لكنه خاضع للبرتغال»[١٥].

يبدو من هذا العرض المقتضب ومن هذه الفقرات التي نقلناها عن هؤلاء الرحالين ان المركز الرئيسي لتجارة الخليج كانت هرمز لمدة تقارب ثلاثة قرون وان المدينة ظلت مركزاً تجارياً هاماً حتى اثناء الاحتلال البرتغالي. ويبدو ايضاً ان المراكز التجارية الاخرى في عمان والخليج كانت تعتمد على هرمز واسواقها.

لكن مع ذلك كان لا بد من ان تتأثر المنطقة بكاملها من امرين ـ الأول ان الاحتلال البرتغالي كان يريد ان يحصل على اكبر كمية من الفائدة لذويه، وكان الحكام يحاولون الإثراء. وهذا اضعاف للتجارة بطبيعة الحال. والثاني ان فتح طريق جنوب افريقية كان لا بد ان يؤثر في تجارة الخليج، وقد بدأ هذا في السنوات الأولى من القرن السابع عشر.

الهوامش

(١) Marco polo, *Voyage and Travels*, London, Cassell, 1886, p. 47.
(٢) نفس المكان، ص ٤٩.
(٣) Wilson, Arnold Talbot, *The Persian Gulf*, Oxford, Clarendon, 1928, pp. 105-106.
(٤) نفس المكان، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٥) Marco Polo, pp. 35, 49.
(٦) Albuquerque, Alphonso d, *Indies Adventures*, London, Blackie 1936, p. 35.
(٧) Barbosa, Durate, *The Book of Durate Barbosa*, London, Haklyut Society, 2nd series, No XLIV, VOL, I. pp. 64-65.
(٨) نفس المكان، ص ٧٠.
(٩) نفس المكان، ص ٧١.
(١٠) نفس المكان، ص ٨١.
(١١) نفس المكان، ص ٨٨ ـ ٨٩.
(١٢) نفس المكان، ص ٩٠ ـ ٩٢.
(١٣) Wilson, pp. 124 ff.
(١٤) Wilson, pp. 125-126.
(١٥) Wilson, p. 134.

الرسوم والخرائط

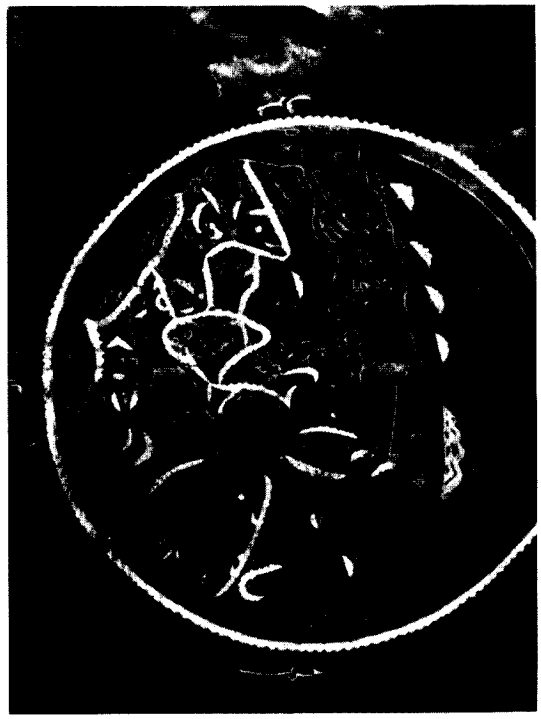

خارطة العالم (للادريسي)

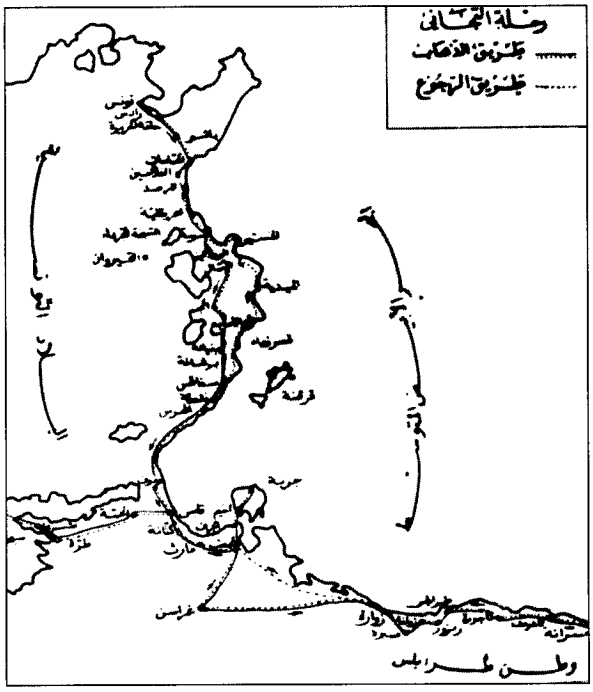

رحلة التجاني

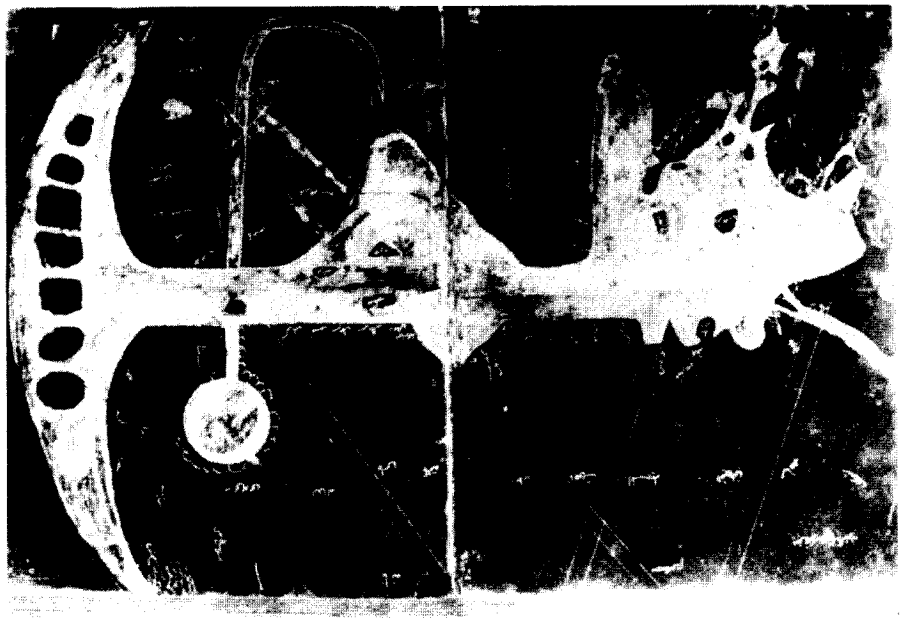

حوض البحر الابيض المتوسط (لابن سعيد)

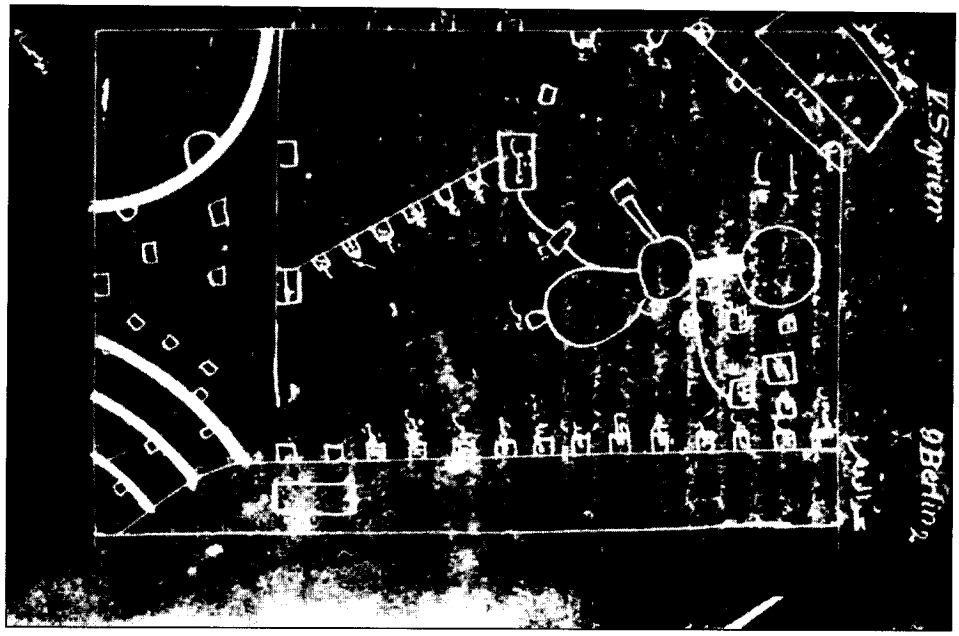

ديار الشام (للبلخي)

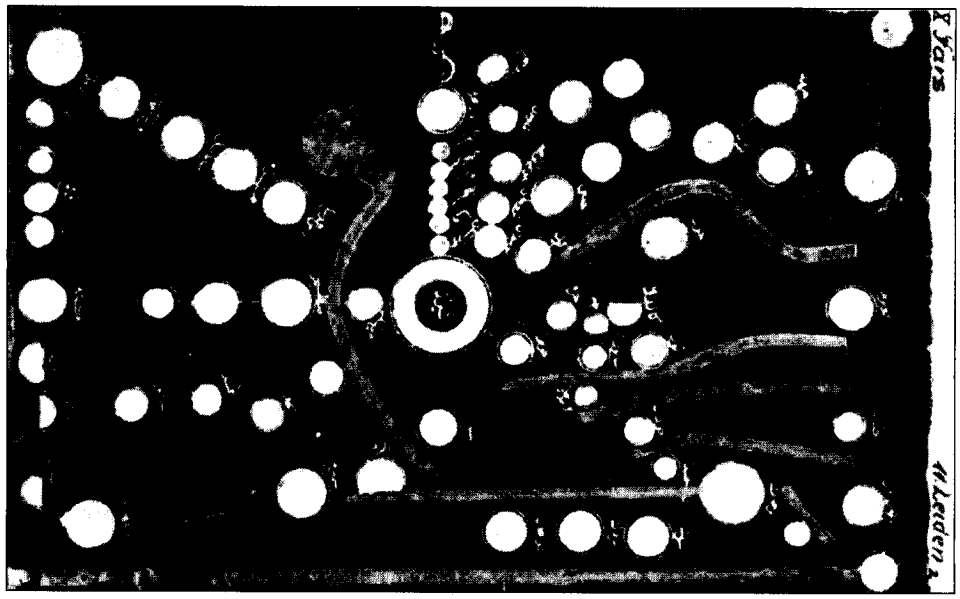

بلاد فارس

ديار العرب

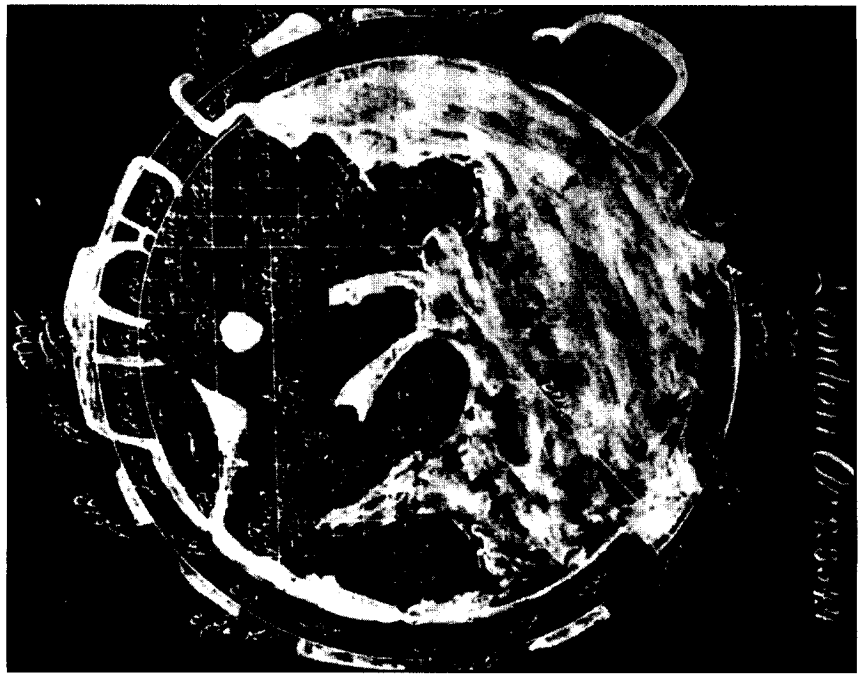

خارطة العالم (للمستوفي)

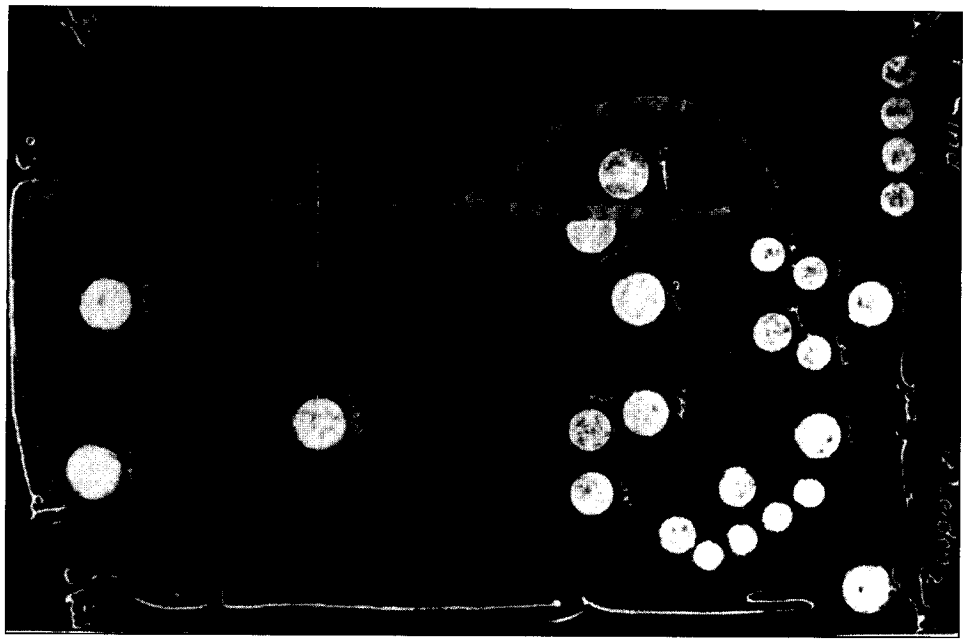

حوض السند

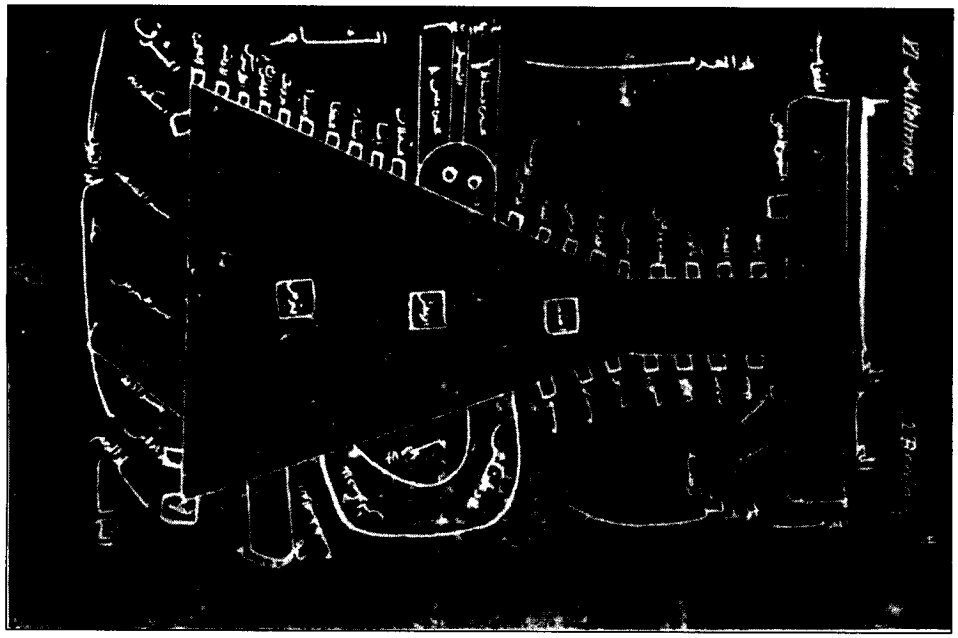

البحر المحيط

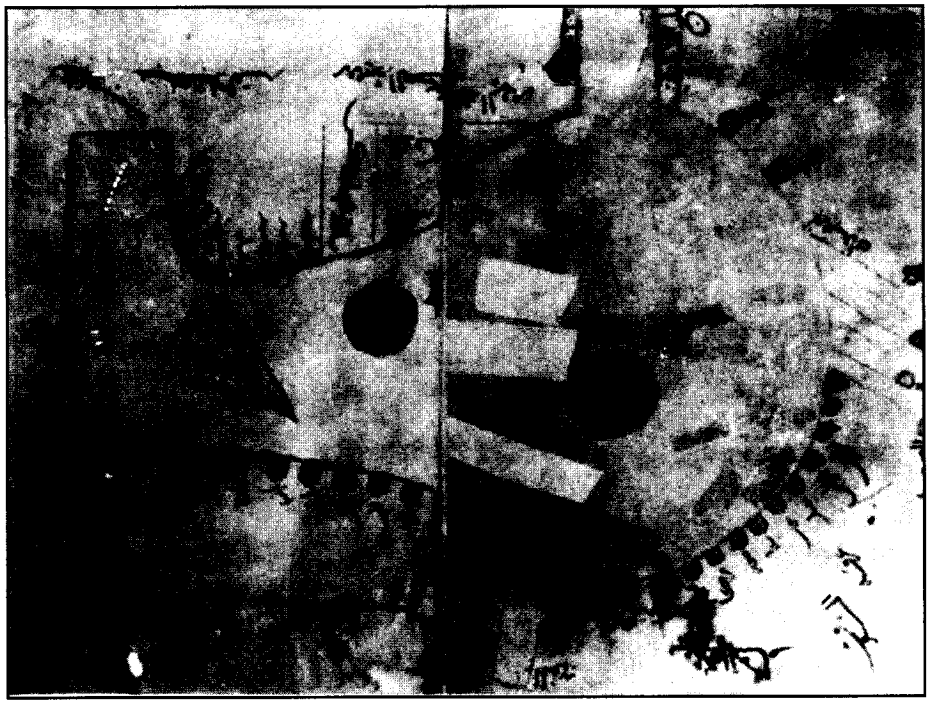

حوض البحر الابيض المتوسط

الجزء الثاني من الاقليم الرابع

المغرب

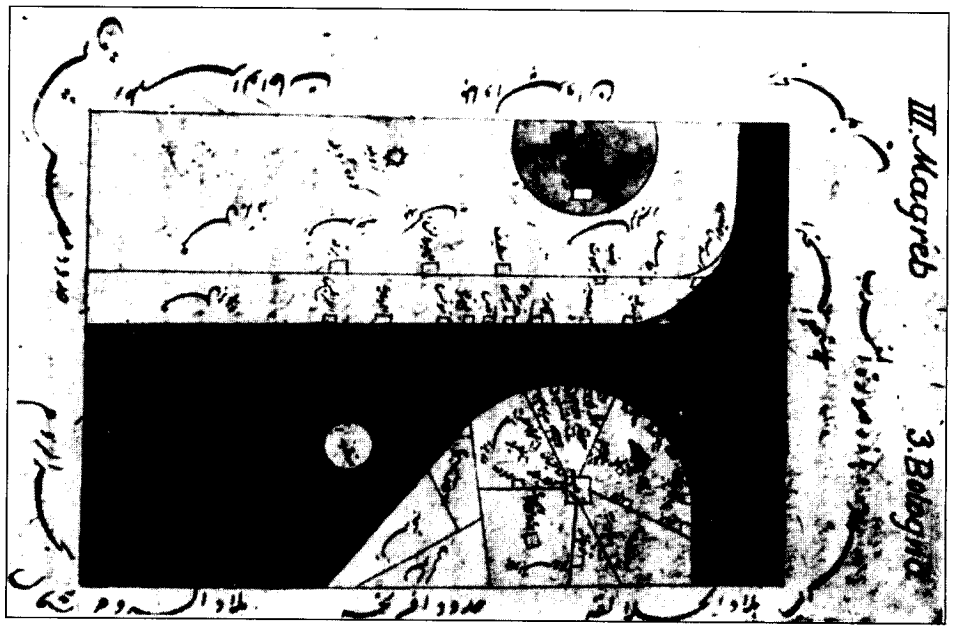

المغرب في القرن العاشر للميلاد

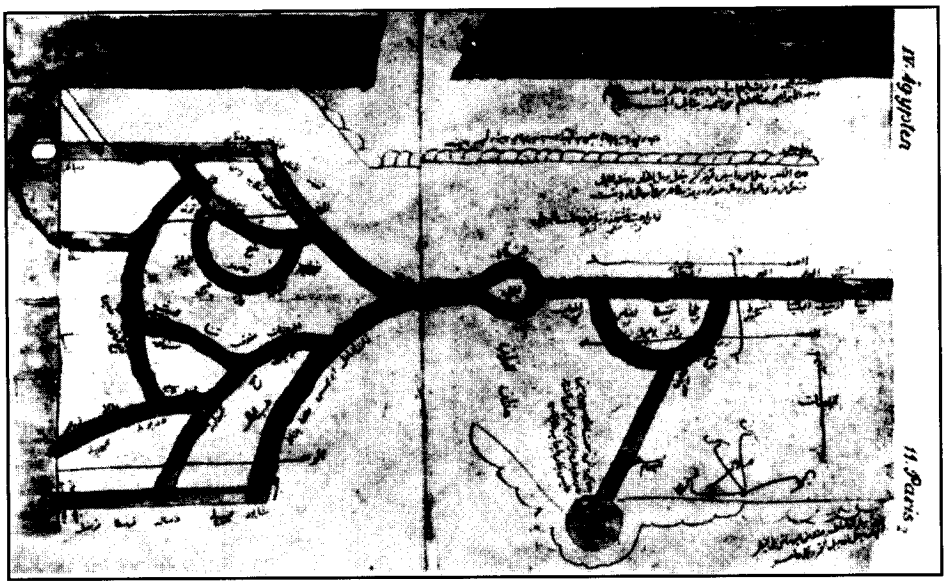

مصر (للاصطخري)

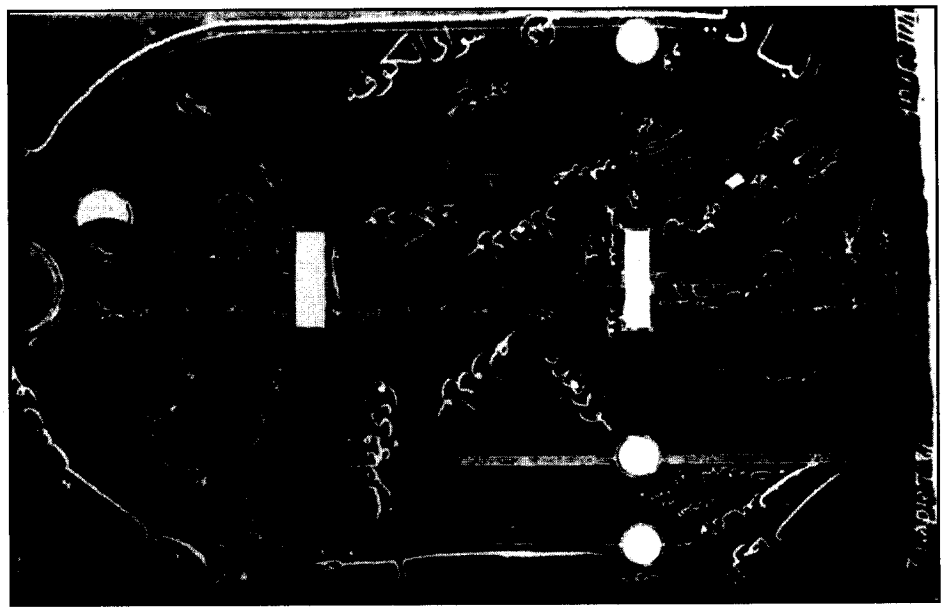

العراق

بحر الخزر

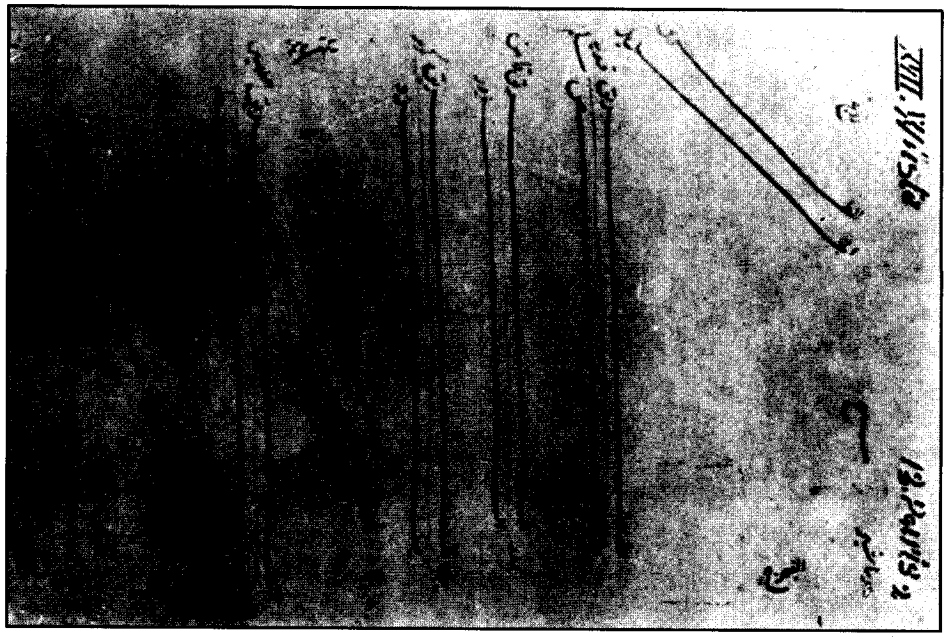

صحارى الخزر

الأهلية للنشر والتوزيع